

المجموعة الكاملة لمؤلفات الشهيد
سماحة آية الله
السيد عز الدين بحر العلوم (قدس سره)

(٣)

أضواء على دعاء الصباح

الشهيد السعيد سماحة آية الله
السيد عز الدين بحر العلوم (رحمه الله)

مبرّة
المرحوم محمد رفيع حسين معرفي الثقافيّة الخيريّة

دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان



أضواء

على دعـاء الصباح

المجموعة الكاملة لمؤلفات الشهيد
سماحة آية الله
السيد عز الدين بحر العلوم (رحمه الله)
(٣)

أضـواء
علـى دعاء الصباح

الشهيد السعيد سماحة آية الله
السيد عز الدين بحر العلوم (رحمه الله)

مبّرة
المرحوم محمد رفيع حسين معرفي الثقافيّة الخيريّة



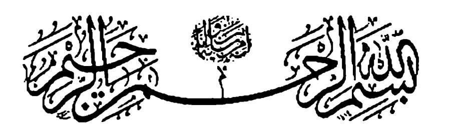
بيروت ـ لبنان

الطبعة الثانية

٢٠١١ م - ١٤٣٢ هـ



بيروت . لبنان . حارة حريك . شارع المقداد . بناية الهدى
هاتف : ٧٢٧٧٦٤ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٥٤٠٩٤ ١ ٠٠٩٦١
e-mail: najaf_86@yahoo.com



والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين

محمد وآله الطيبين الطاهرين

المقدمة

من القرآن الكريم

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [سورة البقرة الآية: ١٨٦]

ومن السنة الشريفة

عن رسول الله (ﷺ):

«أفضلُ عبادة أُمتي بعد قراءة القرآن الدّعاء».

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام):

«واعلم أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض قد أذن لك في الدعاء وتكفّل لك بالإجابة وأمرك أن تسأله ليعطيك وتسترحمه ليرحمَكَ».

ومن دعاء الصباح

إلهي كَيفَ تَطردُ مِسكيناً التجأ إليكَ مِن الذُنوبُ هارِباً.. أم كَيفَ تخيبُ مُسترشداً قَصدَ إلى جنابِكَ ساعِياً .. أم كيف ترد ظمآنَ وردَ إلى حِياضِكَ شارِباً.

ومن التضرع

فلمّا قَسا قَلبي وضاقَتْ مذاهبي جعلتُ دُعائي نحو عَفوك سُلَّما فعاظمَني ذنبي فلَمّا قرنتهُ بعفوِك رَبّي كان عفوك أعظَما.

بين يدي الإمام (عليه السلام)

سلام الله عليك يا أمير المؤمنين.

سلام الله عليك يا أبا الحسنين.

وسلام الله عليك يوم ضمك بيت الله وليداً لتستقبلك الدنيا في أشرف بقعة من بقاع هذه الأرض.

وصلوات الله عليك يوم ربيت في حجر الإيمان في حجر محمد(صلى الله عليه وآله) وكنت عضده وناصره.

وصلوات الله عليك يوم رحلت عن هذه الدنيا متشحطاً بدمك في بيت من بيوت أذن الله أن ترفع، ويذكر فيها اسمه.

يا أمير المؤمنين: يا من علمت الإنسان حلاوة الدعاء.

ويا من علمت الإنسان كيف يتجه إلى خالقه يقدسه، ويمجده، وكيف يناجيه، ويأنس بقربه، وكيف يفنى في ذات الله تعالى.

يا أمير المؤمنين: إذا اتجهت إلى ربك لا تنتهي مناجاتك، ولا حد لتضرعك، وخشوعك.

كلك فناء في ذات الله.

وكلك ترنيمة في تسبيح الله.

وكلك إجلال في تقديس الله.

وكلك خشوع أمام الله.

يراك الداعي من خلال مناجاتك مع الله، وقد حلّقت في رحاب الله منهمكاً في

حوارك معه فلا تود أن تنهي ذلك الحوار، بل تريد لنفسك أن تبقى محلقة في أجواء الله الرفيعة تسبح في ملكوت الله.

يحدث عنك أبو الدرداء فيقول:

شهدت علي بن أبي طالب بشويحطات النجار [1]، وقد اعتزل عن مواليه واختفى ممن يليه واستتر بمغيلات النخل [2] فافتقدته وبعد عليّ مكانة فقلت لحق بمنزله فإذا أنا بصوت حزين، ونغمة شجي وهو يقول:

إلهي: كم من موبقة حلمت عن مقابلتها بنقمتك، وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك.

إلهي إن طال في عصيانك عمري، وعظم في الصحف ذنبي، فما أنا بمؤملٍ غير غفرانك، ولا أنا براجٍ غير رضوانك.

يقول أبو الدرداء: فشغلني الصوت واقتفيت الأثر فإذا هو علي بن أبي طالب بعينه، فاستترت له وأخملت الحركة [3] فركع ركعات في جوف الليل الغابر.

ثم فرغ إلى الدعاء، والبكاء، والبث والشكوى، فكان مما به الله ناجاه أن قال:

إلهي أفكر في عفوك فتهون عليّ خطيئتي، ثم أذكر العظيم من أخذك فتعظم عليّ بليتي.

ويتنفس أبو الدرداء الصعداء، ويتابع حديثه فيكمل ما سمعه من المناجات فيقول:

ثم قال (عليه السلام):

آهٍ إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها، وأنت محصيها فتقول:

---

(١) الشوحط: شجر يتخذ منه القسي (كما في معجم البلدان).

(٢) الغيلة: بالكسر الشجر الملتف، والمغيلات جمعها والظاهر أن هذا المكان من البساتين، أو مكان فيه شجر كثير ذهب الإمام(عليه السلام) ليتعبد فيه بعيداً عن العيون.

(٣) خمل: ذكره، وصوته خمولاً: خفي، والمراد أنه لم يحدث في حركته ضوضاءً لئلا ينتبه إليه أمير المؤمنين.

خذوه، فياله من مأخوذٍ لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته، آهٍ من نارٍ تنضج الأكباد والكلى، آهٍ من نارٍ نزاعة للشوى، آهٍ من غمرة من ملهبات لظى (١).

يا أمير المؤمنين: وفي خصوص هذا الدعاء يراك الداعي، وقد قرأ بعض مقاطعه، فيظن أنك قد فرغت من ترتيل وردك الصباحي تختم به مسيرتك الدعائية، وتنهي خلوتك مع ربك، ولكن سرعان ما يراك، وقد عدت إلى ما كنت عليه من مناجاتك لا تريد لنفسك أن تهبط من عليائها لتعود إلى هذه الدنيا مرةً أخرى.. بل تريدها دائماً قريبة من خالقها خاشعة مسبحة تجللك غيبوبة العاشق الواله المتعطش إلى لقاء ربه ترطب فمك بذكر الله، وتسبيحه، وتحميده.

إن تعلقك بربك، وانشدادك إليه هو الذي جعلك تعود إلى إعادة الحوار مرة ثانية، وثالثة لتبيّن للناس آثار عظمته، وقدرته، ونعمه المتواصلة على العباد، ولكن في كل مرة بشكلٍ جديد تتوخى من وراء ذلك أن تبين بعض جوانب عظمته في هذا الوجود، وفي هذه الأرض التي نعيش عليها لتعطي للأجيال دروساً في مخافة الله، وتزرع في القلوب جلاله، وقدسه.

وأخيراً: لتبقى كلمة رسول الإنسانية الخالدة وساماً تزين بها صدرك عبر الأجيال المتلاحقة، والقرون المتمادية إلى اليوم الذي يختار الله لهذه الدنيا نهايتها:

(يا علي ما عرفك إلاّ الله وأنا).

---

(١) العلامة المجلسي: بحارالأنوار/ ٤١، ١٢.

مـع الدعاء

قال الله سبحانه في كتابه الكريم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (١).

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ (٢).

وفي آية ثالثة، قال عز وجل مخاطباً نبيه:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾(٣).

وعلى هذا النحو من الأمر بالعبادة جاءت الآيات تترى، تأمر الناس بعبادة الله، وعدم إشراك إلهٍ آخر معه.

وأخيراً، تقف بين يدي آية رابعة، يقول فيها سبحانه:

﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾(٤).

من خلال هذه الآيات، وما ماثلها مما جاء في الكتاب المجيد يظهر لنا أن هناك ارتباطاً بين خلق الإنسان وبين عبادة الله جلت عظمته.

ولسنا في صدد البحث عن المراد من قوله: (ليعبدون) في الآية الأخيرة، وأن هذه هل هي للغاية بمعنى، أن غاية خلق الله لفصائل الجن والإنس العبادة بنحو لا

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢١.

(٢) سورة النساء: الآية، ٣٦.

(٣) سورة الأنبياء: الآية، ٢٥.

(٤) سورة الذاريات: الآية، ٥٦.

يتخلف الثاني عن الأول أم لا بل المراد من ذلك أنهم خلقوا على نحوٍ يصلح كل منهم للعبادة، وعلى نحو الاستعداد، والتقبل لها كما يقال: إن الإنسان مخلوق للعمل، وليس معنى ذلك أن كل إنسان يعمل؟

كل ذلك نترك التعمق فيه إلى كتب التفسير، والمهم فيما نحن فيه، البحث عن هذا الارتباط بين خلق الإنسان وعبادة الله، وبيان ما المقصود من العبادة التي أمر الله عباده بها، وهي ـ كما قلنا ـ جاءت في القرآن الكريم في ضمن آيات عديدة، وبعبارات مختلفة من القول:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ﴾ [١] أو ﴿اَعْبُدُواْ اللَّهَ﴾ أو ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [٢] أو ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [٣] أو ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ [٤].

ما هي العبادة؟

يقول علماء اللغة: العبادة هي: الطاعة، وهي نهاية التعظيم لله، وإذا قيل: (محمد يعبد الله) فمعناه أنه طاع له، وذل، وخضع له.

أما علماء التفسير فقد ذكروا للعبادة فيما جاء من هذه الكلمة في الآيات الكريمة معاني عديدة إلاّ أنها لدى التأمل ترجع إلى ما ذكره اللغويون من أنها الطاعة والخضوع، وإن كانت مظاهر الطاعة في بعض الآيات تختلف عن البعض الآخر.

وإذا كان المراد من العبادة هو الطاعة، فلنقف عند هذه الكلمة لنرى ما هي الطاعة مفهوماً، وما المراد منها على الصعيد الخارجي؟؟.

عندما يأتي اللغوي ليحدد مفهوم الطاعة نراه لا يزيد على القول: بأن الطاعة: هي الانقياد، وهذا شامل لكل انقياد ولكل أحد ومن كل أحد، ولكن الذي يميز

---

(١) سورة البينة: الآية، ٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآية، ٢٥.

(٣) سورة النور: الآية، ٥٥.

(٤) سورة طه: الآية، ١٤.

الطاعة لله عن طاعة غيره هو:

إن طاعة الله: الإيمان الكامل بأنه تعالى هو: الأول، والآخر، وهو الملجأ في كل شيء لا حول للعبد ولا قوة إلاّ به ومنه، وإذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون.

وطاعة الله: هي الخضوع له، والتسليم لإرادته على نحوٍ لا يشرك به أحداً غيره، ومن ثم الإقرار له بالوحدانية. لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

وطاعة الله: الإيمان بالرقابة الروحية من الله على عباده، يعلم العبد من خلالها إنه:

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (١).

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢).

وطاعة الله: معناها الصدق في النية، ومعنى الصدق في النية الإخلاص في العمل، وبالأخلاص في العمل يتخلص الفرد من الازدواجية، وإشراك غير الله في عبادته، وفي التقرب إليه.

يقول النبي (ﷺ): «يؤمر رجال إلى النار فيقول لهم خازن النار ما حالكم؟ فيقولون: كنا نعمل لغير الله فقيل لنا: خذوا ثوابكم ممن عملتم له» (٣).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): «كم من صائم ليس له من صيامه إلاّ الظمأ، والجوع، وكم من قائم ليس له من قيامه إلاّ العناء» (٤).

وأخيراً، فإن الطاعة هي الانشداد لله، والتقرب إليه بكل عملٍ يقوم به الإنسان، وعدم البعد عنه جلّت قدرته.

---

(١) سورة ق: الآية، ١٨.

(٢) سورة الانفطار: الآيات، ١٠ – ١٢.

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ١، ٥١.

(٤) المصدر المتقدم: ١، ٥٣.

فوائد الطاعة في الدنيا:

وإذا كان الإنسان منشدّاً إلى ربه ملتزماً بجميع ما تقرره شرائعه صادقاً في نيته مخلصاً في عمله معتقداً أن هناك عيناً تراقبه في جميع حركاته، وسكناته، وفي الوقت نفسه يثاب على الامتثال، كما ويعاقب على العصيان فهذا معناه: وجود إنسان كامل، الإنسان الذي يؤمن جانبه.

الإنسان الذي يؤمل فيه الخير، وهو بعيد عن الشر، وعن كل رذيلة، وبذلك يسعد المجتمع ويعيش أفراده في راحة وهناء.

هذا ما يستفيده المجتمع من الفرد المطيع، أما ما يستفيده هو من طاعته في دنياه فيكفي في تقييمه من قبل الله تعالى، أنه يقول له: «يا عبدي أطعني تكن مثلي، أنا أقول للشيء كن فيكون، وأنت تقول لشيء كن فيكون»[(١)].

كما جاء ذلك في حديث قدسي عنه جلت عظمته.

ويقول سبحانه في آية كريمة يبشر بها عباده المؤمنين:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[(٢)].

وتقف الآية عند هذا الحد فلم تشرح، أو تعطي صورة عن نوعية هذه الحياة التي جعلها الله لعباده المؤمنين الصالحين جزاء عملهم، وإيمانهم، ولذلك ترى المفسرين قد تشعبت أقوالهم في بيان هذه النوعية فمن قائلٍ: أنها الرزق الحلال يرزقه الله لأولئك المؤمنين، ومن قائلٍ: إنها القناعة، والرضا بما قسم الله، ومنهم من يقول: إنها الصحة، والمال، أو الهدوء والرضا، أو غير هذا، وذاك.

ولكن الله سبحانه أكرم من أن يحصر نعمته على عبده المؤمن بنوعٍ خاص يقدمه جزاء على سلوكه، وسيرته المرضية له، لذلك أطلق، وجعل هذه الصفة على ما في

---

(١) شرح رسالة الحقوق: ٤١٠، تحقيق: شرح حسن السيد علي القبانجي، الناشر: مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر.

(٢) سورة النحل: الآية، ٩٧.

عليه من شمولها لكل نوعٍ يصدق عليه أنه (طيب، وحسن)، فقال: [حَيَاةً طَيِّبَةً] ولم يعقب بشيء.

وليهنأ المؤمن عندما يتلقى البشارة من ربه بحياة يقول عنها رب العالمين القادر على كل شيء العطّاء الذي لا ينقص من ملكه كل ما أعطى إنها: (طيبة).

وعلى الصعيد الاجتماعي نرى الإمام الحسن بن علي (عليه السلام) يقيم لنا ما يناله المطيع في دنياه حيث يقول في وصيته للصحابي الجليل جنادة بن أبي أمية: «وإذا أردت عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فاخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعة الله عز وجل»[(١)].

فوائد الطاعة في الآخرة:

وليس من المقبول أن تقارن بين ما يجنيه الإنسان في الآخرة من فوائد مترتبة على طاعته، وبين ما يجنيه منها في الدنيا لو أطاع ربه.

فالدار الآخرة، هي دار الجزاء، وهي الدار التي ينال فيها الفرد جزاءه نتيجة أعماله في هذه الدنيا إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. والآخرة خيرها دائم، وليس هو كخير الدنيا زائلاً.

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[(٢)].

ففيها الحياة الحقيقية الباقية التي لا زوال لها، ولا موت فيها، ولا كدر، ولا مضايقة بل نعيم دائم، وقد قال تعالى في جزائها:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[(٣)].

وفي القرآن الكثير من هذه الآيات، وكلها تبشر بالجزاء الأوفر الجنة وعدها

---

(١) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٤٤، ١٣٩.

(٢) سورة العنكبوت: الآية، ٦٤.

(٣) سورة العنكبوت: الآية، ٥٨.

لعباده المؤمنين المطيعين، وكفى بالجنة جزاءً، كما وكفى بالنار وعيداً.

ومن كل هذا يظهر لنا، أن طلب العبادة والأمر بها لا لغاية تعود بالنفع إلى الله تعالى، بل إنما لفائدة تعود إلى البشر أنفسهم، وإلاّ فإن الله غني عن خلقه، وعن عبادتهم، وتقديرهم وشكرهم.

وقد صرح القرآن الكريم بهذه الحقيقة فقال عز وجل:

﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾[١]. ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[٢].

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾[٣]. فهو الغني، وهو المنعم يرعى الإنسان من اللحظات الأولى، وحتى اللحظات الأخيرة بدءاً بتكونه، وختاماً بموته، وانتقاله من هذه الدنيا.

مظاهر الطاعة:

كيف يُعرف الإنسان مطيعاً لربه وخاضعاً له؟.

وفي مقام الجواب عن هذا السؤال نقول:

مظاهر الطاعة:

تارة: تكون بالإمتثال لأوامر الله، والانتهاء عن نواهيه، يتقرب العبد بكل ذلك إليه سبحانه.

وأخرى: بالانشداد إليه المتمثل بالدعاء، والمناجات، والتودد إليه بكل مظاهر الخضوع والخشوع.

أما القسم الأول: فيحصل بالأخذ بكل ما تقرره الشريعة على الإنسان في كل المجالات الحياتية بما يعم العباديات منها، والعملية المعبر عنها بالمعاملات، ولذلك نرى اللغويين يضيفون إلى تعريفهم للعبادة بأنها الطاعة، والخضوع قولهم: والالتزام

---

(١) سورة محمد: الآية، ٣٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية، ٩٧.

(٣) سورة الأنعام: الآية، ١٣٣.

بشرائع دينه.

وأما القسم الثاني: فقد قلنا: أنه الانشداد، والتودد إليه، ومن أهم مظاهر هذا الانشداد هو الدعاء، والمناجاة. فبالدعاء تتجسد الطاعة وذلك: لأن حقيقة الدعاء هو التوجه إلى الله والاعتراف بأنه الملجأ الذي يجد الداعي عنده أمنيته.

وبالدعاء يعترف الداعي بأن الله هو القادر على كل شيء في هذه الحياة، ومنها حل مشاكله، والعفو عن سيئاته، ومنحه الأجر الجزيل في الدنيا والآخرة.

والدعاء ـ في الوقت نفسه ـ ينظم للداعي خطواته في توجهه نحو الله، وتحصيل ما يريد.

فيوجهه أولاً، ليعترف أمام ربه بذنبه، وليطلب منه ثانياً بعد هذه الخطوة من مسيرته الدعائية قبول توبته، والعفو عما جناه، وخالف به من الأوامر، وارتكاب ما نهى عنه.

ومن ثم يعطف به إلى تقديم طلباته الدنيوية ليستعين بذلك على سد ما يحتاجه من متطلبات الحياة اليومية له، ولمن يَعُول.

إذاً، فالدعاء هو التيار الموصل بين قلب الإنسان، وربه وهو الرابط بينهما.

ولذلك نرى أمير المؤمنين (عليه السلام) يوجه الداعي إلى الإقبال في دعائه فيقول: «لا يقبل الله عز وجل دعاء قلبٍ لاهٍ»[(١)].

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق (عليه السلام) نراه يقول: (إذا دعوت فأقبل بقلبك)[(٢)].

إن القلب هو القاعدة الأساس لكل ما يصدر من الإنسان فإذا كان القلب غير متوجهٍ نحو الله فإن ما يصدر منه لا يكون مؤثراً ذلك التأثير الذي يتوخى منه الانعطاف نحو عبده وقبول توبته، وتلبية طلباته.

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ ٢، ٤٧٣.

(٢) الكافي / ٢، ٤٧٣.

وعليه لابد للدعاء من صدوره من قلب متجه نحو الله وبذلك يحصل الداعي على ما يريد من ربه لأنه دعاه بقلب لم يشرك أحداً فيه وبلسان لم يعصِ الله فيه.

ومن هذا المنطلق كان الدعاء هو العصب الحساس في العبادة كما عبر عن ذلك الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) عندما قال: (الدعاء مخ العبادة) (١).

فقد شبه الإمام(عليه السلام) الدعاء بالإنسان ونظر بينهما فكما أن الإنسان الذي لا مخ له، إنسان أجوف لا فائدة فيه فكذلك العبادة التي لا تشتمل على الدعاء عبادة جوفاء لا تأثير فيها.

وفي مقام آخر: نقف بين يدي حديث آخر روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) يقول فيه: (أفضل العبادة الدعاء) (٢).

قال ذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٣). قال هو الدعاء وأفضل العبادة الخ.

وبهذا المضمون وردت أحاديث كثيرة تنوه بفضيلة الدعاء وأهميته وأن الله يأمر عباده به ليستجيب لهم، وبهذا أيضاً جاءت آيات قرآنية صرحت بذلك.

ولنا أن نتساءل لماذا كل هذه الأهمية للدعاء؟

والجواب: إن الدعاء يأتي نتيجة ما ينطبع في القلب من انعكاسات تحصل بعد مراجعة الداعي لكشف حسابه مع ربه، فهو عندما يذنب، ويتعدى الحدود المقررة من الشريعة عليه لا يجد ملجأً يتوجه إليه غير ربه ليعفو عنه، ويتجاوز عما اقترفه لذلك يهرع إليه بطلب منه أن يصفح عنه فلا يرتب أثراً على ما صدر منه.

ولمثل هذه المواقف نرى الإمام زين العابدين (صلوات الله عليه) يعلمنا كيف يقف المذنب بين يدي ربه، وكيف يبدأ الحوار معه، ومن ثم كيف يستعطفه، ويناجيه.

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٢، ١٠٨٧ ـ ١٠٨٨.

(٢) وسائل الشيعة / ٢، ١٠٨٧ ـ ١٠٨٨.

(٣) سورة غافر: الآية، ٦٠.

ولنستمع إليه، وهو يناجي ربه قائلاً: «إلهي ألبستني الخطايا ثوب مذلتي، وجللني التباعد منك لباس مسكنتي، وأمات قلبي عظيمُ جنايتي فأحيه بتوبة منك.

يا أملي، وبغيتي، ويا سؤلي، ومنيتي، فوعزتك ما أجد لذنوبي غافراً، ولا أرى لكسري غيرك جابراً، وقد خضعت بالإنابة إليك، وعنوت بالاستكانة لديك، فإن طردتني من بابك فبمن ألوذ، وإن رددتني عن جنابك فبمن أعوذ»(١).

أما لو جارت عليه الظروف، وقست الأيام، فإن الدعاء يدفع بالإنسان أن يقصد باب رحمته ليكشف عنه الضر، ويطلب منه العون.

ومرة أخرى: نعود إلى رحاب الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) لنتلقى منه درساً جديداً في الطلب، والمسألة، ولنستمع إليه، وهو يتجه متضرعاً إلى الله يتوسل إليه قائلاً: «يا من إذا سأله عبده أعطاه، وإذا أمل ما عنده بلغه مناه، وإذا أقبل عليه قربه، وأدناه.

إلهي من الذي نزل بك ملتمساً قراك فما قريته، ومن الذي أناخ ببابك مرتجياً نداك فما أوليته؟ أيحسن أن أرجع عن بابك بالخيبة مصروفاً، ولست أعرف سواك مولىً بالإحسان موصوفاً؟ كيف أرجو غيرك والخير كله بيدك؟

وكيف أؤمّل سواك، والخلق والأمر لك؟ أأقطع رجائي منك، وقد أوليتني ما لم أسأله من فضلك، أم تفقرني إلى مثلي وأنا أعتصم بحبلك؟» (٢).

وعندما يراجع الداعي كشف حسابه فلم يجد ذنباً قد اقترفه في يومه أو ليلته، ولم يتعد على أحدٍ من الناس يتقدم إلى ربه يشكره على ذلك التوفيق.

وحري بنا أن نسمع مثل هذا الشكر يرتله الإمام زين العابدين (عليه السلام) في مناجاته الموسومة بمناجاة الشاكرين: «إلهي: تصاغر عند تعاظم آلائك شكري، وتضاءل في جنب كرمك إياي ثنائي، ونشري. - **إلى أن يقول** - فآلاؤك جمة ضعف

---

(١) من مناجاة التائبين المناجاة الأولى له(عليه السلام).

(٢) المناجاة الرابعة الموسومة بمناجاة الراجين.

لساني عن إحصائها، ونعماؤك كثيرة قصر فهمي فضلاً عن استقصائها، فكيف لي بتحصيل الشكر، وشكري إياك يفتقر إلى شكر فكلما قلت: لك الحمد وجب عليّ ذلك أن أقول لك الحمد»[١].

لقد أعطى الإمام (عليه السلام) من خلال هذا المقطع الأخير درساً قيّماً في كيفية شكر العبد لربه حيث وقف متحيراً كيف يشكر ويحصل هذه الغاية، فقال: فكيف لي بتحصيل الشكر؟ ولو تعدى البعض حدود الأدب فوجه إليه السؤال عن السبب في هذه الحيرة ولماذا؟ وشكره لربه طوع لسانه، وهو من عرف بمثل هذه المواقف ومن تلمذ في مدرسة جده أمير المؤمنين (عليه السلام) فهل يعسر عليه تقديم آيات الثناء والشكر لربه على نعمه؟

ونجيب هذا السائل بأن الإمام (عليه السلام) صوّر لنا مشكلة التسلسل في هذه الفقرة المذكورة، والفقرة الثانية، بدأها بقوله: (فكلما قلت لك الحمد الخ).

وتصوير هذه المشكلة هو أنه (عليه السلام) افترض أن شكره لله يحتاج إلى شكر آخر لتوفيقه على أداء الشكر، وهكذا ننقل البحث إلى الشكر الثاني، فإنه أيضاً يحتاج إلى شكر على التوفيق له.

وهكذا كل شكر يحتاج إلى آخر، وتمضي السلسلة صعوداً إلى ما لا نهاية، وهي مشكلة لا تنحل، وهكذا الحال في حمده لله تعالى أيضاً يحتاج إلى حمد، وكذلك صعوداً مع السلسلة.

لقد زخرت المكتبة الدعائية بأنواع الكتب، وهي تذكر لكل مشكلة دعاء، ولكل طلب دعاء، ولكل توبة نوعاً من الدعاء، ولكل يومٍ دعاء، بل، ولكل ساعة دعاء ولا نبالغ إذا قلنا: ولكل حركةٍ من حركات الإنسان دعاءً.

كل ذلك لِينشَدَّ الإنسان إلى ربه، ويوثق دعوى الإتصال معه. فبالمناجاة مع الله يبدأ الفرد منا يومه، وبها يختم ليلته.

---

(١) المناجاة السادسة من مناجاته.

وقد يقول البعض: ما هذه الطاقة التي تذكر للدعاء، وما هذا الحزام الذي يضربه الإنسان حوله، وهل الدعاء إلاّ عبارات معسولة، وترانيم روحية تؤمّن للداعي بقراءتها الراحة النفسية، وتهدّئ له الجوانب الروحية فهو ضروري لمن يعيش في دنياً من القلق والخوف والكبت، والحرمان ـ وفي الوقت نفسه ـ يزود الداعي بطاقات من الأمل يعيش الفرد في ظلالها مطمئناً هادئاً.

وجوابنا لهذا البعض أن نقول له:

أولاً: إنا نسلّم له بأن الدعاء ترانيم روحية تؤمّن للداعي هذه الجوانب التي ذكرها، ولكن تأمين هذه الجوانب هل هو من الأمور البسيطة ليستهان بها؟

إن العلاج النفسي ركن أثبت لنفسه مقعداً من بين المقاعد لبقية الفروع التي تبحثها كليات الطب في العالم وأصبحت عيادات الأطباء النفسانيين تحتل مكانها من بين عيادات الأطباء في كل بلد. فإذا كان الدعاء يهيء للإنسان الذي يعاني من المشاكل الراحة النفسية، ويهدئ الجوانب الروحية فإنا نبارك للدعاء هذه المقدرة لمعالجة الكثير من الأفراد الذين لا يتمكنون من الوصول إلى الأطباء النفسانيين، أو يعوزهم المال من التردد على عياداتهم.

وثانياً: لنواكب المسيرة الدعائية ولنقف بإزاء مجموعة من الداعين وهم: يتضرعون إلى الله، ويتوسلون إليه.

ولنستمع إلى طلباتهم، ومن ثم نضع النقاط على الحروف، ونحكّم هذا البعض ليصدر حكمه في الدعاء.

ورويداً لنخفف الخطى فنستمع إلى داعٍ يرفع يديه إلى ربه يطلب العفو عن جريمة قد اقترفها، ونواكب دعاءه فنفهم من مجموع ذلك أنه قد تعدى على عفاف فتاةٍ فجر بها، وأخيراً جاء، والدموع تنهمر من عينيه ويستغفر ربه من هذا العمل الذي بدأ ضميره يوبخه عليه، وهو يردد ما كان يدعو به الإمام زين العابدين (عليه السلام) وهو يستغفر ربه تائباً:

(إلهي: أنت الذي فتحت لعبادك باباً إلى عفوك وسميته التوبة، وجعلت على ذلك الباب دليلاً من وحيك لئلا يضلوا عنه، فقلت توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي، والذين أمنوا معه، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير. فما عذر من أغفل دخول ذلك المنزل بعد فتح الباب وإقامة الدليل... إلهي: إن كان قبح الذنب من عبدك فليحسن العفو من عندك.

إلهي ما أنا بأول من عصاك فتبت عليه، وتعرض لمعروفك فجدت عليه يا مجيب المضطر، يا كشف الضر)[١].

ولنتأمل هذا الداعي وهو على هذه الحالة.

فهل دفعه أحد لأن يقف بين يدي ربه يعترف بجرمه، ويستغفر ربه، ويتوب إليه؟

وهل نسمح لأنفسنا أن نرمي مثل هذا الإنسان وعلى مثل هذا الحال بالرياء، وهو يتضرع بمعزلٍ من الناس، وقد أرخى الليل سدوله.

أليس الدافع لهذا الداعي هو الندم على ما فعل، وقد هرع إلى ربه يطلب منه العفو؟

أليس من اللائق بمن يسمع منه هذه المناجاة أن يهمس بأذنه يبشره ويذكره بأن الله سبحانه يقول في كتابه العزيز: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾[٢].

ولنترك هذا الداعي، وهو مشغول بدعائه لننتقل إلى منظر آخر من مناظر هذه المسيرة الدُعائية لنرى داعياً آخر، وقد سرق شيئاً، وحل به الندم، فجاء قاصداً رحاب ربه ليكفر عن خطيئته بعد أن شعر بأن ما فعله جناية في حق الآخرين

---

(١) الصحيفة السجادية: من دعاء الإمام زين العابدين(عليه السلام) في وداع شهر رمضان.

(٢) سورة طه: الآية، ٨٢.

ولنستمع إليه، وهو يناغي ربه بهذا الدعاء الشجي قائلاً: «... يا ناصر المستضعفين، ويا مجير الخائفين، ويا مغيث المكروبين، ويا حصن اللاجين إن لم أعذ بعزتك فبمن أعوذ، وإن لم ألذ بقدرتك فبمن ألوذ، وقد ألجأتني الذنوب إلى التشبث بأذيال عفوك، وأخرجتني الخطايا إلى استفتاح أبواب صفحك... »(١).

إنه بهذا الندم يعاهد ربه على أن لا يعود لمثل هذه العملية الدنيئة.

وماذا تقول لهذا الداعي، وهو يظهر لربه ندمه، وتوبته.

هل تقول له: لماذا تمد جسورك مع الله تطلب منه العفو، والدعاء لا ينفعك إلاّ أنه يهدئ لك انفعالاتك النفسية.

أم تقول له: لماذا جئت تريد من الله أن يفتح معك صفحة جديدة تنقش فيها لك هوية جديدة تثبت أنك عدت إنساناً طيباً يأمن الناس، من غدرك.

أليس من المستحسن أن تربت على كتف هذا الداعي، وتقطع عليه خلوته لتقول له: رويداً أيها الداعي فإن داعي الله يقول لك:

﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾(٢).

وتمر المسيرة، وترى من بين أفرادها من توجه إلى ربه بعد أن قادته نفسه الأمّارة بالسوء أن يتجاوز على حياة الآخرين فيلطخ يديه بدمائهم يقتل هذا وذاك طمعاً بحطام الدنيا، أو لغرضٍ آخر من الأغراض الدنيوية.

ولكنه، وأخيراً أدركته الهداية، فعاد إلى رشده عارفاً بما جنته يداه حيث كان السبب في تدمير أسرة يقتل ربان سفينتها فجاء إلى ربه يقطر ندماً، وهو يستغيث قائلاً:

(اللهم يا ملاذ اللائذين، ويا معاذ العائذين، ويا منجي الهالكين، ويا راحم المساكين، ويا مجيب المضطرين، ويا مأوى المنقطعين إلى سعة عفوك مددت يدي،

---

(١) الصحيفة السجادية: مناجة المعتصمين.

(٢) سورة الأعراف: الآية، ١٥٣.

وبذيل كرمك أعلقت كفي فلا تولني الحرمان، ولا تبلني بالخيبة والخسران، يا سميع الدعاء يا أرحم الراحمين) [١].

وإذا كان هذا الداعي يطلب من ربه أن لا يبتليه بالخيبة، والحرمان فهل تتبرع له بأن تزف إليه بشائر الحرمان من عفو ربه، وربه هو الذي يقول في أكثر من آية من كتابه الكريم بأنه: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾ [٢].

وفي آية ثانية: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ ﴾ [٣].

من هم هؤلاء، ولماذا يتضرعون، وإلى من يتوجهون؟

لقد كانوا في وقت مجرمين، ولكن الإعتراف بالخطأ كما يقولون: فضيلة، لقد ساقهم الحظ التعس أن يلتحقوا بمسيرة الإجرام في هذه الحياة في وقت من الأوقات، ولكن هل نتركهم لحالهم إذا عادوا إلى الخط المستقيم نادمين معتذرين منكسرين يعاهدون ربهم على الخير، والصلاح والسير على النهج الذي يريده سبحانه لعباده؟.

بل على العكس، علينا ونحن نراهم بهذا الحال من خلوص النية وصدق الاتجاه أن نطمئنهم بأنهم وفدوا على رب كريم يدعو عباده إلى التوبة، واللجوء إليه، وسيتنكر عليهم إذا قنطوا من رحمته:

﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [٤].

وهنيئاً لهم في مخاطبة الله لهم بكلمة (يا عبادي) فإنها كلمة قيّمة تحدى الله بها إبليس عندما توعد بني آدم بعد طرده عن ساحة الله فقال:

---

(١) هذه الفقرات من المناجاة المروية عن الامام زين العابدين (عليه السلام).

(٢) سورة غافر: الآية، ٣.

(٣) سورة المائدة: الآية، ٣٩.

(٤) سورة الزمر: الآية، ٥٣.

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ (١).

فقال له الله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (٢).

ولماذا يئس العبد من رحمة الله وهو الذي قال في آية أخرى:

﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (٣).

وكيف ترجع هذه المسيرة بخيبة أملٍ، والسماء تزف إلى هذا الركب السابح في رحابه قول الله العظيم: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤).

ولا يقتصر الدعاء على الاستغفار وطلب الحوائج الدنيوية بل هناك من الداعين من يتوجه إلى ربه بالشكر على نعمائه وآلائه ويقر له بالقدرة المطلقة والحاكمية الكبرى في السماوات والأرض، وفي كل شيء وعلى كل شيء، مثل هذا الإنسان الواعي المتوجه إلى ربه ينظر إلى نعم الله عليه فلا يطيق صبراً دون أن يهرع إلى ساحات قدسه، وهو يردد مقاطع الدعاء ليؤدي بذلك بعض ما يفرضه عليه الواجب من أداء فروض الشكر والامتنان.

ومن جهة أخرى: ينظر إلى ما أقترفه من ذنب مع علمه بقدرة الله على العقاب في الدنيا قبل الآخرة ، وهو القادر والحاكم والمتسلط، ومع ذلك يحلم عن أعماله ويفضي عن تطاوله وتجاوزه.

على أن الدعاء يشتمل على الكثير من المطالب والحقائق العلمية فيما يتعلق بالسماء والأرض، وها هو العلم يكشف بين الآونة والأخرى من الحقائق العلمية ما نوه الدعاء بها قبل مئات السنين وسيكشف أيضاً عن خفاياً ترمز إليها بعض الفقرات الدعائية يمر عليها الداعي ويتصورها كلماتٍ تقتصر على التمجيد أو التعظيم.

---

(١) سورة الإسراء: الآية، ٦٢.

(٢) سورة الإسراء: الآية، ٦٥.

(٣) سورة الحجر: الآية، ٥٦.

(٤) سورة الحجر: الآية، ٤٩.

وفي الدعاء تنظيم للحياة الاجتماعية، وبيـان سـلوكية الإنـسان مـع الآخـرين، وكيف يتمكن الفرد من العيش مع الفرد الآخر من غـير فـرق بـين أن يكـون ذلـك الفرد مساوياً، أو أعلى، أو أدنى.

وطبيعي أن هذا التقسيم من المصطلحات التـي تفرضـها الحيـاة الاجتماعيـة في واقعها الخارجي وإلاّ فإن الإنسان لا يمتاز على الإنسان الآخر إلاّ بالمقدرات العلمية والكفاءات العلمية.

هذا على الصعيد الاجتماعي، وأما عند الله فإن الناس كأسـنان المـشط لا امتيـاز لأحد على الآخر إلاّ بالتقوى كما قال سبحانه:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

---

(١) سورة الحجرات: الآية، ١٣.

مع دعاء الصباح

جرت العادة لمن يشرح دعاءً أو يتعرض للحديث عنه ولو على سبيل النقل والبيان أن يذكر سند ذلك الدعاء ويتوخى من وراء ذلك اثبات روايته عن النبي (ﷺ) أو إلى أحد المعصومين أو إلى أحد الصلحاء أو الأولياء زيادة في التثبيت، والتأكد من مصدريته.

وقد سبق لنا أن بحثنا هذه النقطة في التأكد من السند في كتابنا «أضواء على دعاء كميل»، ولكن للإيضاح بشكل أوسع رأينا أن نتناول الموضوع مرة أخرى فنقول:

الدعاء هو الأداة التي يعبر بها الإنسان عما يحمله قلبه من خلجات يريد بثها نحو ربه ويتقرب بها إليه، وهو لغة التفاهم بين العبد وربه.

وبهذا المقدار من التعريف للدعاء قد لا يرى البعض أي وجه لتقييد الداعي أن يقرأ دعاءً خاصاً يبذل الجهد في سبيل تصحيح سنده وأيضاً إلى مصدر روحي كالنبي أو أحد الأئمة أو أحد الصلحاء.

فالداعي عندما يتوجه إلى ربه ينهمك في التضرع إليه بما يعبر به عن منطويات ومكنونات قلبه وبأي تعبير كان. ولربما تجد البعض يألف بعض الكلمات ويعرف معانيها فبها يريد أن يصل إلى رحاب الله، وفي هذه الصورة ليس من المستحسن أن تقيد مثل هذا الشخص بعبارات دعاءٍ خاص وارد قد لا يعرف معانيها ولا يتوصل إلى النغمات التي تحمله كل عبارة من ذلك الدعاء، ذلك لأنه ليس من الذين يألف المعاجم اللغوية، ويفهم تشقيقها.

علينا إذاً أن نترك المجال لمثل هذا الداعي ليتجه إلى ربه ويعبر عن مقاصده كيفما يشاء وبأي نحوٍ يراه يضمن وصوله إلى ساحته المقدسة.

وعلى العكس تقييد الداعي ببعض الأدعية التي تكون ثقيلة على فهمه، ولسانه قد تفقده روعة المناجاة والمناغاة وتسلب منه حالة الخشوع، والخضوع لأنه سيبقى منشداً إلى فهم العبارة قبل أن توخى منها أن تنقله إلى أجواء الله، وقربه، ولهذا البعض نقول:

ما تقوله صحيح ونقدر وجهة نظرك ولسنا ممن يتزمت ويتقيد بقراءة الدعاء والاقتصار عليه، وإن لم يفهم من مضامينه شيئاً، أو من بعض فقراته معناها، ولكن ومع هذا نتعبد بالبحث عن الدعاء إذا كان صحيح السند مروياً بطرق موثوق بها عن النبي أو أحد المعصومين، وإن كنا لم نقيد الداعي فيما يرغب أن يناجي به ربه.

أما سبب هذا التعبد فيعود لأسباب عديدة، نذكر منها:

أولاً: للتبرك بقراءة ما كان يدعو به هؤلاء الأعاظم ذلك لأن الحديث الذي يصدر من أحدهم له قيمته أو أهميته في النفس فكما يقدر ويجل أحدنا القرآن ويتبرك بقراءته لأنه كتاب الله وكلامه فكذلك نقدر كلام النبي ونتبرك به مع حفظ النسبة والفارق بينهما، وهكذا الحال في كلام الصلحاء والمعصومين (عليهم السلام).

وثانياً: لتحصيل الثواب الذي يذكر لقراءة ذلك الدعاء فلو وقفنا على دعاءٍ جاء في فوائد قراءته انه يعطى من يدعو به كذا مقدار من الثواب أو يغفر له، أو غير ذلك من الأجر بعد فرض صحة سنده أو حملاً له على الأخذ بما ورد عنهم (عليهم السلام): «من سمع شيئاً من الثواب على شيء فصنعه كان له، وإن لم يكن على ما بلغه»[1] فلأجل هذا الثواب وتحصيلاً له نتعبد بقراءته رجاء هذا الأجر.

وثالثاً: أن النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام)، وهكذا كثير من الصلحاء لهم المقدرة الكاملة على تأدية المعاني بأحسن بيان، ولهم اليد الطولى في ذلك، ولذلك نعتبر أدعيتهم وأحاديثهم قمة في البيان والوصف والمناجاة بحيث يكون لها التأثير في سرعة الانتقال إلى الأجواء الإلهية، ولهذا كان القرآن الكريم يأخذ بمجامع القلوب

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ١، ٦٠.

حتى من أولئك الملحدين، الذين كانوا يناصبون الدعوة الإسلامية ويقفون حجراً في طريق تقدمها، وكان البعض عندما يسمع آياته يقول: «إن عليه لحلاوة وطلاوة».

ورابعاً: عندما يقرأ الفرد منا دعاءً مروياً عن أحدهم (صلوات الله عليهم) ويرى ما يتضمنه ذلك الدعاء من الاعتراف بالذنب وطلب المغفرة وتصوير يوم القيامة والخوف من العقاب وأهوال ذلك اليوم مع ما يحيط بالدعاء من آثار الخشوع والخضوع يكون ذلك مدعاة لتأثر الداعي بالدعاء وزيادة الخضوع والخشوع من باب أن الداعي يتأمل، وهو يردد الدعاء بأن النبي (ﷺ) مع مقامه السامي ومنزلته العظيمة عند الله يتهول من الموقف أو من الموت أو من الحساب أو غير هذا وذاك فكيف بالداعي إذاً؟.

يقول النبي لجبرائيل، وقد نزل به الموت في مقدماته: «حبيبي عند الشدائد لا تخذلني».

عند الشدائد، يقولها النبي وقد غفر الله له. ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1].

محمد حبيب الله. محمد خاتم الأنبياء والمرسلين. محمد يعج المسلمون في اليوم والليلة بطلب الرحمة له عبر صلواتهم وخارج صلواتهم، وهو الذي يقول له الله:

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾[2].

ومع ذلك يريد من جبرائيل أن يكون بجانبه في هذه المرحلة الحرجة ويعبر عنها بمرحلة الشدائد.

وإذاً، فليحسب الداعي لنفسه الحساب إذا توجه إلى ربه يتضرع إليه طلباً منه أن يرزقه الراحة عند الموت والعفو عند الحساب، وما يجب عليه أن يقدمه ثمناً لمثل هذا الطلب.

وفي مشهد آخر من المشاهد المثيرة نقف بين يدي أمير المؤمنين علي بن أبي

---

(١) سورة الفتح: الآية، ٢.

(٢) سورة الضحى: الآية، ٤.

طالب(عليه السلام) نستمع إليه، وهو يناجي ربه قائلاً: (وقد أتيتك يا إلهي بعد تقصيري، وإسرافي على نفسي معتذراً نادماً منكسراً مستقيلاً مستغفراً منيباً مقراً مذعناً معترفاً لا أجد مفراً مما كان مني، ولا مفزعاً أتوجه إليه غير قبولك عذري وإدخالك إياي في سعة رحمتك) [١].

أمير المؤمنين ـ ولسنا بحاجة إلى تعريفه ـ يقف بين يدي ربه في غلسة من غلسات الليل، وهو يكرر هذا الاعتذار، ثم لا يجد مفراً مما كان منه. وأي شيء صدر منه ليحاسب نفسه عليه؟

هذه الصورة تمر على الداعي، وهو يقرأ هذه الفقرات فتثير في نفسه من الخضوع إلى ربه ما لا يحققه بيانه لو أراد أن يقرأ دعاءً رتبه بنفسه ليدعو به ربه.

ولا نود أن نترك رحاب أمير المؤمنين، وهو مستمر في مناجاته بل نبقى على مقربة منه ننصت إليه وهو يقول:

(فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك، فكيف أصبر على فراقك، وهبني يا إلهي صبرت على حر نارك، فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك، أم كيف اسكن في النار ورجائي عفوك، فبعزتك يا سيدي ومولاي أقسم صادقاً لأن تركتني ناطقاً لأضجن إليك بين أهلها ضجيج الآملين، ولأصرخن إليك صراخ المستصرخين) [٢].

أمير المؤمنين (عليه السلام)، يصور لنا نفسه أن الله قد أعرض عنه، وأدخله النار فلا يجد مفراً مما هو فيه غير أن يضج إليه صارخاً ومستعطفاً.

وهنا نترك المجال للداعي ليتصور نفسه على مثل هذه الحالة، ويجعل التضرع إلى الله سلّماً للوصول إلى عفوه ومغفرته.

وقبل أن نختم هذه الجولة، ننتقل من رحابٍ إلى رحاب مثله، تقودنا مسيرتنا

---

(١) فقرة من دعاء كميل بن زياد النخعي.

(٢) فقرة من دعاء كميل بن زياد النخعي.

إلى رحاب الإمام زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام) لنراه وقد اتجه إلى الله يناجيه بدعائه المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي، قائلاً:

(فمن يكون أسوء حالاً مني إن أنا نقلت على مثل حالي إلى قبرٍ لم أمهده لرقدتي ولم أفرشه بالعمل الصالح لضجعتي).

وتنهمر الدموع من عينيه يبكي من خشية ربه، وربما يتراءى له، وهو في هذا الحال شبح يسأله عن سبب بكائه، وهو زين العابدين فيجيبه:

(وما لي لا أبكي؟).

ويشرع في بيان سبب هذا البكاء فيقول:

(وما أدري إلام يكون مصيري، وأرى نفسي تخادعني، وأيامي تخاتلني، وقد خفقت عند راسي أجنحة الموت).

ومرة أخرى يعود ليقول:

(فمالي لا أبكي؟ أبكي لخروج نفسي، أبكي لظلمة قبري، أبكي لضيق لحدي، أبكي لسؤال منكرٍ ونكير أياي، أبكي لخروجي من قبري عريان ذليلاً حاملاً ثقلي على ظهري أنظر مرة عن يميني وأخرى عن شمالي إذ الخلائق في شأنٍ غير شأني).

يا سبحان الله من أي فمٍ تصدر هذه المناجاة؟

ومن أي عينٍ تنهمر هذه الدموع الغزيرة؟

ومن هذا الذي قد افترش التراب يرمق السماء بطرفه، وهو يتضرع إليه بهذه الدعوات؟.

أليس هو زين العابدين؟

ومن هو زين العابدين؟

إنه سليل الدوحة الهاشمية.

ابن الحسين، وعمه الحسن، وجده أمير المؤمنين، وهو ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله).

أليس هو من حلقت الأقلام في بيان صفاته الكريمة؟

أليس هو من شهدت الأسحار بعبادته، وأدعيته، ومناجاته؟

ومع كل هذه الهالة من العظمة والنسك تراه يتململ، ويتضجر عبر هذه الفقرات التي نقلناها عنه.

يقولها، وهو ينظر إلى قبره فيراه مظلماً خالياً وخاوياً لم يفرشه بعمل صالح يمهده لضجعته فيه.

يقولها، في مثل هذا الوقت من الليل والناس نيام يتمتعون بنومةٍ لذيذة تلفهم الفرش الوثيرة وتهدهدهم الأحلام المؤنسة.

وتنساب الدموع من عينين قد أذبلهما السهر.

ويستمر على هذا الحال يناجي ويبكي ويتضرع وتتراءى له نفسه، وقد نشر من قبره ولبى نداء ربه ليوم الحساب، وهل يحمل ثقله على ظهره ويقصد بهذا الثقل أعماله التي صدرت منه في الدنيا.

ذلك اليوم الذي يقول عنه الله في كتابه الكريم:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[1].

سيدي الإمام:

مولاي يا أبا محمد. أتسمح لي أن أجثو أمامك وأقبل ثراك الطاهر؟

ثم أقول: والكلمات تتقطع في فمي حياءً لتطاولي على مقامك الرفيع:

قبرك مظلم، وأنت سيد الساجدين؟

قبرك مظلم، وقد قيل في عبادتك:

عَبَدَ الله حتى أصفر لونه من السهر، ورمضت عيناه من البكاء، ودبرت جبهته وانخرم أنفه من السجود، وورمت ساقاه، وقدماه من القيام في الصلاة.

---

(١) سورة عبس: الآيات ٣٤ ـ ٣٧.

سيدي يا أبا الباقر:

وأنت تبكي لسؤال منكر ونكير إياك؟.

فعن أي شيء يسألانك؟.

عن ورعك، وخوفك من الله، وقد قال عنك طاووس اليماني، وقد رآك تطوف بالبيت من العشاء إلى السحر، وأنت تناجي ربك وتقول:

«إلهي غارت نجوم سماواتك، وهجعت عيون أنامك، وأبوابك مفتحات للسائلين جئتك لتغفر لي وترحمني». إلى آخر ما ناجيت به ربك في تلك الليلة.

وهل يسألانك عن تصديك لأمور المسلمين وقضائك لحوائجهم، وقد قال فيك الشاعر العربي الفرزدق قصيدته العصماء يبين فيها فضائلك ألقاها على جموع الناس، وكانوا قد ازدحموا على الحجر في بيت الله الحرام يتبركون بتقبيله. ودخلت في ذلك الوقت لتطوف بالبيت ولتقبل الحجر مع الحجيج فلما رأك الناس انفرجوا لك فوصلت إليه وقبلته وشرعت في الطواف والناس يوسعون لك في المطاف إجلالاً وهيبة.

وحاول بعض من حضر ممن له إمرة وسطوة أن يستلم الحجر فلم يتمكن من كثرة من تجمع حوله مما أضطره أن يقف على مقربة منه ينتظر الفرصة والفرجة ليقبله أو يستلمه.

وشق عليه أن يرى خضوع الناس، وانفراجهم لك فتجاهلك ، وسأل من هذا؟

فأجابه الفرزدق مرتجلاً يقول:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحِلّ والحرم

هذا ابن خير عباد الله كُلهِمِ ... هذا التقي النقي الطاهر العلم

ويستمر في إنشاد قصيدته والناس وجوم كأن على رؤوسهم الطير:

مـا قـال لاقـط إلاّ في تـشهده   لـولا التـشهد كانـت لاءهُ نَعَـمُ

ولم تقول: لا وكلك عطاءٌ وكرم.

ولمن تقول: لا، وقد نذرت نفسك لقضاء حوائج الناس.

وأخيراً، فعن أي ثقلٍ تحمله على ظهرك يسألك منكر ونكير؟.

عن الجراب الذي كنت تحمله وتضع فيه الدقيق والتمر والزبيب، وغير هذا وذاك من أطايب الطعام تطوف به على بيوت الفقراء والمساكين، والليل يخيم على البيوت، ويضرب بكابوسه الأسود على الأزقة والطرقات ، وهم ينتظرونك فإذا رأوك تباشروا وقال بعضهم لبعض:

جاء حامل الجراب، جاء حامل الجراب.

أم يسألانك عن الصرار التي كنت تضع فيها الدراهم والدنانير، وأنت تدسها في جيوبهم ليستعينوا بها على حياتهم وما تتطلبه من نفقات؟.

أم عن حزمات الحطب، وأنت تحملها على ظهرك لتلقي بها إلى المعوزين والمحتاجين؟.

وقد نقل عنك ولدك الإمام محمد الباقر (عليه السلام)، وغيره ممن حضر غسلك أنهم شاهدوا آثار هذا الجراب، وهذه الحزمات على ظهرك عندما جردوك من ثيابك ليغسلوك.

سيدي يا زين العابدين:

إذا كانت هذه وحشتك من قبرك المظلم.

وإذا كان هذا بكاؤك من سؤال منكرٍ ونكير.

فكيف بنا، ونحن بعيدون عن كل هذا... لم نفكر كيف نرقد في ذلك القبر المظلم الخاوي من كل عمل صالحٍ يستحق الذكر.

ولم نفكر بماذا سنجيب منكراً ونكيراً وهما يوجهان السؤال تلو الآخر عما جنته أيدينا:

اللهم ربنا حنانيك وأنت الغفور الرحيم.

اللهم ربنا حنانيك وأنت الجواد الكريم.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ [(١)]

يا من لا يُقال لغيرك يا أرحم الراحمين.

هذه الدروس القيّمة في الدعاء وفي الطريقة التي لابد أن يسلكها الداعي إذا أراد لروحه أن تسبح في رحاب الله، وتقدسه، وتعظمه هي التي تدعونا أن نقول بأفضلية الدعاء إذا كان مروياً عن النبي (ﷺ).

مرة أخرى مع دعاء الصباح:

رصانة التعبير مع رقة التصوير، وعذوبة الكلمات كلها دليل على صدور الدعاء عن نفس صالحة مؤمنة بربها.

وللأئمة (عليهم السلام) أسلوب خاص في الثناء على الله، والحمد لله والضراعة له والمسألة منه، يعرف ذلك من مارس أحاديثهم، وأنس بكلامهم، وخاض في بحار أدعيتهم، ومن حصلت له تلك الملكة، وذلك الأنس لا يشك في أن هذا الدعاء صادر منهم، وهو أشبه ما يكون بأدعية أمير المؤمنين (عليه السلام) مثل دعاء كميل وغيره، فإن لكل إمام لهجة خاصة وأسلوباً خاصاً على تقاربها وتشابهها جميعاً.

وهذا الدعاء في أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة والمتانة والقوة مع تمام الرغبة والخضوع، والاستعارات العجيبة.

انظر إلى أول فقرة منه «يا من دلع لسان الصباح بنطق تبلجه» وأعجب ببلاغتها وبديع استعارتها وإذا اتجهت إلى قوله:

«يا من دلّ على ذاته بذاته» تقطع بأنها كلماتهم (عليهم السلام).

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٨٦.

مثل قول زين العابدين (عليه السلام): (بك عرفتك وأنت دللتني عليك).

وبالجملة فما أجود ما قال بعض علمائنا الأعلام: (إننا كثيراً ما نصحح الأسانيد بالمتون فلا يضر بهذا الدعاء الجليل ضعف سنده مع قوة متنه فقد دل على ذاته بذاته)[1].

ومع هذا فإنا لا نكتفي بهذا الأسلوب من التقريب لهذا الدعاء وإثبات مصدريته، بل لابد من التحقيق عنه لإيصاله إلى مرفأ الوثوق، والاطمئنان بصدوره عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أو عن النبي (صلى الله عليه وآله) على اختلاف ما تقوله المصادر الدُعائية:

قال الشيخ في الذريعة إلى تصانيف الشيعة:

دعاء الصباح: المنسوب إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) على نحو الإرسال المسلّم روي كذلك في كتاب (اختبار المصباح) تأليف السيد علي بن حسين بن حسان بن حسين ابن باقي القرشي المؤلف في ٦٥٣ هـ أنه أورد فيه ما اختاره من الأدعية المذكورة في (مصباح المتهجد) للشيخ الطوسي وأضاف إليها أدعية أخرى وجدها في غير المصباح، ومنها (دعاء الصباح) هذا غير المذكور في المصباح بل قال السيد علي بن باقي ابتداءً (دعاء الصباح) لمولانا أمير المؤمنين (عليه السلام):

بسم الله الرحمن الرحيم، فأخبر بكونه دعاءه من غير أن يذكر مأخذه وسنده، ويُقال إنه ظفر بنسخة الدعاء التي كانت بخطه (عليه السلام) وكانت موجودة في تلك الأعصار كما أخبر السيد الشريف يحيى بن القاسم بن عمر العلوي العباسي المولود سنة ٦٨٠ هـ كما ترجمه وأرخه كذلك أحمد بن صالح بن أبي الرجال اليمني المتوفى ١٠٩٢ هـ في كتابه (مطلع البدور).

ولقد نقل المجلسي في الجزء الثاني من المجلد التاسع عشر من البحار صفحة ١٣٢ عين ما قاله الشريف المذكور في بعض كتبه، وهو هذا: ظفرت بسفينة طويلة مكتوب فيها بخط سيدي وجدي أمير المؤمنين، وقائد الغر المحجلين، ليث بني

---

(١) الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء: الفردوس الأعلى/ ٥١.

غالب علي بن أبي طالب عليه أفضل التحيات، ما هذه صورته:

(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا دعاء علمنيه رسول الله(ﷺ) وكان يدعو به في كل صباح وهو اللهم... الخ).

وكتب في آخره: (كتبه علي بن أبي طالب في آخر نهار الخميس حادي عشر شهر ذي الحجة سنة خمس وعشرين من الهجرة).

قال الشريف: نقلته من خطه المبارك وكان مكتوباً بالقلم الكوفي على الرق:

(في السابع والعشرين من ذي القعدة سنة أربع وثلاثين وسبعماية).

أقول: وبقي الشريف بعد كتابته لهذا الدعاء في التاريخ المذكور إلى أن حج في ٧٤٩ هـ كما حكي في (مطلع البدور) عن الصفدي في (الوافي بالوفيات)، وقد ظفر السيد الأمير إبراهيم بن الأمير معصوم القزويني بنسخة الخط الكوفي المنسوبة إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) في حدود ١١٣٠ هـ فاستنسخ عنها لنفسه ثم ظفر السيد قطب محمد الجد الأعلى لمجد الأشراف الذهبي على نسخة الأمير إبراهيم، وعلى نسخة طبقها في ١١٥٩ هـ وهي: أيضاً منقولة عن المنسوبة إلى الأمير (عليه السلام).

وطبع هذا الدعاء في أكثر كتب الأدعية كما ، وقد طبع مستقلاً مكرراً في طبعات عديدة وفي سفينة البحار نقل عن البحار كثيراً مما ذكرناه من الذريعة وأضاف:

(ووجدت منه نسخة قرأها المولى الفاضل مولانا درويش محمد جد، والدي من قبل أمه رحمه الله على العلاّمة مروّج الذهب نور الدين علي بن عبد العالي الكركي (قدس الله روحه) فأجازه وصورته:

والحمد لله: قرأ هذا الدعاء والذي قبله عمدة الفضلاء الأخيار الصلحاء الأبرار مولانا كمال الدين درويش محمد بلغة ذروة الأماني قراءة تصحيح. كتبه الفقير علي بن عبد العالي في سنة ٩٣٩ تسعمائة وتسع وثلاثون حامداً ومصلياً).

وهناك نسخة من دعاء الصباح بخط نور الدين الإخباري حفيد أخ الفيض فرغ من كتابتها في ١١١٩ هـ وذكر أنه كتبها عن خطٍ منقولٍ عن خط أمير

المؤمنين(عليه السلام) المختوم بالإمضاء والتاريخ المذكور (١).

هذا ما تيسر لي نقله من المصادر بالنسبة إلى النسخ المخطوطة والمطبوعة من هذا الدعاء على أنه في الفترات الأخيرة طبع بطبعات جديدة وأنيقة متفرداً وبشروح جديدة يعود تاريخها إلى ما بعد سنة ١٣٠٠ هـ.

الشروح لدعاء الصباح:

لقد شرح الكثير من العلماء هذا الدعاء وسلطوا عليه الأضواء وقد ذكر الشيخ في الذريعة قائلاً.

(ولهذا الدعاء شروح كثيرة تبلغ العشرين شرحاً، ومنها شرح العلاّمة المجلسي البالغ إلى ألف بيت بعيد إيراده متن الدعاء).

وقد تعرض الشيخ لذكر تلك الشروح في الجزء ١٣، ٢٥٢ ـ ٢٥٦ من الذريعة إلى تصانيف الشيعة.

وهناك شروح أخرى جاء ذكرها في بعض الكتب التي تعرضت لهذا الدعاء شرحاً وبياناً لمصدريته، وتجنباً للإطالة لم نتعرض لذكرها.

وختاماً، فمن مجموع ما نقلناه من هذه النسخ المخطوطة والمطبوعة ووجود هذه الشروح العديدة يحصل للقارئ وللداعي الاطمئنان والوثوق باعتبار هذا الدعاء وصدوره إما عن النبي(صلى الله عليه وآله)، وقد علمه لأمير المؤمنين (عليه السلام) كما ظهر من إحدى المخطوطات المذكورة، أو أنه دعاء من إملاء أمير المؤمنين (عليه السلام) نفسه، وكان يدعو به كل صباح وهو الأرجح لدى المتتبع.

---

(١) لاحظ لما ذكرنا من وجود النسخ المطبوعة والمخطوطة الشيخ آقا بزرك الطهراني: الذريعة إلى تصانيف الشيعة/ ٨، ١٩١ – ١٩٢. والشيخ عباس القمي: سفينة البحار/ مادة (صبح).

نص الدعاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُمَّ يا من دَلَعَ لسانَ الصَّباحِ بنُطقِ تبَلُّجِه وسَرَّحَ قِطَعَ اللَّيلِ المُظلِمِ بغَياهِبِ تَلَجلُجِه وأتقَن صُنعَ الفَلَكِ الدَّوارِ في مَقاديرِ تَبَرُّجِه وشَعشَعَ ضِياءَ الشَّمسِ بنُورِ تأجُّجِه يا مَنْ دَلَّ على ذاتِه بذاتِه وتَنَزَّهَ عن مُجانَسَةِ مَخلوقاتِه وجَلَّ عن مُلاءَمَةِ كَيفيّاتِه يا مَنْ قَرُبَ من خَطَراتِ الظُّنونِ وبَعُدَ عن لَحَظاتِ العُيونِ وعَلِمَ بما كانَ قبلَ أن يكون يا مَنْ أرقَدَني في مِهادِ أمنِه وأمانِه وأيقَظَني إلى ما مَنَحني به من مِنَنِه وإحسانِه وكَفَّ أكُفَّ السُّوءِ عَنّي بيَدِه وسُلطانِه صَلِّ اللَّهُمَّ على الدَّليلِ إليكَ في الليلِ الأَليَلِ والماسِكِ من أسبابِكَ بحَبلِ الشَّرَفِ الأطوَلِ والنّاصِعِ الحَسَبِ في ذِروةِ الكاهِلِ الأَعبَلِ والثابتِ القَدَمِ على زَحاليفِها في الزَّمَنِ الأوَّلِ وعلى آلِه الأخيارِ المصطفَينَ الأبرارِ وافتَحِ اللَّهُمَّ لنا مَصاريعَ الصَّباحِ بمَفاتيحِ الرحمةِ والفَلاحِ وألبِسني اللَّهُمَّ من أفضَلِ خِلَعِ الهِدايةِ والصَّلاحِ واغرِسِ اللَّهُمَّ بعَظَمَتِكَ في شِربِ جَناني يَنابيعَ الخُشوعِ وأجرِ اللَّهُمَّ لهَيبَتِكَ من آماقي زَفَراتِ الدُّموعِ وأدِّبِ اللَّهُمَّ نَزَقَ الخُرْقِ مِنّي بأزِمَّةِ القُنوعِ إلهي إنْ لَمْ تَبتَدِئني الرَّحمَةُ مِنكَ بحُسنِ التَّوفيقِ فمَنِ السّالِكُ بي إليكَ في واضِحِ الطَّريقِ وإنْ أسلَمَتني أناتُكَ لقائِدِ الأمَلِ والمُنى فمَنِ المُقيلُ عَثَراتي من كَبَواتِ الهوى وإنْ خَذَلَني نَصرُكَ عندَ مُحارَبَةِ النَّفسِ والشَّيطانِ فقَدْ وَكَلَني خِذلانُكَ إلى حَيثُ النَّصَبِ والحِرمانِ إلهي أتَراني ما أتَيتُكَ إلّا مِن حَيثُ الآمالِ أمْ عَلِقتُ بأطرافِ حِبالِكَ إلّا حينَ باعَدَتني ذُنوبي عن دارِ الوِصالِ فبِئسَ المَطِيَّةُ الَّتي امتَطَتْ نَفسي من هَواها فواهاً لَها لما سَوَّلَت لَها ظُنونُها ومُناها وتَبّاً لَها لجُرأتِها على سَيِّدِها ومَولاها إلهي قَرَعتُ بابَ رَحمَتِكَ بيَدِ رَجائي وهَرَبتُ إليكَ لاجِئاً من فَرطِ أهوائي وعَلَّقتُ بأطرافِ حِبالِكَ أنامِلَ وَلائي فاصفَحِ اللَّهُمَّ عَمّا كُنتُ أجرَمتُهُ من زَلَلي وخَطائي وأقِلني من صَرعَةِ رِدائي فإنَّكَ سَيِّدي ومَولايَ ومُعتَمَدي ورَجائي وأنتَ غايَةُ مَطلوبي ومُنايَ في مُنقَلَبي ومَثوايَ إلهي كَيفَ تَطرُدُ مِسكيناً التَجأ إليكَ مِنَ الذُّنوبِ هارِباً أمْ كَيفَ تُخَيِّبُ مُستَرشِداً قَصَدَ إلى جَنابِكَ ساعِياً أمْ كَيفَ تَرُدُّ ظَمآنَ وَرَدَ إلى حِياضِكَ شارِباً كَلّا وحِياضُكَ مُترَعَةٌ في ضَنْكِ المُحولِ وبابُكَ مَفتوحٌ للطَّلَبِ والوُغولِ وأنتَ غايَةُ المَسؤولِ ونِهايَةُ

المأمولِ إلهي هذه أزمةُ نفسي عقلتُها بعقالِ مَشيتِك وهذه أعباءُ ذُنوبي درأتُها بعفوكَ ورحمتِكَ وهذه أهوائي المُضلّة وكلتُها إلى جنابِ لُطفكَ ورأفتك فأجعلِ اللّهُمَ صَباحي هذا نازلاً على بيضاءِ الهدى وبالسّلامةِ في الدّينِ والدُّنيا ومسائي جُنةً من كيدِ العدى ووقايةً من مُرديات الهوى إنّكَ قادرٌ على ما تشاءُ تُؤتي المُلكَ مَن تشاءُ وتنزِعُ المُلكَ ممّن تشاءُ وتُعزُّ مَن تشاءُ وتُذلُّ مَن تشاءُ بيدِكَ الخيرُ إنّكَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ تُولجُ اللّيلَ في النّهارِ وتُولجُ النّهارَ في اللّيلِ وتُخرِجُ الحيَّ مِنَ الميِّتِ وتُخرِجُ الميِّتَ من الحيِّ وترزُقُ مَن تشاءُ بغيرِ حسابٍ لا إله إلاّ أنت سبحانَكَ اللّهُمَ وبحَمدِكَ مَن ذا يَعرِفُ قَدرَكَ فلا يخافُك ومَن ذا يَعلَمُ ما أنتَ فلا يهابُكَ ألّفتَ بقُدرَتِكَ الفِرَقَ وفَلَقتَ بلُطفِكَ الفَلَقَ وأنَرتَ بكرَمِكَ دياجي الغَسَقِ وأنهرتَ المياهَ مِنَ الصُّمِ الصَّياخيدِ عَذباً وأُجاجاً وأنزلتَ مِنَ المُعصِراتِ ماءً ثجاجاً وجعلتَ الشَّمْسَ والقَمرَ للبريةِ سِراجاً وهّاجاً مِن غيرِ أن تُمارِسَ فيما ابتدأتَ به لُغُوباً ولا علاجاً فيا مَنْ تَوحّدَ بالعزِّ والبَقاءِ وقهرَ عبادَهُ بالموتِ والفناءِ صَلِّ على محمدٍ وآله الأتقياءِ واسمع نِدائي واستجبْ دُعائي وحَقّق بفضْلِكَ أملي ورجائي يا خَيرَ من دُعِيَ لكشفِ الضُّرِ والمأمولِ لكُلِّ عُسرٍ ويسرٍ بِكَ أنزلتُ حاجتي فلا تَرُدّني من سَني مواهبِك خائباً يا كريمُ يا كريمُ يا كريمُ بِرحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ وصَلّى اللهُ على خيرِ خَلْقِه محمدٍ وآله أجمعينَ.

ثم تسجد وتقول:

إلهي قلبي محجوبٌ ونَفْسي معيوبٌ وعَقلي مغلوبٌ وهوائي غالبٌ وطاعتي قليلٌ ومعصيتي كثيرٌ ولساني مقرٌ بالذنوبِ فكيفَ حِيلتي يا ستّارَ العيوبِ ويا علاّمَ الغُيوبِ ويا كاشفَ الكُروبِ اغفر ذُنُوبي كُلَّها بحُرمةِ محمدٍ وآلِ محمدٍ يا غفّارُ يا غفّارُ يا غفّارُ بِرحمَتِك يا أرحمَ الراحِمينَ.

الشرح

المقطع الأول:

١ ـ اللهُمّ يا من دَلَعَ لسانَ الصَّباحِ بِنُطقِ تَبَلجُهِ.

٢ ـ وسرّحَ قِطَعَ اللّيْلِ المُظلِمِ بِغَياهِبِ تَلَجلُجِهِ.

٣ ـ واتقَن صُنْعَ الفَلَكِ الدَّوّارِ في مَقاديرِ تَبَرُّجِهِ.

٤ ـ وَشَعشَعَ ضِياءَ الشَّمْسِ بِنُورِ تَأَجُّجِهِ.

٥ ـ يا مَنْ دَلَّ على ذاتِهِ بِذاتِهِ.

٦ ـ وَتَنَزَّهَ عَنْ مُجانَسَةِ مَخْلوقاتِهِ.

٧ ـ وَجَلَّ عَنْ مُلاءمَةِ كَيفيّاتِهِ.

٨ ـ يا مَنْ قَرُبَ مِنْ خَطراتِ الظُّنونِ.

٩ ـ وبَعُدَ عَنْ لَحَظاتِ العُيونِ.

١٠ ـ وَعَلِمَ بما كانَ قبلَ أن يَكُون.

١١ ـ يا مَنْ أرقَدَني في مِهادِ أمنِهِ وأمانِهِ.

١٢ ـ وأيقَظَني إلى ما مَنَحني بهِ مِن مِنَنِه وَإحسانِهِ.

١٣ ـ وَكَفَّ أكُفَّ السُّوءِ عَنّي بيَدِهِ وَسُلطانِهِ.

مفاتيح اجابة الدعاء:

للدعاء آداب، ولاستجابته شروط تعرضت لها الأحاديث الشريفة التي تعنى بالدعاء، وبتوجيه المسيرة الدعائية لتنظيم الاتصال الوثيق بين الداعي وربه، ولضمان الاستجابة من قبل الله سبحانه.

وقد عقد ذوو النفوس الرفيعة أبواباً خاصة في الكتب التي ألفوها في الأدعية والأذكار تطرقوا فيها إلى ذكر الكثير من تلك الشروط من قبيل اختيار الوقت

المناسب للدعاء كأن يكون بعد الصلاة، أو في السحر، أو عند نزول المطر، وغير هذه من الأوقات التي يتجه الإنسان فيها إلى خالقه، بعيداً عن الصخب والضوضاء.

وهكذا الحال في اختيار المكان بأن يكون في الأماكن المقدسة، والمشاهد المشرّفة، كما، وإنّ لاستقبال القبلة حين الدعاء أهمية خاصة في التوجه إلى الله سبحانه ـ وفي الوقت نفسه ـ لتهيئة النفس الأثر التام في التوجه بها إلى خالقها ومن جملة الشروط أن لا يبدأ الداعي بتقديم طلباته، وحوائجه إلى الله عز وجل ابتداءً، بل يقضي أدب الدعاء أن يقدم من يريد الدعاء مقدمة لدعائه يمهد بتلك المقدمة الطريق لعرض ما يريده من ربه من حوائجه الدنيوية، والأخروية.

أما ما تشتمل عليه تلك المقدمة من الأسلوب البياني فذلك ما نجده ظاهراً في سيرة النبي(ﷺ) وأهل بيته (عليهم السلام)، والأجلاّء من الصحابة عندما يتوجهون بأدعيتهم إلى الله عز وجل حيث كانوا يستفتحون تلك الأدعية بأمور كانوا يواظبون عليها كما ويرشدون الأفراد إلى استفتاح الدعاء بها.

يقول سلمة بن الأكوع: (ما سمعت رسول الله(ﷺ) يستفتح الدعاء إلاّ يستفتحه بسبحان ربي الأعلى الوهاب) (١).

ولنستمع إلى الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام)، وهو يشرح لنا الطريقة في الدعاء وما تتضمنه المقدمات التي تسبق الدعاء يقول (صلوات الله عليه): (إن في كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) أن المسألة بعد المدحة فإذا دعوت فمجده، قال: كيف نمجده؟ قال تقول: يا من هو أقرب إليّ من حبل الوريد، ويا من يحول بين المرء وقلبه، ويا من هو بالمنظر الأعلى، يا من ليس كمثله شيء) (٢).

وبهذا المضمون جاءت أخبار كثيرة تنص على استفتاح الدعاء بالتمجيد لله.
وقد يستغرب الإنسان، وهو يستمع إلى هذه الأحاديث، وهي ترشد الداعي إلى

---

(١) المولى الكاشاني: المحجة البيضاء، ٢، ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٢) المحجة البيضاء، ٢، ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

استفتاح الدعاء بالتمجيد بالله، والثناء عليه **فلماذا هذا التكلف وتقديم هذا النوع** من المدح والله سبحانه يقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ (1)؟ ولم يقيد دعاءه بشيء، بل علق الإجابة على مجرد الدعاء فقط.

وللإجابة على ذلك نقول: إن هذا النوع من الأدب الرفيع مع الله سبحانه ليس فيه أي كلفة وتحميل على الداعي في مقام إرشاده إلى التوجه لخالقه، وهو يطلب منه حوائجه، أو يتضرع إليه ليغفر له ذنوبه، ويبدل سيئاته بحسناتٍ تذخر له ليوم الحساب... بل هذا النوع من التمجيد، والتحميد، والثناء عليه نابع من واقع الحياة التي يعيشها الأفراد فيما بينهم عندما يقصد الفرد منا غيره ليقضي له حاجته.

ـ وعلى سبيل المثال ـ فإن الإنسان لو قصد شخصاً لأمرٍ يريد منه مساعدته لانجاز أمرٍ من الأمور، فإنه يبدأ، وقبل أن يلتقي به برسم مخطط في ذهنه في كيفية الحديث معه على نحو يجلب عواطفه، ويسترد منه الشفقة عليه ليضمن قضاء حاجته.

لذلك نراه عندما يفتتح الحديث يكيل له من المدح والثناء والتمجيد ما يكفي لتحريك الجوانب النفسية وتهييج عواطفه، وقد يستدعي ذلك أن يمدحه بقصائد مطولة من الشعر، وقد تتضمن بعض القصائد من المدح ما يعلم الممدوح أنه خالٍ منه.

وإذا كان حسن الحديث والإطراء بالأوصاف الكريمة على الممدوح يقضي على طالب الحاجة أن يقدم لطلباته كل ذلك أمام حاجاته فحري بالعبد أن يسلك هذا الطريق، وهو يقف بين يدي جبار السماوات والأرض يريد منه إنجاز حوائجه الدنيوية، أو الأخروية، أو هما معاً.

وحينئذٍ وعليه فنحن عندما نقول بهذا التقديم لا نقول بلزومه، بل نقول إن أدب الدعاء يقضي بذلك لأن هذا النوع من البيان، والتمجيد يظهر الداعي، وهو بحالٍ من الخضوع ما ينم عن صفاء نفسه، وخلوصه في دعواته.

ويظهر هذا المعنى جلياً في الحديث الذي حدث به الإمام أبو عبد الله

---

(1) سورة غافر: الآية، ٦٠.

الصادق(عليه السلام) فقال: (إذا طلب أحدكم الحاجة فليثن على ربه، وليمدحه فإن الرجل إذا طلب الحاجة من السلطان هيأ له من الكلام أحسن ما يقدر عليه فإذا طلبتم الحاجة فمجدوا الله العزيز الجبار وأرجوه وأثنوا عليه).

ولم يقف الإمام أبو عبد الله عند هذا الحد، بل أخذ يعرض لمحدثه صورة تتضمن كيفية مدح الله والثناء عليه فقال:

تقول:

(يا أجود من أعطى، ويا خير من سئل، ويا أرحم من استرحم، يا أحد، يا صمد، يا من لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، يا من لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، يا من يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، يقضي ما أحب، يا من يحول بين المرء وقلبه، يا من هو بالمنظر الأعلى، يا من ليس كمثله شيء، يا سميع يا بصير).

وحيث فرغ الإمام (عليه السلام) من بيان أدب الدعاء في تقديم هذا النوع من التمجيد عقب حديثه ببيان كيفية تقديم الداعي طلباته فقال:

وقل:

(اللهم أوسع عليّ من رزقك الحلال ما أكف به وجهي، وأؤدي أمانتي، وأصل به رحمي، ويكون عوناً لي على الحج، والعمرة) [1].

توجيه دقيق، وتعليم لأسلوب الدعاء بعدم الاقتصار على طلب الأمور الدنيوية أو الأخروية، بل طلب لما يجمع بينهما، وهذا ما نجده في طلب الإمام (عليه السلام) عبر هذه الفقرات التي بدأ فيها أن يتفضل الله عليه بأن يوسع عليه في الرزق ولكن لماذا؟ ويأتي الجواب:

أولاً: ليحفظ به كرامته في هذه الحياة، فيكف به وجهه ويصونه من ذل السؤال والاستجداء من الغير.

وثانياً: ليؤدي به الأمانة التي كلف بالقيام بها من المحافظة على نفسه، ومن

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ ٢، ٤٨٥.

يعول به لأنه المسؤول عن إعالتهم، والإنفاق عليهم ، وهو أمانة في عنقه من الله سبحانه ولابد من أدائها على أحسن الوجوه.

وثالثاً: ليصل بالمال رحمه، ويرفع عنهم العوز لينال بذلك رضا الله وثوابه، لأن (صلة الرحم تزكي الأعمال وتنمي الأموال، وتيسر الحساب، وتدفع البلوى، وتزيد في الرزق)، كما جاء في الحديث عن الإمام الباقر (عليه السلام) (١).

ورابعاً: وعلى الصعيد الأخروي، فهو يطلب من الله التوسعة في الرزق ليتمكن من زيارة بيت الله الحرام في الحج أو العمرة ليحظى بشرف الطواف في تلك الرحاب الطاهرة، والمشاهد المشرفة، وبذلك يضمن لنفسه الثواب والأجر من الله سبحانه فعن النبي(صلى الله عليه وآله) ،«الحجة ثوابها الجنة والعمرة كفارة لكل ذنب» (٢).

ومن هذا المنطلق نرى الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) يفتتح مسيرته الدعائية في صباحه، ويستقبل يومه الجديد بالثناء أولاً على الله جلت عظمته، وتمجيده وتقديسه بذكر صفاته وبما يناسب مقامه الإلهي العظيم.

وقد خصص المقطع الأول من هذا الدعاء لهذه الغاية فكانت فقراته كلها اعترافاً منه بعظمة الله، وقدرته، ونعمه المتواصلة عليه.

وقد جاء هذا الاعتراف والثناء موزعاً على مراحل ثلاث:

تبدأ المرحلة الأولى: من هذه المراحل من الفقرة الأولى من قوله:

(اللهم يا من دلع) لتنتهي بالفقرة الرابعة في قوله: **(وشعشع ضياء الشمس)**،وفيها شرع الدعاء ببيان صفات الله الدالة على قدرته وعظمته تجليلاً له وإظهاراً لكامل قدرته.

أما المرحلة الثانية: فتبدأ من الفقرة الخامسة في قوله: **(يا من دل على ذاته)** لتنتهي بالفقرة العاشرة عند قوله: «وعلم بما كان قبل أن يكون»، وقد تضمنت بيان

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ باب البر بالوالدين.

(٢) المصدر المتقدم: باب فضل الحج والعمرة.

صفاته الدالة على توحيده واختصاصه بصفات لا يشاركه فيها غيره.

أما المرحلة الثالثة: فإنها تبدأ من الفقرة الحادية عشرة في قوله: **(يا من أرقدني في مهاد أمنه وأمانه)**، وتنتهي بالفقرة الثالثة عشرة في قوله: (وكف أكف السوء عني بيده وسلطانه).

وفيها نرى الدعاء شرع بالاعتراف بنعم الله على عبده بما يستوجب الشكر والتقدير، وهذه النعم على قسمين: منها ما فيه منفعة على العبد، ومنها ما دفع عنه المضرة والضرر.

ومن الإجمال إلى التفصيل:

١ـ (اللهُمّ يا من دَلَعَ لسانَ الصَّباحِ بِنُطقِ تَبَلُّجِهِ).

(اللهم)

يقول أهل اللغة: إن أصل هذه الكلمة (يا الله)، ولكن لكثرة دورانها على الألسن حذف منها حرف النداء (يا)، وعوض عنه بميم مشدّدة وضعت في آخر الكلمة فكانت حصيلة هذا التركيب الجديد هذه الكلمة (اللهم) وهناك وجوه أخرى نقلت لتفسير هذه الكلمة، من ناحية التركيب، وكلها تحوم حول بيان أن أصل الكلمة كان (يا الله) كما بينا [1].

أما بالنسبة لوجودها في مطلع هذا الدعاء فقد اختلفت النسخ في ذلك ففي البعض منها توجد هذه الكلمة ولكنها لم توجد في البعض الآخر.

ولربما كان وجودها أنسب لو لاحظنا السياق الدعائي... ذلك لأن أصل هذه الكلمة كما عرفت هو التركيب من حرف النداء (يا) واسم الجلالة (الله) الذي هو علم لذاته المقدسة، فهي حتى بعد هذا التركيب الجديد، وصيرورتها كلمة (اللهم) لا تزال تحافظ على الأصل من كونها نداء لله سبحانه.

وحينئذٍ فيدور الأمر بين:

---

(١) راجع لذلك الموسوعات اللغوية حيث تعرضت لهذا الموضوع بتوسع مادة (إله).

١ـ افتتاح الدعاء بالنداء باسمه الكريم فيقول الداعي: (اللهم)، وهو في الحقيقة ينادي قائلاً (يا الله)، ومن ثم يتدرج ببيان صفاته المقدسة.

٢ ـ أو الدخول إلى الدعاء ابتداءً ببيان صفاته، وتمجيده بها.

ولاشك أن النسق الدعائي يقضي بالأول من هاتين التشكيلتين لأن ذلك أدعى للعطف والرأفة من قبل الله على من توجه إليه بالدعاء.

على أن في الافتتاح للدعاء بكلمة تعبر عن اسمه الكريم (الله) محافظة على التلفظ بذلك، وقد صرحت الأخبار الواردة عن النبي(ﷺ) وأهل بيته الميامين(عليهم السلام) بأن كلمة (الله) هو الاسم الأعظم الذي حجبه سبحانه عن عباده، وقد قيل في عظمته إنه ما دعا به أحد إلاّ استجيب له في دعائه كما جاء ذلك في بعض الأدعية المأثورة من التوسل به بقوله: (وأسألك باسمك الأعظم الذي إذا دعيت به أجبت وإذا سئلت به أعطيت).

(دلع)

دلع لسانه دلوعاً خرج اللسان من الفم لتعب، أو ظمأ.

و (بلج) بلج الصبح بلوجاً أشرق، وأنار، والشمس أضاءت.

وكلمة (دلع) وإن استعملها اللغويون في خروج اللسان من الفم إلاّ أن قولهم في تفسيرها: «خرج اللسان لتعب أو ظمأ» يعطينا صورة خروج أغلب اللسان من الفم كما نشاهد ذلك عند كثير من الأشخاص، أو الحيوانات، أو الكلاب على الأخص عندما يصيبهم العطش والتعب فنرى أحدهم يمشي ولسانه متدلٍ من فمه[1].

يقول الحديث الشريف يصف هذه الصورة قائلاً: «إن امرأة رأت كلباً في يومٍ حارٍ قد أدلع لسانه من العطش»[2].

---

(١) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (دلع وبلج).

(٢) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث/ ٢، ١٣، تحقيق: طاهر أحمد الراوي، ومحمود محمد الطناحي، الناشر: مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر، قم ـ إيران.

ومن المعلوم أن الكلب في مثل هذه الحالة يرى، وقد خرج الكثير من لسانه متهدلاً متدلياً.

نفس هذا المنظر أطلقه الدعاء على النور الذي يخرج من الأفق بعد انتهاء الليل باتجاه قبة السماء ليمزق الظلمة مستطيلاً في ابتدائه ليشع رويداً رويداً، وإذا به يحول ظلام الليل الحالك إلى النور الذي يغمر الكون فيستقبل الإنسان يوماً جديداً.

إن الدعاء عندما يشبه لنا هذا النور المستطيل باللسان المتدلي إنما يريد أن يقرب لنا الحقائق مستعيناً بالصور المألوفة لنا التي نشاهدها، وهي تنبثق من واقعنا اليومي ليتمكن من خلال تلك الصور أن يوصلنا إلى الغاية التي يتوخى من خلال هذه الفقرات الدعائية أن ينقلنا إليها، وهي الاعتراف بعظمة الله وقدرته في هذا الكون العريض برحابه الواسعة.

لقد شبه الدعاء هذا النور المستطيل بلسان الإنسان وأطلق عليه: (لسان الصباح) ووجه الشبه بين اللسانين: إن لسان الإنسان هو آلة النطق عنده وبه يكشف عما تنطوي عليه نفسه من مكنونات لا مجال لإظهارها بغير اللسان.

كما يقول الشاعر:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وأما لسان الصباح، وهو النور المنبثق فهو آلة الإشراق، ومبدأ الإضاءة وبتعبير أوضح كلا اللسانين ناطق:

اللسان عند الإنسان بالكلام، والنور عند الصباح بالإشراق والتبلج.

فسبحان من جعل لسان الإنسان ناطقاً بالكلام، وسبحان من جعل لسان الصباح ناطقاً بالإشراق، وكلاهما آية من آياته الدالة على قدرته العظيمة وظاهرة يقف العقل متحيراً إزاءها.

٢ ـ (وسَرِّحَ قِطَعَ اللّيْلِ المُظْلِمِ بِغَياهِبِ تَلَجْلُجِهِ).

التسريح: هو الارسال فيقال: سرح الراعي الماشية أي أرسلها، وسرح الصبيان أي صرفهم، وأطلقهم، وسرح الزوجة: فكها من العلقة الزوجية بعد ارتباطها مع الزوج برباط الزواج.

أما قطع الليل، فهي آناته المكونة من الساعات، والدقائق، والثواني.

والغياهب: جمع غيهب. والغيهب الظلمة الشديدة الحالكة.

والتلجلج: هو التردد. يقال: تلجلج فلان في كلامه إذا تردد ولم يفصح عما يريد[1].

وهذا المنظر مألوف لنا عندما نشاهد الراعي، وأمامه قطيع الماشية يسيّره كيف يشاء، وفي أي اتجاه يريد، وهو مسيطر على ذلك.

ومن هذا المنظر المألوف نقلنا الدعاء إلى سيطرة خالق هذا الكون الكاملة على آنات الليل، وساعاته، وتسريحها في سيرها الزمني الرتيب بها في السماء من أجرام، ونجوم، وكواكب على حسب ما رسم لها من الخط والاتجاه بها لا يقبل التخلف بأي مقدار من المقادير، فهي مؤتمرة بأمره خاضعة لإرادته، ولو شاءت الصدف أن تقف هذه المسيرة الليلية ولو لدقائق معدودات ـ ولن يكون ذلك إلاّ بإرادته ـ أو للحظات يسيرة، أو يحدث أي خللٍ، ولو بشكل جزئي، فسيحدث من التدمير والخراب ما لا يمكن تصوره، ومن وراء ذلك الفناء الشامل.

هذه المسيرة الليلية من أول الغروب إلى طلوع الفجر، وسيرها على خطها المرسوم، وفي هذه المدارات كدليل على عظمته، وقدرته الكاملة على ما في هذا الكون من كل شيء. نبقى نحن، وهذا التأليف بين أجزاء هذه الفقرة من تسريح قطع الليل، وأن ذلك التسريح يكون بغياهب تلجلجه، فما هو الرابط بين هاتين الجملتين، وما معنى ذلك؟

---

(١) الشرتوني: أقرب الموارد مواد الكلمات التالية: شرح، غيهب، لجلج.

وللإجابة على ذلك نقول: عندما عرض الدعاء هذه الصفة من قدرته تعالى على تسريح قطع الليل، وإثبات أن ذلك خاضع لإرادته قد يقف الداعي متسائلاً: أن التسريح للشيء، وبطبيعته لابد أن يكون ظاهراً للعيان وله وجود خارجي كما يشاهد الفرد منا الراعي عندما يسرح قطيع الماشية، وينتقل بها من مكان إلى مكان آخر، كذا الحال في تدرج، وتسريح آنات النهار حيث تظهر تغيرات الجو من الصباح إلى الغروب تبعاً لقوة نور الشمس، وزيادة الإضاءة تبعاً لسيرها من مشرقها إلى المغرب، ووصولها إلى قبة السماء، وانحدارها إلى المغيب، فتبدأ خفيفة النور لتصل إلى الأوج عند الزوال، وهكذا تسير ليبدأ الضوء يميل إلى الصفرة عندما تقرب الشمس من الأفق عند المغيب، وهكذا تنزلاً إلى أن ينعدم بالعين المجردة فيميز هذه التحولات، وهذه الحالات فيقف خاضعاً لعظمة الله سبحانه وهو يسرح آنات النهار.. ولكنه لا يرى لتسريح آنات الليل هذا الوضوح، وهذه الآثار، وعلى الأخص في الليالي المظلمة التي لا يكون للقمر فيها بقاء، أو أي أثر عندما يكون في محاقه.

إن السماء تلبس في تلك الليالي ثوبها الحالك إلاّ من لمعان النجوم المتناثرة على صفحات السماء ترسل أنوارها من بعيد متألقة حتى مطلع الفجر.

وإذاً فأين تسريح قطع الليل ليشاهد الإنسان هذه القدرة تظهر من خلال هذه الآية الكونية كما يشاهدها في ضوء النهار؟

ورفعاً لهذا الالتباس، وتبديد هذه الحيرة، وسداً لهذه التساؤلات نرى الدعاء يوضح لنا السبب في خفاء ذلك ليلاً، ووضوح المشاهدة نهاراً، والسبب هو ظلمة الليل الحالكة الشديدة، والتي أطلق عليها لفظ (الغياهب) فإنها التي أوجبت هذا الابهام للصور فلم تتميز الحركات للتحولات الليلية كما هو الحال في المتلجلج الذي لا يفصح في كلامه فلا يفهم ما يريد، وماذا يقصد.

ويكون التقدير: وسرح قطع الليل الشديدة الظلمة بحيث كانت من الشدة أنها أبهمت الصورة الظاهرة لعملية التسريح، وكانت السبب في هذا الابهام الذي

أوجب خفاء التحركات لآنات الليل فلم يتمكن المشاهد تمييزها بوضوح كما هو ممكن في النهار وعلى ضوء الشمس المشرقة.

وفي افتتاح الدعاء بهاتين الفقرتين «يا من دلع لسان الصباح، وسرح قطع الليل» الدالتين على الظاهرتين الكونيتين وتقديمهما على غيرهما من صفات الله سبحانه في مقام تمجيده وتعظيمه ـ دلالة على عظمة الله وقدرته البالغة في نفسه أولاً وبيان ما لهاتين الظاهرتين من أهمية بالغة في هذه الحياة وعلى الأخص في حياة الإنسان وأنه لو لم يقسم الوقت على هذا النحو من تعاقب الليل والنهار لما كان للحياة أثر لجميع الفصائل الحيوانية بل لما يضمه هذا الكون من المخلوقات:

ليل يتعقبه نهار، ونهار يتعقبه ليل.

ومن هنا تتجلى القدرة المطلقة لله سبحانه وتظهر آياته الباهرة ونعمه على خلقه حيث نرى كيف هيأ لهم الجو على حسب ما تقتضيه طبيعة كل فصيلة من هذه الفصائل فنظم حياتهم بتقسيم الوقت بين الليل والنهار ليعيشوا في النهار ويهدأوا في الليل.

ولربما كان الأمر ينعكس بالنسبة لبعض الفصائل الحيوانية فهي تهدأ في النهار وتبحث عن قوتها في الليل تبعاً لطبيعة ذلك الحيوان وخصوصياته ومميزاته عن بقية الأنواع.

وليكن هذا أو ذاك فالليل والنهار ظاهرتان كونيتان وجودهما ضروري لإدامة الحياة على هذا الكوكب الذي نعيش عليه وهو الأرض.

ففي النهار يسعى الإنسان ويعمل ليؤمن له ولمن يعوله بما يسد له جوعه ويكسو به عريه وحيث كان هذا السعي متطلباً لبذل الجهد والنشاط كان النهار معاشاً تنير آفاق هذا الكون الشمس المشرقة ليشق الإنسان على ضوئها طريقه ويبصر بها موارد العمل إلى هدفه المنشود.

ولكن لابد لهذا الإنسان المتعب ولهذا البدن المنهك من الراحة والاستقرار، لذلك كان الليل سكناً له فلا عمل متواصل، ولا هدوء دائم لأن كلاً من هذين

يوجب شل الحركة وتحطيم الأعصاب، ومن ثم إلى الموت.

وإذاً فليل للهدوء، ونهار للعمل.

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١).

إن رحمة الله على مخلوقاته لا تنحصر في تقسيم الوقت إلى ليلٍ ونهار بل رحمته تتجلى في كل صغيرةٍ وكبيرة في هذا الوجود ومن رحمته هذه الدقة في التنظيم، وهذه الروعة في التقسيم حيث جعل الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبتغوا من فضله بالكسب والمعاش.

أما لو لم تكن هذه الحركة اللولبية، ولم يقدّر لليل أن تتسرح آناته، وساعاته أو كان النهار باقياً لا يعقبه ليل فكانت الدنيا: نهاراً على طول الخط. أو ليلاً مستمراً لا نهار بعده.

فحينئذٍ لابد أن يكتب الفناء لهذه الموجودات إذ على الفرض الأول انتفاء الاستقرار وزج الإنسان في هذه الحياة بالعمل الدائم فإن أعضاءه لا تبقى سالمة يتمكن بها من الاستمرار في العمل، وأما لو لم يخلق له نهار بل كانت حصته في هذه الدنيا الهدوء والاستقرار فإن النشاط أيضاً مطلوب للإنسان، ولابد له من الطاقة، ولابد لأنسجة البدن من هذه الازدواجية من الحركة والهدوء وإلاّ فمصيرها إلى التلف ومن وراء ذلك كله الموت.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ (٢).

إذاً فالمنعم هو الله، وهو الذي يأتينا بالضياء الذي هو النهار لنتمكن به من العمل وتنشيط البدن وتمرين هذه الأعضاء لئلا يصيبها الكسل فلا تكون صالحة للعمل والحركة لو لفها الليل بظلامه إلى نهاية العمر.

---

(١) سورة القصص: الآية، ٧٣.

(٢) سورة القصص: الآية، ٧١.

وبعد كل هذا فمن يهيء للإنسان غذاءه وكساءه وسكنه لو لم يكن نهار يعمل فيه:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (١).

وإذاً فلو لم يقدر لآنات النهار أن تتلاحق، ولم يفرض لليل أن ينشر ظلامه ليلبس الكون هذا الرداء الحالك فكيف يقدر لهذا البشر أو غيره من الحيوان أن يعيش ويهدأ؟

ولابد لنا أن نسلّم إلى الواقع الحياتي من أن البدن كما يحتاج إلى الهدوء فهو يحتاج إلى العمل وبذل الجهد.

ولنستمع إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) وهو يتحدث إلى تلميذه المفضل بن عمر في محاورة مطولة تحدث فيها عن وجود الله ووحدانيته وبيان أبعاد قدرته المطلقة في السماوات والأرض والتعرض لما فيها من الآيات الكونية، وما في كل ذلك من نعمٍ على العباد.

يقول (عليه السلام): «فكر يا مفضل في طلوع الشمس وغروبها لإقامة دولتي النهار والليل فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله فلم يكن الناس يسعون في معاشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم، ولم يكونوا يهنأون بالعيش مع فقدهم لذة النور وروحه بل تأمل المنفعة في غروبها فلولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع عظم حاجتهم إلى الهدوء والراحة لسكون أبدانهم وحجوم حواسهم وانبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعام وايصال الغذاء إلى الأعضاء ثم كان الحرص يستحملهم من مداومة العمل ومطاولته على ما يعظم نكايته في أبدانهم فإن كثيراً من الناس لولا جثوم هذا الليل بظلمته عليهم لم يكن لهم هدوء ولا قرار حرصاً على الكسب والجمع والادّخار ثم كانت الأرض تستمر بدوام الشمس بضيائها وتحمي

---

(١) سورة القصص: الآية، ٧٢.

كل ما عليها من حيوان ونبات، فقدرها الله بحكمته وتدبيره تطلع وقتاً وتغرب وقتاً بمنزلة سراج يرفع لأهل البيت تارة ليقضوا حوائجهم ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليهدأوا ويقروا فصار النور والظلمة مع تضادهما منقادين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم، وقوامه»(١).

٣ - (وَأَتْقَن صُنْعَ الفَلَكِ الدَّوّارِ في مَقادِيرِ تَبَرُّجِهِ).

أتقن الأمر: أحكمه، وضبطه.

وصنع الشيء: أخرجه من العدم إلى الوجود.

والتبرج: هو إظهار الزينة كما هو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾(٢).

أما الفلك: فيقول أهل اللغة إنه مدارات النجوم والمقصود به هنا الجنس، والألف، واللام فيه للاستغراق لأنه يشمل الأفلاك الجزئية، وذلك لأن لكل نجمٍ أو كوكب أو جرم من الأجرام السماوية فلكاً يدور به، وعلى خطه المرسوم له يسير في هذا الفضاء. أو بالأحرى كل جرمٍ تضمه قبة السماء التي تضرب بأجنحتها فتضم هذا الكون بما فيها من نجوم وكواكب، وشهب، ونيازك وغيرها من هذه الكرة السماوية الكبرى التي تدور حول نفسها عندما يتعرض الدعاء إليها لما فيها من الآيات الكونية الدالة على عظمة الله وقدرته في المرحلتين:

مرحلة الصنع، ومرحلة الإخراج من العدم إلى الوجود.

وهكذا في مرحلة الإتقان والضبط، وجعل كل شيء يسير على النهج الذي رسم له من دون تخلف، أو تغيير.

---

(١) المفضل بن عمر الجعفي: التوحيد/ ٧٩،تعليق: كاظم المظفر، مؤسسة الوفاء، بيروت ـ لبنان.

(٢) سورة الأحزاب: الآية، ٣٣.

السماء في مرحلة الصنع:

يقف الفرد منا ويتأمل هذا الكون برحابه الواسعة فتأخذه الحيرة ويطلق لنفسه عنان التفكير فيرى هذه الآيات الكونية في كل مكان في السماء وفي الأرض، وما فيهن، وما بينهن.

إنها آيات تصرخ وتشهد على وجوده، ووحدانتيه.

يتجه الإنسان ويصعد بنظره إلى الأعلى فيرى قبة السماء الزرقاء الجميلة تضرب بأطرافها لتضم الأرض التي نعيش عليها.

وقد ألف هذه الزرقة المحببة في النهار والظلمة في الليل.

ولكن عندما يرى السماء في الليل لا يراها مستقرة على شكل واحد ففي البعض من الليالي تلبس السماء ثوبها الحالك إلاّ من لمعان النجوم المتناثرة على صفحاتها تتلألأ أنوارها من بعيد متألقة حتى مطلع الفجر لتبدأ بالاختفاء تحت وطأة أشعة الشمس الباهرة وتعود مرة أخرى إلى صفحة السماء مع ليلٍ جديد.

أما في بقية ليالي الشهر فتبدو السماء، وقد ألقت عنها هذه الحلة السوداء فتبدو صافية يتهادى القمر فيها من مشرقه بأبهى حلة بيضاء يرسل أنواره لتشمل الشعاب، والسهول، والمرتفعات ويغمر البحار والأنهار ويسير بخطىً وئيدة نحو مغربه فيضفي إلى هدوء الليل جمالاً وروعة، ويجعل من الليل سكناً فيغط الناس في سبات عميق ليلقوا عن عواتقهم ما يجره النهار عليهم من أتعاب ومشاق تقتضيها طبيعة الحياة.

سماء واحدة أم سماوات؟

عندما نطالب العلماء والباحثين في مثل هذه الشؤون بالإجابة على السؤال التالي:

هل فوق سمائنا هذه سماء وعلى فرض الوجود فكم أعداد تلك السماوات؟

يقف الباحثون والحيرة تأخذ عليهم مسالك التفكير فلا نفي ولا إثبات، لا يقولون: نعم، لأن أقصى ما وصل إليه العلم هو غزو السماء التي تظللنا، ولا يقولون: لا. لأن العلم ليس له حد، وتقدير فما كشفه هذا اليوم كان مجهولاً بالأمس، وقد يأتي اليوم الذي يتوصل إليه ركب العلم ليكشف حقائق جديدة كانت مجهولة فيما سبق وهي مجهولة اليوم.

أما القرآن الكريم فقد كشف النقاب وأجاب عن هذا السؤال من قبل قرون عديدة فجاءت آياته، وقد تعرضت إلى هذا الموضوع فقسمت الحديث عنه إلى اربعة أقسام:

القسم الأول: وقد ذكر فيها لفظ السماء فقال تعالى:

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا ﴾ (١).

أما القسم الثاني: فقد عبرت الآية عن ذلك بلفظ السماوات فقالت:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (٢).

وأما القسم الثالث: فقد عبر عنه سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ﴾ (٣).

ويأتي القسم الرابع: معبراً بقوله جلت قدرته:

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ﴾ (٤).

أما الامام الباقر (عليه السلام) فقد حدث أبو حمزة الثمالي عنه قائلاً:

قال: وأنا عنده أنظر إلى السماء: «يا أبا حمزة هذه قبة أبينا آدم (عليه السلام) وأن الله

---

(١) سورة ق: الآية، ٦.

(٢) سورة الرعد: الآية، ٢.

(٣) سورة البقرة: الآية، ٢٩.

(٤) سورة الملك: الآية، ٥.

تعالى سوّاها تسعة وثلاثين قبة، فيها خلق ما عصوا الله طرفة عين»[1].

ولا يمكننا التعليق على هذا الحديث والبحث عن مكان هذه القباب التسعة والثلاثين، وهل أنها في طول هذه السماوات أم في عرضها وما تشتمل عليه. كل ذلك نوكله إلى العلم فهو الذي سيجيب عن ذلك بعد أن وقف لحد الآن، ولم يتعد سماءنا هذه، ولم يصل إلى ما يقوله القرآن الكريم من وجود سماوات سبع علماً بأن العلم قد توصل إلى حقائق كان يجهلها السلف من قبل، ولم يتوصلوا إلى معرفتها.

وأخيراً، لنبقَ نحن، وهذه السماء الدنيا التي عبر القرآن عنها بهذا التعبير والتي يشاهدها الفرد منا في كل لحظة ولنبحث ـ وعلى سبيل الاختصار ـ عن بعض ما فيها،وما يدور في مداراتها ولنتوقف عن الحديث عن بقية السماوات فلعل الله يمهد الطريق في المستقبل لمجاهر العلم أن تتجاوز هذه السماء فتصعد إلى سماء أخرى لتكشف عن آيات كونية جديدة تضاف إلى قائمة البراهين الساطعة الدالة على عظمة الخالق، وقدرته المطلقة.

سماؤنا هذه ننظر إليها في النهار فنراها زرقاء صافية لا تمل العين من النظر إلى لونها الشفاف الجميل، وفي الليل نراها وقد لبست ثوبها الأسود المطرز بحبات النجوم اللامعة تملأ صفحاتها الواسعة فتخفف من حدة ما يطوقها من سواد، وعندما يبحث الناظر بين أطرافها عن فرجة أو شيء أو ما يساعد على معرفة حقيقتها فلا يجد شيئاً.

وإذاً فما هي حقيقة السماء؟

حقيقة السماء:

لقد قال العلماء عن مادة السماء إنها غاز مكثف، ولكن ذلك ليس بالرأي الأخير لأن ذلك لا يتعدى كونه نظرية تقبل اليوم، ولربما تنقض في غدٍ عندما

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ ٨، ٢٣١، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران.

يكتشف العلماء شيئاً جديداً يوصلهم إلى حقيقة جديدة، ويكون حال ما نحن فيه حال بقية النظريات العلمية في قبولها دائماً إلى النقض، والتبديل.

وبصدد بيان حقيقة السماء يقول العالم الفلكي سيرجيمس جينز:

(الراجح أن مادة الكون بدأت غازاً منتشراً خلال الفضاء بانتظام)(١).

ويقول عالم آخر: «إن الكون في بدء نشأته كان مملوءاً بغاز موزع منتظماً إنه غاز يبلغ من الكثافة، ودرجة الحرارة حداً لا يمكن تصوره» (٢).

ومن خلال هذين الحديثين لهذين العالمين ظهر لنا أن القضية تعود إلى التخمين لا الوصول إلى الحقيقة من خلال تحليلٍ علمي دقيق.

وتعالى الله سبحانه حيث يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٣).

أما القرآن الكريم فإنه عندما يتحدث عن السماء يقول عنها:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ (٤).

ولم تتعرض آياته الكريمة لأكثر من هذا بالنسبة إلى حقيقة السماء، أما أن هذا الدخان ما هو فهل هو غاز، أم غبار، أو غيرهما من المواد؟

استفهام سيبقى مردداً. وسيبقى جوابه عند خالق السماء.

نعم: بالنسبة لما في السماء من الأجرام فقد ذكر القرآن الكريم في آيات عديدة أن فيها نجوماً، وكواكب.

وقد عرف العلماء النجم بأنه ـ اسم يطلق على الأجرام السماوية الحارة الملتهبة النيرة كالشمس مثلاً ـ.

---

(١) روح الدين الإسلامي/ ٥١، الطبعة ١٣.

(٢) المصدر المتقدم.

(٣) سورة الإسراء: الآية، ٨٥.

(٤) سورة فصلت: الآية، ١١.

أما الكوكب: فإنه يطلق على الجرم غير الملتهب، وغير النير كالأرض، وعطارد، والزهرة.

ويتحدث العلماء عن حقيقة هذه الأجرام وكيف تكونت فيقولون:

(إن الغاز الذي تتكون منه السماء حدثت فيه عمليات التحول النووي في مختلف العناصر وبتأثير الضغط الهائل لهذا الغاز الساخن المضغوط بدأ الكون ينبسط، ويتمدد، وأخذت كثافة المادة، ودرجة حرارتها تهبطان في بطء، وفي مرحلة منتظمة في شكلها ولا متساوية في أحجامها مكونة نجوماً مفردة)[1].

وقال العلم إن لكل نجمٍ أو كوكب، بل ولكل جرمٍ سماوي فلكاً، ومداراً يدور فيه، وإن لكل منها طاقته، وقدرته، وحدوده، وحجمه.

ولم يتمكن العلم ومن ورائه العلماء حتى الآن من ضبط ما في السماء من أنواع النجوم، والكواكب وأعدادها بل كل ما وصلوا إليه إنما هو بالتقدير والتخمين ـ وعلى سبيل المثال ـ فإن المعنيين بشؤون الفلك يقولون الشيء المهول عن المجرة في السماء.

(والمجرة) هي: ما يشاهده الإنسان في الليالي المظلمة في السماء من وجود خطٍ أبيض يشبه النهر العريض تزدحم فيه أجسام بيضاء متراصة، وقد أطلقوا على هذا النهر اسم (المجرة) وقالوا في تعليل هذه التسمية إنها تشبه النهر العريض فهي تشبه النهر الجاري.

وأما البعض الآخر فقد أطلق على هذا النهر المزدحم بالنجوم اسم (التبانة) وقالوا إنها تشبه سير من يجري، ويحمل تبناً والتبن يتساقط منه على الأرض على طول الخط الذي يسير عليه.

وليكن هذا أو ذاك فالاسم والتشبيه يقصد من ورائه بيان الكثرة الكاثرة من الأجرام الواقعة في هذا الخط، وقد قدر العلماء ما تحويه هذه المجرة من النجوم

---

(١) روح الدين الإسلامي/ ٥١.

فذهبت تخميناتهم إلى أنها تقارب (مائة مليون من النجوم).

ولم يكتفوا بذلك، بل أضافوا أن المجاهر العلمية الدقيقة أثبتت أن في السماء مجرات عديدة لا تتمكن العين المجردة من مشاهدتها حتى قيل: إن أعداد المجرات قد يصل إلى (مائة مليون).

ولا ندري فقد تطالعنا المختبرات العلمية في المستقبل بأضعاف هذه الأعداد، وبنوعيات جديدة من الأجرام، والخصوصيات التي تمتاز بها.

حجم بعض النجوم والكواكب وأثقالها:

عندما نتحدث عن آيات الله سبحانه في السماء فإنا لا نريد التوسع في البحث، وإعطاء صورة مفصلة عن أعداد الأجرام، وحجومها، وأثقالها لأن ذلك يخرجنا عن خصيصة البحث بالنسبة إلى المسيرة الدعائية فيما نحن فيه، أو لا أقل من الإطالة، وهذا ما لا نريد حصوله، بل نذكر بعض النماذج لهذه المواضيع، ونحيل القارئ الكريم على البحوث المفصلة فيما أعده الفلكيون في بيان ما في السماء من عجائب، وغرائب كلها تدل على عظمة صنع الله وإتقانه لصنعه كما سيتضح ذلك من ثنايا البحث.

يقول العلماء إن متوسط قطر الشمس هو (٨٦٤٠٠٠) بالأميال، وإن متوسط قطر المشتري هو (٨٨٦٤٠)، وأما زحل فإن متوسط قطره (٧٤١٠٠) ،وهكذا يذكرون لبعض النجوم أحجامها إلى أن يقولوا عن الأرض بأن متوسط قطرها هو: (٧٩٣٧).

أما بالنسبة إلى الثقل فقد ذكروا أن ثقل الأرض نحو من خمسة آلاف مليون مليون طن، وقالوا إن كتلة الشمس تكبر كتلة الأرض بحوالي «٣٣٢٠٠٠» مرة.

بُعد النجوم عن الأرض:

كان التقدير في البعد بالنسبة إلى الأجرام السماوية فيما بينها من جهة، وفيما بينها

وبين الأرض من جهة أخرى يقدر بالأميال والميل هو «١٦٠٩» أمتار.

ولذلك قالوا: إن بعد الشمس عن الأرض هو بمقدار «٩٣» مليون ميل، وحيث كانت التقديرات بين بقية النجوم، والأرض تزيد على هذا الرقم بكثير، لذلك فقد اقتضى الإيجاز اللغوي بأن يبحث عن شيء يقرب من هذا البعد يمكن اتخاذه وحدة قياسية لهذا الموضوع، وقد توصلوا إلى ذلك بأن جعلوا سرعة الضوء هي الوحدة المذكورة، وقد قدّر العلماء أن سرعة الضوء هي: «١٨٦٠٠٠» ميل في الثانية. ـ وفي الوقت نفسه ـ قالوا: إن أقرب نجمٍ إلينا يبعد عن الشمس فوق الأربع من السنوات الضوئية أي إن النور وبسرعته «١٨٦٠٠٠)» ميل في الثانية يقطع المسافة من الشمس إلى أقرب نجمٍ في نحو أربع سنوات إنه على مسافة تبلغ نحواً من «٣٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠» ميل.

ولكن لماذا هذا البعد لهذه الكواكب والنجوم عنا، ولماذا لم يقدر لهذا أن تكون قريبة منا لنشاهد ما فيها ولنتمتع بضوئها مما نتمتع به الآن؟

والجواب: نجده بين ثنايا المحاورة التي جرت بين الإمام الصادق (عليه السلام) والمفضل حيث أشرنا إلى بعض فقراتها فيما سبق:

يقول الإمام (عليه السلام): «أرأيت لو كانت الشمس، والقمر، والنجوم بالقرب منا حتى يتبين لنا سرعة سيرها بكنه ما هي عليه ألم تكن ستخطف الأبصار بوهجها، وشعاعها كالذي يحدث أحياناً من البروق إذا توالت، واضطرمت في الجو، وكذلك أيضاً لو أن أناساً كانوا في قبة مكللة بمصابيح تدور حولهم دوراناً حثيثاً لحارت أبصارهم حتى يخروا لوجوههم فانظر كيف قدر أن يكون مسيرها، في البعد البعيد لكيلا تضر في الأبصار وتنكأ فيها وبأسرع السرعة لكيلا تتخلف عن مقدار الحاجة في مسيرها وجعل فيها جزءاً يسير من الضوء ليسد مسد الأضواء إذا لم يكن قمر ويمكن فيه الحركة إذا حدثت ضرورة كما قد يحدث الحادث على المرء فيحتاج إلى التجافي في جوف الليل، وإن لم يكن شيء من الضوء يتهدى به لم يستطع أن يبرح مكانه فتأمل اللطف والحكمة في هذا التقدير حين جعل للظلمة دولة ومدة للحاجة

إليها، وجُعل خلالها شيء من الضوء للمآرب التي وصفنا»[١].

السماء في مرحلة الإتقان:

لقد صنع الله سبحانه السماء، وما فيها، وأخرج ما قدّره على مقتضى الحكمة إلى مرحلة الوجود، ولكن ذلك وحده لا يكفي لإثبات عظمته، وقدرته غير المحدودة بل إنّ مرحلة الحدوث هذه تستدعي الإبداع في مرحلة البقاء، والاستمرار إلى اليوم الذي حددت فيه نهاية هذا العالم بما فيه أرضه، وسمائه وما فيهما وبينهما.

وهذه المرحلة تقتضي من الموحد القدير إتقان ما صنعه وأوجده، وإبقائه محفوظاً إلى نهايته... وهذا ما يقصده الدعاء في وصفه (عليه السلام) لخالق هذا الكون بأنه صنع العالم، وأتقنه لأنه صنعه من غير إتقان لأن ذلك نقصٌ في المبدع والنقص يستدعي إثبات العجز له، وحاشا الله أن يكون عاجزاً عن كل شيء، بل هو قادر وقدرته منبثقة من ذاته المقدسة لا بقدرة قادر آخر.

وقد لا نحتاج إلى دليل لإثبات إتقان صنعه لو تجرد الإنسان وأعمل تفكيره لينظر إلى هذه السماء التي ضربت بأجنحتها ليرى كل شيء فيها بما أثبته العلم من وجود النجوم، وكواكب، ومجرات، وغيرها يسير بنظام دقيق، وسير متكامل بشكل لا يقبل أي غلط، ولا نقص، ولا تخلف، وعلى مرور السنين من أول الخليقة إلى الآن، وإلى ما بعد، وهكذا إلى نهاية العالم.

ولكن لو أردنا أن نتوسع في بيان دقة هذا الإتقان نقول:

إن الإتقان في صنع الله سبحانه سماءه تتجلى في ميزات ثلاث جعلت حركة الفلك متقنة بشكل يفوق بقية الحركات وهي:

١ ـ إن حركته أتم الحركات.
٢ ـ إن حركته أقدم الحركات.
٣ ـ إن حركته أدوم الحركات.

---

(١) المفضل بن عمر: المصدر المتقدم.

ومع هذه الميزات الثلاث بنحو من التوضيح، والتفصيل.

حركة الفلك أتم الحركات:

ويراد بهذه التمامية ما كشفته المراصد الفلكية الدقيقة من تتبع سير هذه النجوم، والكواكب، وأنها تسير في خطٍ لا يقبل السرعة ولا البُطء ولا الزيادة، ولا النقصان، ولا تقبل أي غلطٍ في البين ـ وعلى سبيل المثال ـ فإن الشمس، وهي كوكب واحد من بين ملايين الكواكب التي تزخر بها السماء كتلتها أكبر من كتلة الأرض نحواً من «٣٣٢٠٠٠» مرة.

وعليه فلو علمنا بأن كتلة الأرض تبلغ حوالي (خمسة آلاف مليون مليون مليون طن) فليقدر الإنسان حينئذٍ ما تبلغه كتلة الشمس من الأطنان.

ولا لوم على أحدٍ لو أخذت الحيرة عليه مسالك التفكير عندما يقف أمام نتيجة ما تستخرجه هذه العملية الحسابية من الأرقام.

ومع كل هذه الأرقام المهولة فإنا نرى هذه الكتلة الضخمة ـ ونحن عندما نعبر عن الكتلة (بالضخمة) فذلك لأنا لا نملك عبارة توازي هذه الكلمة لنصف بها كتلة الشمس ـ تأخذ مجراها كل يوم لتخطو بخطىً مرسومة لها مضبوطة من مشرقها إلى مغربها، وبالعكس من المغرب إلى المشرق بحركة دائرية، وحينئذٍ لنا أن نتساءل، عن حقيقة هذه القوة الجبارة التي تسير، وتدفع بهذا الجرم الضخم ليسير على هذا النحو من الرتابة لا يتعدى مداره طوال هذه القرون السالفة، وما سيأتي من السنين إلى اليوم الذي قدر الله لهذا العالم نهايته.

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (١).

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾.

وفي التعبير بقوله (ينبغي) تجسيد لعدم التخلف لهذه المسيرة للشمس، ولبقية ما

---

(١) سورة يس: الآية، ٤٠.

تحويه السماء من أجرام لأن كلاً منها له إطاره الخاص، ومداره الذي يدور فيه ولا مجال لاحتكاك بعضها بالبعض الآخر لأن حصول مثل ذلك معناه تغيير خريطة السماء في حصول الليل، والنهار، والفصول، وبقية ما تقرره الطبيعة نتيجة الاعتدال والتعاقب في سير هذه الكواكب.

﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾.

وكيف يحصل السبق، وهل القضية متروكة لاختيار كل جرمٍ في هذه السماء لتعمل رغباتها في الركض، والمسابقة ليصدق أن الليل يسبق النهار، أو أن النهار كان له حظ في التقدم على الليل؟.

لا ليس الأمر كذلك فلا سبق ولا تأخر بل: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [1].

وعندما يصل المفسرون إلى كلمة ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يقولون: أي يسيرون بانبساط، وكل ما انبسط في شيء فقد سبح فيه، ومنه السباحة في الماء.

وعن ابن عباس (يسبحون) أي يجري كل واحدٍ منها في فلكه كما يدور المغزل في فلكه [2].

وتعالى الله سبحانه حيث يقول:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [3].

واللعب، كما يقوله أهل اللغة: ضد الجد. ولعب الرجل: مزح، أو فعل فعلاً بقصد اللذة أو التنزه أو غير قاصدٍ به مقصداً صحيحاً.

وقال بعض أهل اللغة: اللعب هو فعل الصبيان يعقب التعب من غير فائدةٍ.

---

(١) سورة يس: الآية، ٤٠.

(٢) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية.

(٣) سورة الأنبياء: الآية، ١٦ – ١٧.

وجميع هذه الصفات محال أن تسند إليه لأنها خالية من المصلحة، والحكمة، بل هي غايات تعود إلى نفس الفاعل بما يشعر نقصه، واحتياجه إليها. وحاشاه من الاتصاف بهذه الصفات، بل كان ما يفعله تابع لمصلحة في الخلق، الايجاد، وحكمة في التقدير تعود بالنفع إلى المخلوقين.

﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (١).

واللهو: هو ترويح النفس بما لا تقتضيه المصلحة، والحكمة. وكلمة (لو) إمتناعية أي لا يكون ذلك، ولكن على سبيل الجدل، والفرض، وضرب المثل: لو أراد الله ـ وحاشاه أن يريد مثل ذلك ـ فلماذا يتخذه بما يكون أمره راجعاً إلى هؤلاء المخلوقين في اللعب بأمور السماء والأرض، وما بينهما بما يعود ضرره إلى هؤلاء، بل كان هذا الأمر ميسوراً له فيتخذه لنفسه يلهو، ويلعب لغاية في نفسه، ولكن حاشاه أن يفعل كل ذلك لأنه الكامل، والبصير، والحكيم، ولا يصدر منه ما ينافي الحكمة، والتقدير الصائب.

حركة الفلك أقدم الحركات:

وذلك لأن من هذه الحركات يتولد الليل، والنهار، وبتولدهما يتولد الزمان ولولا هذه الحركة لما كان للزمان أثر ولا يسبق هذه الحركة إلاّ وجوده سبحانه، ولذلك كانت حركة الفلك أقدم الحركات.

ولو قدر أن يقال بوجود حركة قبل هذه الحركة فإنها خارجة عن نطاق بحثنا في هذا الكون، ومن هذا التنظيم الذي نشاهده في السماء من أجرام، ومدارات تسير فيها، وقد شاهده الإنسان الأول عندما فتح عينيه على هذه الحياة.

حركة الفلك أدوم الحركات

أما أنها أدوم فلأنها ستبقى إلى أن تقوم الساعة، وستبقى تربط الحوادث المتأخرة

---

(١) سورة الأنبياء: الآية، ١٧.

بالحوادث المتقدمة، وهكذا دواليك أجرام، ونجوم، وكواكب بما فيها الشمس، والقمر تسير في حركة مستمرة، وتدور من مبدئها إلى خطها الأخير، ومن ثم تعود تدور لتصل إلى النقطة التي أنطلقت منها غير مستقرةٍ في نقطة معينة لحكمة في هذا الدوران تقتضيها المصالح الكونية، وتكشفها المجاهر العلمية الدقيقة ولا يعلم مبدأ ذلك، ولا منتهاه إلاّ الله، وليبقى العقل مهما أوتي من قوة عاجزاً عن الوصول إلى المدارج التي لا ينبغي وصوله إليها اعترافاً بعجز الإنسان وضعفه فللّه القدرة الكاملة المطلقة.

وإذا ما تعدينا هذه الحركات الثلاثة التي بيّنا بواسطتها أن حركة الفلك متقنة أتقاناً لا يقبل أي غلطٍ، ونقصٍ وتفاوت نرى القرآن الكريم يتحدى الإنسان من جهةٍ أخرى، وعبر منظر السماء بطولها، وعرضها، وبما تشتمل عليه من أعداد ضخمة لنجوم وكواكب يعجز العدد عن وضع حدٍ لترقيمها، وتتحير الأوزان عن تقدير نسبٍ لأحجامها وأثقالها. هذه السماء يراها كل إنسان تقف بشموخ مرفوعة بغير عمدٍ، ولا ارتكاز على أي قاعدة فهل بالإمكان أن يصدق الإنسان مثل ذلك؟.

وتتبدد الحيرة عندما نستمع إلى الآيات الكريمة، وهي تقول:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ﴾ [(١)]. ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ﴾ [(٢)].

خلق السماء: أي قدّر أن تكون السماء على هذا النحو من الشموخ، والعظمة فلا ترتكز على أي قاعدةٍ تمسكها.

وعلى هذا النحو من التقدير أخرجها إلى عالم الوجود، وقد عبرت الآية الأولى عن التقدير (بالخلق)، وقالت الآية الثانية عن الإخراج: (بالرفع).

وهذا ما هو مشاهد لكل أحدٍ من البشر سماء مترامية الأطراف تقف بلا عمدٍ ولو فرضنا جدلاً أن السماوات السبع تكون كل واحدةٍ منها قاعدة للسماء التي

---

(١) سورة لقمان: الآية، ١٠.

(٢) سورة الرعد: الآية، ٢.

فوقها، ولكن ما نقول في هذه السماء الدنيا وكل ما يفتش الإنسان، ويبحث متعمقاً في أطرافها لا يجد لأي ركيزة فيها أي أثر؟.

فمن يمسك هذه السماء؟

سؤال تجيب عنه الآية الكريمة في قوله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ (١).

هذا بالنسبة إلى اتقان الفلك في صنعه ونبقى نحن والتعبير ووصف الفلك بأنه:

الدوار:

الفلك بما فيه يدور، وهي في حركة دائمة، ولكل جرم حركته الخاصة ونسبته في السرعة والبطء ويترقى البعض من العلماء فيقول: بأن البحوث العلمية تثبت أن كل شيء له دورانه الخاص به، وأن الكائنات كلها تتحرك.

ويشرح الإمام أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) الأسباب في هذه الحركة، وعدم الجمود يقول (عليه السلام) يخاطب المفضل في محاورته.

(ثم فكر بعد هذا في ارتفاع الشمس، وانحطاطها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة، وما في ذلك من التدبير، والمصلحة ففي الشتاء تعود الحرارة في الشجر والنبات، فيتولد فيهما مواد الثمار، ويستكشف الهواء فينشأ منه السحاب، والمطر وتشد أبدان الحيوان وتقوى، وفي الربيع تتحرك وتظهر المواد المتولدة في الشتاء فيطلع النبات وتنور الأشجار ويهيج الحيوان للسفاد.

وفي الصيف يحتدم الهواء، فتنضج الثمار، وتتحلل فضول الأبدان ويجف وجه الأرض فتهيأ للبناء والأعمال، وفي الخريف يصفو الهواء، وترتفع الأمراض، وتصح الأبدان ويمتد الليل فيمكن فيه بعض الأعمال لطوله، ويطيب فيه الهواء إلى مصالح أخرى لو تقصيت إلى ذكرها لطال فيها الكلام.

---

(١) سورة فاطر: الآية، ٤١.

فكر الآن في تنقل الشمس في البروج الاثني عشر لإقامة دور السنة، وما في ذلك من التدبير فهو الدور الذي تصح به الأزمنة الأربعة من السنة الشتاء والربيع، والصيف، والخريف ـ إلى أن يقول (عليه السلام) ـ أنظر إلى شروقها على العالم كيف دبر أن يكون فإنها لو كانت تبزغ في موضع من السماء فتقف لا تعدوه لما وصل شعاعها، ومنفعتها إلى كثير من الجهات لأن الجبال، والجدران كانت تحجبها عنها، فجعلت تطلع في أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من وجه المغرب، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار فلا يبقى موضع من المواضع إلاّ أخذ بقسطه من المنفعة منها، ولو تخلفت مقدار عامٍ، أو بعض عام كيف كان يكون حالهم بل كيف يكون لهم مع ذلك بقاء؟)[1].

والآن علمنا إتقان الفلك وبيان معنى كونه (دواراً) أما كون ذلك في مقادير تبرجه فذلك هو:

أن التبرج إظهار الزينة ومنه قوله تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾[2]. أي لا تتزين التزين الذي كانت النساء تصنعه قبل الإسلام.

أما هذه الفقرة من الدعاء فقد أريد بها إظهار نوعٍ آخر من أنواع العظمة لله سبحانه. فمضافاً إلى إتقان صنع الفلك، وما تشتمل عليه السماء تأتي روعة الجمال، والزينة لهذه السماء حيث لم يتركها، وقد لفها الظلام الدامس لتبدو موحشة كئيبة، بل بدد هذه الظلمة بأنوار النجوم اللامعة ترسل هذه الذبذبات النورية فتبدو للناظر، وكأنها قناديل معلقة في السماء.

---

(١) المفضل بن عمر: المصدر المتقدم.

(٢) سورة الأحزاب: الآية، ٣٣.

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾[١].

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾[٢].

أما القمر: فله من جماله، وهو يتهادى في مشيته ما دوخ به الشعراء فكانت له الحصة الوافرة من أشعارهم.

وأمام هذه الطاقات الجبارة نستمع إلى صوت القرآن الكريم، وهو يتحدى الأجيال قائلاً: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾[٣].

وهذا من ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[٤].

وهذه عظمة الله، وهذه قدرة الله سبحانه تتجلى في كل شيء وفي كل صغيرة وكبيرة من هذا الكون في سماواته، وأرضيته، وما فيهن، وما بينهن.

٤ ـ (وَشَعشَعَ ضِياءَ الشَّمْسِ بِنُورِ تأجُّجِهِ).

الشعشاع: الطويل (وشعشع الضياء: أطاله، ومده، ومد الضياء يراد به الخطوط الشعاعية).

والتأجج: التلهب.

والمعنى الذي يتبادر إلى الذهن من هذه الفقرة هو تمجيد الله بهذه الصفة حيث أنعم على عباده بأن مدَّ ضياء الشمس، وأطاله، ووسع رقعة الضوء بالنور الملتهب المتأجج ليشمل الأرض بما تشتمل عليه من سهولٍ وجبالٍ وبحار، وأنهار.

وقد جاء هذا المعنى في القرآن الكريم حيث صرحت بعض آياته الكريمة بأن الله سبحانه أنعم على العباد بأن جعل لهم الشمس لتضيء لهم فقال تعالى:

---

(١) سورة الملك: الآية، ٥.

(٢) سورة الحجر: الآية، ١٦.

(٣) سورة لقمان: الآية، ١١.

(٤) سورة النمل: الآية، ٨٨.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ (١). وفي آية أخرى قال سبحانه:

﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ (٢).

ولابد لنا ونحن نصل إلى هذه الفقرة من مسيرتنا الدعائية أن نرى ما هي الخصوصيات التي دعت إلى تقديم ذكر الشمس في تمجيد الله تعالى على بقية الصفات، والإتيان بها بعد ذكر تمجيده بأنه صانع الفلك الدوار بما يشتمل عليه الفلك من أجرامٍ علوية جبارة.

فلماذا ـ وعلى سبيل المثال ـ لم يقدم ذكر المشتري، أو غيره، أو القمر، وهذه وغيرها كلها آيات ضخمة تدل على عظمة الله، وقدرته الجبارة؟.

وجوابنا على ذلك: إن هذه الأهمية تأتي نتيجة ما للشمس من تأثير على الحياة للأرض، ولكل ما فيها من المخلوقات الحيوانية، والنباتية والمياه وكل ما هو موجود على سطحها وفي جوفها.

ولبيان أهمية الشمس وتأثيرها نحيل القارئ الكريم إلى المقطع السابع من هذا الدعاء في الفقرة السابعة من قوله (عليه السلام): (وجعلت الشمس والقمر للبرية سراجاً وهاجاً).

٥ ـ (يا مَنْ دَلَّ على ذاته بِذاتِهِ).

بهذه الفقرة من الدعاء تبدأ المرحلة الثانية من المقطع الأول، وفيها شرع الإمام (صلوات الله عليه) بتمجيد الله سبحانه ببيان صفاته المختصة به الدالة على توحيده واستغنائه عن الغير بينما لابد للغير من الاستعانة به، والانتساب إليه في وجوده وفي كل ما يقومه بعد الوجود.

---

(١) سورة يونس: الآية، ٥.

(٢) سورة القصص: الآية، ٧١.

(يا من)

من الواضح أن المنادى في هذه الفقرات الدعائية هو الله سبحانه ولكن الذي يلحظه الداعي من البدء في الدعاء هو أن حرف النداء أبرز في مطلع الدعاء، وفي فقرته الأولى فقال: (اللهم يا من دلع لسان الصباح) الخ، وعطف عليه بقية الفقرات مكتفياً بالعطف والتقدير من الداعي فله أن يقدر ويقول: (ويا من سرح قطع الليل المظلم، ويا من أتقن صنع الفلك)، وهكذا يستمر.

ولكنه حيث بدأ الدعاء بالانتقال إلى مرحلة ثانية فقد أعاد حرف النداء وأبرزه لتغيير الاسلوب الدعائي أولاً، ولبيان الانتقال من مرحلة إلى أخرى جديدة فقال:

(يا من دلّ على ذاته بذاته).

وكل شيء أرشد إلى غيره فقد دل عليه، وكشف عنه، وبذلك يكون الكاشف غير الشيء الذي يكشف عنه، وإلاّ لاتحد الدال والمدلول، وهذا غير ممكن إذ لا أقل من الاختلاف بينهما بالوضوح، والخفاء من هذه الجهة.

ولكن هذه القاعدة تنخرم بالنسبة إلى الله تعالى، لذلك نرى أمير المؤمنين (عليه السلام) يناجيه بـ: يا من أرشد إلى ذاته، وكشف عنها بذاته ومن دون دليل آخر يدل عليه ليكشف عن حقيقته، وصفاته وعظمته.

وهي صفة يتوخى (صلوات الله عليه) من بيانها بيان ما له سبحانه من عظمة إلهية بحيث يستغنى عن كل أحد، ولا يستغنى غيره عنه.

وإثبات ذلك له سبحانه أمر طبيعي مستوحىً من كماله الذاتي الذي لابد له من الاتصاف به، وعدم احتياجه إلى من يعرفه، ويكشف عن حقيقته، وذلك لأن القول باحتياجه إلى الكاشف الخارجي البعيد عنه يستلزم أن يكون معرفة أوضح منه، وأجلى ليظهره، ويدل عليه، وهذا ما لا يمكن الالتزام به لأنه يثبت النقص له، والناقص لابد له من الانتساب إلى من يكمل له نقصه، وحاشا لله من كل ذلك.

ولإثبات نفي النقص عنه سبحانه لابد لنا من الاستدلال على أمرين:

الأول: إثبات كماله جلت عظمته، وأنه لا يحتاج إلى غيره لا في مقام إيجاده، ولا في مقام بقائه، واستمراريته، بل هو مصدر العطاء وإفاضة الوجود لكل شيء.

الثاني: إنه سبحانه كيف دل على ذاته بذاته، وكيف كانت الدلالة التي تدل عليه نابعة من ذاته المقدسة لا من غيره وعارضة عليه.

الأمر الأول: إثبات وجوده، واستغناؤه:

ولإثبات ذلك نقول: يقسم الحكماء الأشياء إلى ثلاثة أقسام:

واجب الوجود.

وممتنع الوجود.

وممكن الوجود.

واجب الوجود ما هو؟

وهذا مصطلح يطلقه العلماء على كل من كان موجوداً، ويبقى موجوداً ولا يحتاج في أصل وجوده، ولا في بقاءه إلى أحد، بل هو مستغنٍ عن كل أحد، قائم بنفسه لنفسه له الحرية الكاملة، والصلاحيات التامة يفعل ما يشاء بما يشاء فيمن يشاء، وإذا أراد أمراً قال له كن فيكون.

ونطلق من الآن على هذه الذات عنوان (المستغني) للاختصار والتوضيح.

ممتنع الوجود:

وهو عنوان يطلق على شريك القسم الأول «واجب الوجود» بأن نفرض في هذا الكون أكثر من ذات واحدة مستجمعة لتلك الصفات المتقدمة من الاستغناء المطلق التام وحينئذٍ يكون كل واحد مزوداً بتلك الصلاحيات، والخصوصيات المذكورة. أي غير ممكن وجوده كإجتماع النقيضين كاجتماع الليل والنهار في مكان واحد.

ممكن الوجود:

وهو الذي يفتقر في مقام وجوده، وبقائه إلى من يوجده، ويقومه. يضفي عليه ذلك الغير نعمة البقاء بعد أن أضفى عليه نعمة الوجود، ولنطلق على هذا القسم عنوان (المُفتَقِر) في مقابل القسم الأول الذي أطلقنا عليه عنوان (المستغني).

مع الأقسام الثلاثة:

أما القسم الثاني: وهو ممتنع الوجود فإنه اسم ينبع في حقيقته من مسماه، ولا يمكن القول بوجوده، وإمكانه إذ من المحال أن يقبل العقل بفرض ذاتين أو أكثر، ولكلٍ ذات الصلاحيات التامة من الايجاد، والإفناء، والإبقاء، والإغناء، والإفقار، وغير ذلك وبتعبير أوضح، تعدد السلطة الكبرى المطلقة والشاملة في كل وقت وعلى كل شيء، لأكثر من ذات واحد مستحيل لا يمكن.

ويقرر العلماء لإبطال هذا النوع من التعدد من أننا لو تأملنا حال هذين الشريكين بالنسبة لكل شيء فإما أن تتعلق إرادتهما بوجود ذلك الشيء أو تختلف.

وعلى الأول: فأحدهما يكفي لإدارة الأشياء وإيجادها من دون حاجة إلى الشريك الآخر.

وعلى الثاني: لو فرضنا أن أحد الشريكين تعلقت إرادته بوجود شيء بينما تعلق إرادة الآخر بعدم وجود ذلك الشيء فأي من هاتين الإرادتين تتقدم؟.

وفي هذه الحالة فإن تغلب أحدهما على الآخر فهو المستغني المطلق، وإن لم يتغلب لا يمكن القول بهذا التناحر، ولا إمكان لوجود كونٍ تتنازع عليه سلطتان متناحرتان. وسبحان من قال:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[1].

وإذاً فلا استقامة لكونٍ فيه شركاء.

فنبقى نحن، والقسمان الأول، والثالث:

---

(١) سورة الأنبياء: الآية، ٢٢.

ولابد لنا أن نفرض ما في الكون من قبيل القسم الثالث المفتقر في وجوده، وبقائه وإدارته وتدبيره إلى القسم الأول المستغني، وهو الله سبحانه.

ولبيان هذا وتوضيحه نقول:

فرض كون الأشياء في هذا الكون بما فيه وما يشتمل عليه من قبيل القسم الأول وهو المستغني أمر غير ممكن لأن هذا معناه فرض القول بوجود القسم الثاني، وهو ممتنع الوجود وتعدده، وقد قلنا إن القول به محال.

إذاً، فلابد من فرض الأشياء كلها من قبيل الثالث، وهو (المفتقر) وانتسابها إلى الغير لاحتياجها إليه في مقام الوجود والبقاء بما بين هاتين المرحلتين من تدبير وتيسير.

وإذ فرضنا رجوعها إلى الغير فحينئذٍ ننقل الحديث إلى هذا الغير فإن كان هو مصدر العطاء والحياة، وهو المستغني.. فهو المطلوب ـ وهو الله سبحانه ـ.

وإن لم يكن هو مصدر الحياة والعطاء بل كان مفتقراً إلى غيره فننقل الحديث إلى هذا الذي يفتقر إليه ولا يخلو الحال فيه من اثنين.

فإما أن يكون من يفتقر إليه من الذي خلقهم وأوجدهم، وإما أن يكون ذاتاً أخرى غير مخلوقة له:

وعلى الأول: فتأتي مشكلة الدور.

وعلى الثاني: تحصل مشكلة التسلسل.

وكلا هذين باطل ببيان:

أنا لو فرضنا أن هذه الذات افتقرت في مقام وجودها إلى من كانت قبل وجودها لأنا لو فرضنا أن زيداً خلق عمراً فمعناه أن عمراً كان معدوماً فأوجده زيد، وفي هذه الصورة لو فرضنا أن زيداً مخلوق لعمرو متوقف وجوده عليه فمعناه أن زيداً لم يكن فأوجد عمرو، وهذا باطل باتفاق العقلاء لتوقف الشيء على نفسه وهو محال.

وأما لو فرضنا أن هذه الذات افتقرت في وجودها إلى ذات أخرى غير التي كانت هي السبب فالحديث ينقل إلى تلك الذات فهل هي مستغنية أم مفتقرة إلى غيرها؟

فإن كانت مفتقرة فتنقل الحديث إلى تلك الذات أيضاً.

فإن قلنا إن هذه السلسلة لا تقف عند ذات مستغنية عن غيرها فهذا معناه تسلسل الشيء إلى ما لا نهاية، وهو باطل باتفاق العقلاء.

أما لو وقفت السلسلة عند ذات كانت مستغنية عن غيرها فهذه الذات هي ذاته سبحانه وتعالى.

وإذا ثبت أن ذاته جلت عظمته مستغنية في مقام وجودها وبقاءها عن كل أحد فلابد من الانتقال إلى:

الأمر الثاني: وهو معرفة ما جاء في هذه الفقرة من الدعاء من عدم احتياج الله إلى من يُعرفه ويكشف عنه شيء خارج عن ساحته المقدسة بل الذي يتولى هذه الجهة هو فكشف عن ذاته بذاته كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في هذه الفقرة من الدعاء.

ولمعرفة ذلك لابد من أن نعرف أن الذي كشف الله لهم ذاته وعرفهم على حقيقته من هم؟.

وفي مقام الجواب نقول: إن هؤلاء على قسمين:

١ ـ الطبقات العامة من الناس.

٢ ـ الطبقات الخاصة منهم.

أما الطبقات العامة: فقد ذكروا لدلالته سبحانه لهم على ذاته المقدسة وجوهاً عديدة كان في مقدمتها التوصل بواسطة العقل إلى ذلك، والعقل هو منحة الله إلى الإنسان خصه بها، وبه فضّل على جميع الحيوانات يقول الإمام الباقر (عليه السلام):

«لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر. قال: وعزتي، وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك ولا أكملتك إلاّ فيمن أحب، أما

إني بك آمر وإياك أنهي، وإياك أعاقب، وإياك أثيب»[(١)].

والعقل لولا فضل الله لما أمكن أن يكون دليلاً لكشف ذاته المقدسة ذلك، لأن العقل مهما أوتي من طاقة ومهما شرّف، فإنه مخلوق والمخلوق ناقص، وليس بكامل فكيف ـ والحالة هذه ـ يتوصل به إلى معرفة الكامل، وهو الله سبحانه... إلاّ أنها رحمة الله الواسعة، وهي التي جعلت من هذا المخلوق دليلاً على الخالق.

وقد ذكروا لبيان هذه الجهة، وكيفية الانتقال إلى ذاته المقدسة بواسطة المدركات العقلية طريقين:

الأول: طريق الانتقال من العلة إلى المعلول.

الثاني: طريق الانتقال من المعلول إلى العلة.

أما الطريق الأول: فقد سلكه النبي الأكرم(ﷺ) مع من سأله قائلاً:

(بماعرفت الله تعالى؟ قال (ﷺ): بالله عرفت الأشياء) [(٢)].

وينطوي هذا الجواب على نقطة دقيقة تلك هي: إن السائل أراد أن ينتقل من الأشياء الخارجية، والدلالات العارضة إلى معرفة الله سبحانه لتكون هي الوسيلة لوصوله إلى غايته، وهذا الانتقال من المعلول إلى العلة.

ولكن النبي(ﷺ) أجاب بعكس ذلك حيث نقل السائل من العلة إلى المعلول وأثبت أن التفكر في حقيقة الله جلت قدرته هي التي تكشف حقيقة غيره أما هي فلا تحتاج إلى من يكشفها من الخارج وذلك:

لأن الإنسان عندما يتجه إلى ذاته المقدسة يراها مستغنية عن كل أحد، وغنية عن من يديرها، ويسيّرها، ويضفي عليها نعمة الوجود والبقاء بما بينّاه من أن فرض افتقاره إلى غيره يجرنا إلى مشكلتي الدور، والتسلسل الممنوعين من قبل العقلاء.

---

(١) المولى محمد صالح المازندراني: شرح أصول الكافي/ ١،٦٥، كتاب العقل والجهل، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان..

(٢) محمد داوود قيصري رومي: شرح قصص الحكم/ ٥٣٨، الناشر: شركة انتشارات علمي وفرهنكي.

وباستغنائه ننتقل إلى افتقار غيره إليه وإلاّ لكانت صفة الاستغناء ثابتة لكل أحد وهذا ممتنع ـ كما قلنا ـ.

وإذاً، فمن كان قائماً بذاته لابد أن يكون علة لإظهار غيره، ولذلك قال بعض العلماء: (ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله قبله أو معه).

ذلك، لأن الله سبحانه هو العلة، لوجود الأشياء والنظر إلى المعلول مسبوق بالنظر إلى العلة.

الطريق الثاني: وهو الانتقال من المعلول إلى العلة. وقد سلك هذا الطريق الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في قوله: (بصنع الله يستدل عليه، وبالعقول يعتقد معرفته، وبالفطرة تثبت حجته) [1].

وصنع الله ثابت في مخلوقاته، وسماواته، وأرضينه، وكل ما في هذا الوجود يشهد بأن الله هو مصدر وجوده، وعطاءه.

نظرة واحدة إلى السماء بما فيها، والأرض بما عليها، وفي جوفها، واختلاف الليل، والنهار، وكون كل ذلك مقدر بمقدار يكفي لاثبات أن لهذا الكون مدبراً وخالقاً، ومدبراً.

ويبدو هذا واضحاً من خلال المحاورة التي جرت بين الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) وتلميذه المقرب هشام بن الحكم حيث يقول (صلوات الله عليه) [2]:

(يا هشام إن الله تبارك، وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول، ونصر النبيين بالبيان، ودلهم على ربوبيته بالأدلة فقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ

---

(١) الشيخ الصدوق: التوحيد/ ٣٥.

(٢) الشيخ الكليني: الكافي/ ١، ١٣.

ﭐلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [1].

يا هشام قد جعل الله ذلك دليلاً على معرفته بأن لهم مدبراً فقال:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [2].

ويستمر الإمام (عليه السلام) في حديثه مع هشام فيعدد له الآيات العديدة التي يذكر الله فيها الآيات الكونية الدالة على أن لكل ذلك مدبراً، وصانعاً، وأن العاقل لا يتوقف بعدما يشاهد ذلك من الاعتراف بوجود الله ووحدانيته.

وأما الطبقات الخاصة: فهؤلاء هم ذوو النفوس الرفيعة التي سمَت إلى رحاب الله فانصهرت فيه ولفها الشوق إليه فكانت تراه في كل صغيرةٍ وكبيرة وفي كل شيء في هذا الوجود، وقد أضفى الله عليهم من نوره فكان هذا النور هو الضوء الذي دلّهم عليه.

يقول الإمام أبو عبد الله الحسين (عليه السلام) في دعائه الذي دعا به في عرفات: «أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك، وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأ إلى غيرك» [3].

ويقول الإمام الصادق (عليه السلام): (إن الله إذا أراد بعبدٍ خيراً نكت في قلبه نكتة من نور وفتح مسامع قلبه) [4].

وفي حديث آخر عنه: (إن الله إذا أراد بعبدٍ خيراً طيب روحه فلا يسمع معروفاً إلاّ عرفه، ولا منكراً إلاّ أنكره ثم يقذف الله في قلبه كلمة يجمع بها أمره) [5].

---

(١) سورة البقرة: الآية، ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٢) سورة النحل: الآية، ١٢.

(٣) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٩٥، ٢٢٦.

(٤) الشيخ الكليني: الكافي/ ١، ١٦٦.

(٥) المصدر المتقدم: ١، ١٦٥.

عباد كرام أخلصوا لله نيّاتهم وأحبوه فقابلهم الله سبحانه بحبه لهم، وجللهم بنوره فأشرقت قلوبهم بذلك النور فلم يكونوا بحاجة إلى شيء يدلهم عليه، وإذا ما شئنا أن نستزيد معرفة، ونقف على حقيقة مثل هذه النفوس الخيرة لنرى كيف تمثل بين يدي الله، وتناجيه وتمجده علينا أن نجدّ السير لننظم إلى موكب الإمام أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) لنراه، وقد خرج من مضارب خيامه في وادي عرفات تحف به كوكبة من أهل بيته، وأصحابه فيقف بمسيرة الجبل متجهاً إلى الكعبة من بيت الله الحرام... يقف وقفة كلها الخشوع، وقد مدّ يديه إلى الله، يقول، وهو يرمق السماء بطرفه بصوتٍ تجلله الضراعة.

(كيف يستدل عليك بما هو مفتقر في وجوده إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟).

إن هذا الاستفهام الإنكاري من الإمام (عليه السلام) ليجسد لنا مشكلة الدور الذي سبق لنا أن بيناه وقلنا ببطلانه لأن الله غني عن غيره، وغيره فقير إليه فكيف يكون غيره مظهراً له.

وبتعبير آخر، فإن من افتقر إلى غيره ليظهره لابد وأن يكون ذلك الغير أجلى منه وأوضح ليدل عليه مع أنه في مقام كشفه هو مفتقر ومحتاج إليه.

ويتدرج الإمام في دعائه ليقول: «متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بَعُدتَ حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟».

وطبيعي أن الدليل إنما يحتاج إليه لو كان ما يستدل عليه خفياً أو بعيداً ليكون الدليل كاشفاً عنه ومرشداً إليه.

ومتى كان الله بعيداً عن عباده ليحتاج العباد إلى معرفته لدليلٍ يكشف عنه.

كلا: إنه قريب، وأقرب إليهم من حبل الوريد، وأشفق من الأم على وحيدها.

وإذا ما ودعنا هذا المنظر الروحي، وهذا الموكب الإلهي، فلنهرع إلى بيت من بيوت الله التي أذن لها أن ترفع ويذكر فيها اسمه لنجثوا خاشعين أمام زين

العابدين(عليه السلام) لنراه، وهو منهمك في مناجاته يتضرع إلى الله وقد أرخى الليل سدوله والناس نيام يقول بصوتٍ يجلله الخشوع.

(يا رب بك عرفتك وأنت دللتني عليك ودعوتني إليك ولولا أنت لم أدرِ ما أنت) (١).

فهو إذاً، مصدر المعرفة ومصدر الدلالة ولولاه لما كانت هذه النفس المؤمنة تعرف حقيقة الله كما هي، لذلك نراه (صلوات الله عليه) يؤكد على هذا المعنى قائلاً: (معرفتي يا مولاي دليلي عليك وحبي لك شفيعي إليك، وأنا واثق من دليلي بدلالتك وساكن من شفيعي إلى شفاعتك).

وإذا كان الإمام (عليه السلام) يصرح بأن حبه لله سبحانه هو شفيعه إليه فإن البادئ بذلك هو الله جلت عظمته وأنه مصدر الانعطاف على عبده فقد قال فيما سبق هذه الفقرة من المناجاة: «الحمد لله الذي تحبب إليّ، وهو غني عني» (٢).

والفرق بين الحبين ظاهر، حب من الله لعبده وهو الغني عنه وحب من العبد لربه، وهو الفقير إليه.

إنه نور الإيمان يقذفه الله في قلب من يحبه، ويرتضيه.

وإنها إشراقة اللطف الإلهي تتلألأ لتملأ القلب إيماناً، ويقيناً.

٦ ـ (وَتَنَزَّهَ عَنْ مُجانَسَةِ مَخْلوقاتِه).

نزه: النزهة: معروفة. والتنزه: التباعد... وقد نزه نزاهة ونزاهية، وقد نزهت الأرض بالكسر، وأرض نزهة ونزهة بعيدة... وهو يتنزه عن الشيء إذا تباعد عنه(٣).

والمجانسة: هي المشاركة في الجنس والاتحاد فيه ويمثل لذلك باشتراك جميع

---

(١) مقاطع من دعاء الحسين (عليه السلام) في يوم عرفة.

(٢) المقاطع من دعاء أبي حمزة الثمالي الذي رواه عن الإمام زين العابدين، وقد ذكرته كتب الأدعية والمزارات للطائفة.

(٣) ابن منظور: لسان العرب/ مادة (نزه).

الفضائل الحيوانية في ماهية واحدة وهي: (الحيوانية) وإنما يفصل بينهما بالفصل.

فيقال: هذا إنسان، وذاك فرس، وذلك طير، وهكذا.

وتأتي هذه الصفة في مقدمة صفاته سبحانه وتعالى حيث يناديه الداعي ويقول: (ويا من تنزه عن مجانسة مخلوقاته) أي يا من بعد عن الاشتراك مع مخلوقاته في الجنس، والماهية.

ولكن لماذا اقتضت الضرورة بعده عن المجانسة مع المخلوقين؟

ويأتي الجواب: بأن المجانسة تقتضي المحاذير التالية:

١ ـ إن الاتحاد مع الشيء في الجنس يقتضي مشاركة هذه الذات مع بقية الفضائل في ذات تجمع الجميع، وهذا ما لا يمكن الالتزام به ـ لما تقدم ـ أن بيّنا من لا بدية الاختلاف بين الذاتين بأن إحداهما مستغنية عن كل أحد بينما الأخرى مفتقرة إلى غيرها في كل شيء، وكيف نلائم بين هاتين الذاتين مستغنية ومفتقرة وكلاهما تشتركان في ماهية واحدة؟

٢ ـ إن المشاركة لذاتين، أو أكثر في الجنس تستدعي احتياج كل فرد إلى فصل يميّز البعض منها عن الآخر لأن الجنس ماهية مبهمة تنطبق على الكثير فلابد في مقام تخصيصها من جعل فصل يميّز كلاً منها عن الآخر في الخواص والذات وكل ما به الافتراق بين هذه الذوات التي جمعها الجنس.

وقد قلنا، إنه سبحانه لا يحد بحد، ولا يفصل بفصلٍ لأن كل ذلك يستلزم ثبوت التخصيص والنقصان له وهو منافٍ لكماله الذاتي الذي ثبت به استغناءه عن كل أحد، وعن كل شيء.

٣ ـ إنا لو فرضنا اشتراك ذاته المقدسة مع مخلوقاته فكيف يفرض أنه علة لإيجاد تلك المخلوقات؟ لعدم إمكان فرض أن يكون بعض أفراد الطبيعة الواحدة علة لإيجاد البعض الآخر بعد التسليم بأنها كلها تنتهي إلى ماهية واحدة.

٧ - (وَجَلَّ عَنْ مُلاءمَة كَيفيّاته).

جل: أي عظم. وأجللته أي أعظمته... وجل كل شيء عظمه [(١)].

أما الملاءمة: فهي الموافقة [(٢)]. والمجامعة يقال: لاءم زيد بين الشيئين إذا جمع بينهما.

والكيفية: هي من كل شيء حالته وصفته ولذلك قالوا: إن الكيفية ما يقال في جواب: كيف هو؟

وقد قسم الحكماء الكيف إلى أقسام عديدة، ولكن أقسامه الأولية أربعة، ومن جملتها الكيفيات المتشعبة بحسب المشاعر الخمسة يضاف إليها الكيفيات النفسانية كالإرادة والقدرة والجبن والشجاعة والفرح والغم ونحوها ويجمع كل ذلك جميع الحالات الراجعة إلى النفس وملكاتها، والتفسير الإجمالي لهذه الفقرة من الدعاء هو تمجيد الله بأنه سبحانه أجل وأعظم من أن يجامع ويوافق كيفية من الكيفيات.

وتوضيح ذلك: يتوقف على معرفة مرجع الضمير في قوله (عليه السلام) (كيفياته) وقد قيل في مرجعه:

١ - يرجع إلى الله سبحانه وهو المنادى بكلمة (من) المقدرة في هذه الفقرة وبذلك نحافظ على النسق الدعائي في هاتين الفقرتين:

وتنزه عن مجانسة مخلوقاته:

وجل عن ملاءمة كيفياته.

ويكون المراد من الكيفيات كيفياته، وصفاته جلت عظمته.

أما المعنى التقديري للجملة: فهو أنه سبحانه أجل وأرفع من أن تكون صفاته وكيفياته، تتلاءم وتجتمع مع صفات غيره من المخلوقين، بل صفاته خاصة به كما قال الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) في حديث له تطرق فيه إلى صفات الله وكيفياته، (ولكن

---

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين/ مادة (جل).

(٢) ابن منظور: لسان العرب/ مادة (لما).

لابد من إثبات أن له كيفية لا يستحقها غيره، ولا يُشارك فيها ولا يُحاط بها ولا يعلمها غيره)[1].

وقد علق الشيخ المجلسي على هذا التفسير بقوله: «ففي الكلام تقدير»[2] والتقدير هو هذا الذي بيّناه من، أنه سبحانه أجل من أن تلائمه كيفيات غيره لأن كيفيات غيره من المخلوقين تتعرض إلى التغيير والتبديل والتعديل والزيادة والنقصان حسب عمر الإنسان وتجاربه وما يمر عليه من أحداث، لذلك يلزم الإنسان أن يراقب نفسه لكي لا يخرج عن الطريق الإنساني المثالي، ولكن هذا لا يحدث لله سبحانه رغم قدمه، وحوادث الدهور ومتغيرات الكون الهائلة، والمستمرة لأنها منذ الأزل والقدم هي هي وتبقى هكذا إلى الأبد ثوابت لا تقل ولا تزيد.

٢ ـ أن يكون الضمير راجعاً إلى المخلوق المذكور في قوله (عليه السلام).(مخلوقاته) في الفقرة السابقة لأن المخلوق في ضمن المخلوقات كما هو الحال في قوله تعالى:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[3].

وضمير هو في هذه الآية راجع إلى العدل المذكور في ضمن قوله تعالى: (إعدلوا) ويكون المعنى على هذا التقدير: إنه سبحانه أجل وأرفع من أن تجتمع وتلتئم صفاته مع صفات مخلوقاته وكيفياتهم.

وعلى كلا التقديرين، فإن ترفعه عن ملاءمة كيفيات، وصفات المخلوقين أمر يفرضه الالتزام بكماله الذاتي، وأن صفاته عين ذاته وليست زائدة عليها إذ لو كانت زائدة عليه لكانت الصفات محددة للموصوف والله سبحانه لا يحد بحد.

يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، في خطبته التي ذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم: (أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ ١، ٨٥، باب أنه لا يعرف إلا به.

(٢) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٨٤، ٣٤٥، في سند دعاء الصباح وشرح بعض لغاته.

(٣) سورة المائدة: الآية، ٨.

التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عده) [١].

ولنبدأ مع هذه الفقرات:

(أول الدين معرفته).

والدين كما يعرفه اللغويون، وغيرهم: هو القانون الإلهي الذي يتناول الأصول والفروع وضعه الله للعقلاء وهم البشر من بين الفصائل الحيوانية يقول تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [٢]. وفي آية أخرى جاء على لسان النبي الأكرم(ﷺ) يخاطب قوماً من الكفار: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [٣]. أي لكم مذهبكم ولي مذهبي.

ومن هذا المنطلق نرى أمير المؤمنين يفتتح خطبته بقوله: (أول الدين معرفته)، إذ لو لم يعرف المقنن والواضع فكيف يلتزم بالقانون ويتعبد به؟

(وكمال معرفته التصديق به).

فلو لم يصدق بالله فكيف يقال إنه عرفه؟ أما كيف يحصل التصديق به لتكمل معرفته فإن ذلك يتوقف على توحيده وعدم جعل شريك له، ولذا قال (عليه السلام): «وكمال التصديق به توحيده».

ولكن توحيده لا يتم لو لم يخلص له، ويتوجه إليه، ولهذا نرى الفقرة التالية

---

(١) نهج البلاغة: شرح الشيخ محمد عبده/ ١، ١٤، دار المعرفة – بيروت.

(٢) سورة آل عمران: الآية، ١٩.

(٣) سورة الكافرون: الآية، ٦.

تترتب على هذه الفقرة فيقول (عليه السلام):

(وكمال توحيده الإخلاص له).

إذ كيف يوحده من لا يخلص له ومن يشرك في حبه غيره.

وأخيراً، فإن كمال الإخلاص له يتوقف على معرفته التفصيلية التي تتمثل بقوله:

«وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه».

وأي الصفات تلك التي يتوقف الإخلاص له سبحانه على نفيها عنه؟

إنها الصفات التي تكون لغيره من المخلوقين، ولابد أن تنفى هذه الصفات عنه لأنها مخلوقة له، «والله لا يوصف بمخلوقاته» كما يقول الإمام الصادق (عليه السلام)، ويدلل الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، على أن كمال الإخلاص لله سبحانه هو نفي الصفات عنه بقوله: «بشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة الموصوف أنه غير الصفة»[1].

إذ لو لم تكن هذه الغيرية موجودة لما كانت هذه صفة، وذاك موصوف ولأن الصفة لابد لها من معروض تعرض عليه، وهو غيرها، وإلاّ لزم القول بوحدة العرض والمعروض، وهذا غير ممكن.

وإذا ثبت أن كل صفة هي غير الموصوف، وأن كل موصوف هو غير الصفة، ولو أراد أحد أن يصف الله بهذه الصفات التي هي مخلوقة له فإن الإمام (عليه السلام) تصدى للإجابة على ذلك بقوله:

«فمن وصف الله فقد قرنه».

أي قرنه بصفته لأن القرين هو المصاحب، وحينئذٍ فلو وصفه، وحصل على ذلك من أحد فماذا يكون، أو بالأحرى فماذا يترتب على هذه المقارنة بين الله، وصفاته؟

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ ١، ١٤٠، باب جوامع التوحيد.

ويأتي الجواب منه (عليه السلام) في الفقرة التالية حيث قال:

«ومن قرنه فقد ثناه».

وهذه الاثنينية حاصلة من وصف هذا بهذه الصفة فهما اثنان، وإذا حصل التعدد فإن ما يترتب على ذلك قوله:

«ومن ثناه فقد جزأه».

لأن الشيء إذا تعدى عن الواحد صار محصصاً، ومجزأً، وإذا صار الشيء مجزأ فلابد حينئذٍ من التسليم لقوله (عليه السلام):

«ومن جزأه فقد جهله».

لأن من يعرف حقيقته يعرف أن صفاته عين ذاته من غير تركيب ولا اثنينية، أما من يجهل حقيقته فإنه يلجأ إلى تجزئته والقول بالتجزئة يستلزم أن يتصف بصفات مخلوقاته، وينتج من ذلك:

(ومن جهله فقد أشار إليه).

لأن التجزئة ـ كما قلنا ـ تستلزم التجسيم والتركيب واعتبار ذاته غير صفاته، وحينئذٍ فيصح أن يشار إليه كما هو الحال في بقية الأجسام التي تشغل مقداراً من الحيز في هذا الوجود، فيقال: هذا، وهذا، وذاك. بالنسبة له ، ولأجزائه.

(ومن أشار إليه فقد حده).

لأن الإشارة إلى الشيء تستلزم كون المشار إليه في جهة معنية ليتمكن من الإشارة إليه وتخصيصه بها، وحينئذٍ فإن أشار إليه فقد حده، وإن حده لابد من الرضوخ إلى الفقرة التالية:

(ومن حده فقد عده).

لأن تحديده وكونه في تلك الجهة المعنية تقتضي الإحصاء والتعداد وحاشاه سبحانه من كل ذلك.

إذاً، ونعود مرة أخرى إلى صدر هذه الخطبة لنردد بخشوع ما افتتح به أمير

المؤمنين تمجيده لله ووصفه حيث يقول:

(الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصى نعماءه العادّون، ولا يؤدي حقه المجتهدون الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن الذي ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود. فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته) (١).

٨ ـ (يا مَنْ قَرُبَ مِنْ خَطرات الظُّنونِ).

٩ ـ (وبَعُدَ عَنْ لَحَظاتِ العُيونِ).

هناك ارتباط خاص بين هاتين الفقرتين لأنهما ترمزان إلى هدفٍ واحد ونتيجة واحدة.

أما الخطرات: الخاطر، ما يخطر في القلب من تدبير أو أمر... والجمع: الخواطر، وقد خطر بباله وعليه يخطر... (٢).

خطرات: يريد بها ما يقع في الخاطر. والخاطر: الهاجس والجمع خواطر (٣). والخطرة: ما يخطر من الأمور بالقلب أو بالعقل.

وفي بعض النسخ جاء (يا من قرب من خواطر الظنون).

والخواطر: جمع خاطر، والخاطر أيضاً بمعنى الخطرة لأنهم عرفوه: بما يرد على القلب أو يمر بالعقل من الهواجس.

أما الظنون فيراد بها في هذه الفقرة بما يرادف الأوهام.

والوهم: كما يفسره علماء اللغة بأنه: من خطرات القلب، والجمع أوهام،

---

(١) لاحظ لكامل الخطبة، نهج البلاغة: ١، ١٤، طبع: دار الذخائر، قم المقدسة ـ إيران.

(٢) ابن منظور: لسان العرب/ مادة (خطر).

(٣) الشيخ الطريحي: مجمع البحرين/ مادة (خطر).

وللقلب وهم، وتوهم الشيء تخيله وتمثله، كان في الوجود أو لم يكن... [١].

والتقدير لهذه الفقرة هو النداء بيا من قرب من خطرات الأوهام التي ترد على القلب وتمر على العقل.

أما لو أردنا أن نعرف خواطر القلوب ما هي؟

فقد قيل: إنها الأمور التي يدركها الإنسان بعقله وتقع في قلبه من أفعال الله سبحانه وأثار صفاته.

ـ وعلى سبيل المثال ـ فإن الإنسان عندما يطلق لنفسه عنان التفكير يرى نعم الله عليه متوالية ومتصلة، وأن الحالات التي ترد عليه من الصحة والسقم والعسر واليسر وتقدم سنه من الطفولة إلى البلوغ إلى دور الشباب إلى الكهولة إلى الشيخوخة كل ذلك لابد أن يكون بتدبير وقدرة قادر وأنه لم يترك سدىً كما هو الحال في بقية الفصائل الحيوانية بل هو محط للتكاليف الشرعية بأقسامها المختلفة.

كل هذا وغيره يمر بالقلب ويرد على العقل فيأخذ قسطه من التفكير فيه.

والقلب أو العقل ـ وهو القوة المسيطرة على كيان الإنسان ـ أُفقه واسع فبإمكانه أن يتناول كل ذلك من دون تحرج ولا توقف.

يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد سأله ذعلب قائلاً: (هل رأيت ربك؟ فقال(عليه السلام) ويلك يا ذعلب كمْ أكن بالذي أعبد رباً لم أره. فقال: فكيف رأيته؟ صفه لنا. قال (عليه السلام): ويلك لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان ويلك يا ذعلب، إن ربي لا يوصف بالبعد ولا بالحركة ولا بالسكون... الخ)[٢].

هذا القرب والبعد الذي جاء في كلام أمير المؤمنين سواءً في دعائنا هذا أم في هذا الكلام مع ذعلب ليس القرب، والبعد بحسب المكان لأن ذلك من صفات الأجسام حيث تفصل بين الأشياء المسافة وعلى تحديد المسافة يتحدد القرب،

(١) ابن منظور: لسان العرب/ مادة (وهم).

(٢) الشيخ الصدوق: الأمالي/ ٤٢٤.

والبعـد، وهـذا منتـفٍ بالنـسبة إلى الله سـبحانه تعـالى لاسـتلزام ذلـك: التحديـد والتحصيص له وهو محال.

بل القرب، والبعد هنا المعنويان كما جاء مثله مصرحاً به في الآية الكريمة:

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [1].

وفي محاورة جرت بين الإمام أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) وبين سائلٍ سـأله عـن الله، وعن حقيقة الوصول إليه فقال (عليه السلام): (يا عبد الله هل ركبت سفينة قط؟. قال: بلى. قال: فهل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك، ولا سباحة تغنيك؟ فقـال: بـلى. قال: فهل تعلق قلبك هناك إن شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلصك مـن ورطتـك؟ قال: بلى. فقال "الإمام (عليه السلام)": فذلك الشيء هو الله القادر عـلى الإنجـاء حيـث لا منجي وعلى الإغاثة حيث لا مغيث) [2].

بهذا الأسلوب البسيط، وبهذا الواقع الذي يعيشه الفرد في كثـير مـن الحـالات وفي أغلب الأزمات التي تحل بالإنسان يصور الإمام (عليه السلام) لـسائله ربـه وأنـه معـه، وأنه متعلق به حيث لا مغيث ولا منجي غيره.

ففي الوقت الذي يرى العبد ربه بعيداً عنه لأنـه مخلـوق لـه والمخلـوق محـدود بالجسمانية وبالصفات الطارئة عليه يراه قريباً منه ومعه في كل مكان، وفي كـل وقـت يراه بقدرته عليه وبآثاره وصنائعه.

يقول ابن أبي العوجاء ـ وهو من الملاحدة الذين لا يعترفون بوجود الله ـ للإمام أبي عبـد الله الـصادق (عليه السلام): «مـا منعـه ـ أي الله ـ أن يظهـر لخلقـه، ويـدعوهم إلى عبادتـه حتـى لا يختلـف مـنهم اثنـان؟ ولم احتجـب عـنهم وأرسـل إلـيهم الرسل؟...الخ»،[3].

---

(١) سورة ق: الآية، ١٦.

(٢) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٣، ٤١.

(٣) الشيخ الكليني: الكافي/ ١، ٧٥، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

سؤال يبدو لأول وهلة له مكانته ودقته فلو كان الله يظهر لعباده لانتهت مشكلة الإلحاد، ولما بقي مشرك أو ملحد.

ولكن القضية تصطدم بموضوع آخر، وهو موضوع التحديد بالمكانية والجهة، وأنه لو ظهر لكان محصوراً في مكانٍ خاص ولساوى مخلوقاته في هذه الصفة، وهذا محال عليه للزوم وجود المائز والفارق بين الخالق ومخلوقه.

إلاّ أن الإمام (عليه السلام) لم يسلك هذا الطريق مع ابن أبي العوجاء بل سايره من حيث نقطة السؤال والناحية التي سلكها السائل معه فأنكر عليه أن يكون الله سبحانه قد احتجب عن عباده بل هو معهم يرونه في كل وقت ومكان إلاّ أنها رؤية القلب والعقل، رؤية البصيرة لا البصر لذلك أجابه قائلاً:

(ويلك وكيف يحتجب عنك من أراك قدرته في نفسك، نشؤوك، ولم تكن، وكبرك بعد صغرك، وقوتك بعد ضعفك، وضعفك بعد قوتك، وسقمك بعد صحتك، وصحتك بعد سقمك، ورضاك بعد غضبك، وغضبك بعد رضاك، وفرحك بعد حزنك، وحزنك بعد فرحك، وحبك بعد بغضك، وبغضك بعد حبك... الخ).

لقد اختصر الإمام (عليه السلام) الطريق في الجواب مع ابن أبي العوجاء حيث وقف معه ليثبت له ربه بآياته، وآثاره التي أجراها معه منذ انعقاد نطفته وحتى دخوله في معترك هذه الحياة وتدرجه.

ولماذا يدخل معه في مشاهد أخرى، قد لا يقتنع فيها هذا السائل، وقد يصر على نفي آثار الله فيها إن دخل معه في أمر لا يمكنه الفرار منه أو الإجابة بغير نعم، وعلى طول الخط من أول المحاورة إلى نهايتها.

وفي محاورة أخرى نرى هذا الملحد ـ وهو ابن أبي العوجاء ـ لا يقنع من الإمام الصادق (عليه السلام) وهو يتحدث عن قرب الله لعبده، ومن اتصاله الوثيق به، يقول له ـ وقد ذكر الإمام ـ الله سبحانه ـ (ذكرت الله فأحلت على غائب).

فأجابه (عليه السلام): (ويلك كيف يكون غائباً من هو مع خلقه شاهد، وإليهم أقرب

من حبل الوريد يسمع كلامهم، ويرى أشخاصهم، ويعلم أسرارهم).

ومن هذه الزاوية يوجه ابن أبي العوجاء اعتراضه معقباً بقوله:

(أهو في كل مكان أليس إذا كان في السماء كيف يكون في الأرض؟ وإذا كان في الأرض كيف يكون في السماء؟)

ويجيبه الإمام (عليه السلام) قائلاً:

(إنما وصفت المخلوق الذي انتقل عن مكان اشتغل به مكان، وخلا منه مكان فلا يدري في المكان الذي صار إليه ما يحدث في المكان الذي كان فيه. فأما الله العظيم الشأن الملك الديان فلا يخلو منه مكان، ولا يشتغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان)[1].

ولأن نزيل تعجب ابن أبي العوجاء في قوله: (أليس إذا كان في السماء كيف يكون في الأرض، وإذا كان في الأرض كيف يكون في السماء؟) نقول:

إنا نرى الإنسان في مكانه، وهو قادر على الانتقال في كل لحظة وخطرة بال من مكان إلى آخر، وينقل نفسه بفكره آلاف الأميال فما هذا التفكير، وماهيته هل أن خطرات أفكاره هذه موجودة أم لا؟

هل انتقاله هذا مادي؟ كلا...

وكل إنسان يحس في داخله بوجود قوة مسيطرة عليه ويحس ذلك حين الأزمات وكثير من الأشياء في حياة البشر يحسها بغير حواسه الخمس، ويرى أثارها ويقبل بها بلا نقاش. فهل رأى الإنسان أشعة؟.

ولكنه لا يقدر على إنكارها.

وهل رأى التيار الكهربائي؟ ولكنه يحسه.

---

(١) المصدر المتقدم: ١، ١٢٦، باب الحركة والانتقال.

٩ ـ (وبَعُدَ عَنْ لَحَظاتِ العُيونِ).

وفي بعض النسخ جاء، (وبعد من ملاحظة العيون).

والمقصود من القراءتين واحد هو: عدم إمكان مشاهدته سبحانه بالعين الباصرة. إذ لا يمكن ذلك بالنسبة إليه سبحانه لاستلزام الرؤية تحديد المرأي وحصره في جهة معينة من الجهات، وهذا كله من لوازم الجسمانية للشيء المرئي أيضاً التي لابد لها من اشغال الحيز.

ولنستمع إلى هشام بن الحكم أحد تلامذة الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) وهو يقسم لنا المدركات فيقول: (الأشياء كلها لا تدرك إلاّ بأمرين: بالحواس، والقلب، والحواس إدراكها على ثلاثة معان: إدراك بالمداخلة، وإدراك بالمماسة، وإدراك بلا مداخلة، ولا مماسة.

فأما الإدراك الذي بالمداخلة فالأصوات، والمشام، والطرم، وأما الإدراك بالمماسة فمعرفة الأشكال من التربيع والتثليث، ومعرفة اللين والخشن، والحر والبرد، وأما الإدراك بلا مماسة ولا مداخلة فالبصر فإنه يدرك الأشياء بلا مماسة ولا مداخلة في حيز غيره ولا في حيزه، وإدراك البصر، له سبيل وسبب، فسبيله الهواء وسببه الضياء فإذا كان السبيل متصلاً بينه وبين المرئي، والسبب قائم أدرك ما يلاقي من الألوان، والأشخاص، فإذا حمل البصر على ما لا سبيل له فيه رجع راجعاً فحكى ما وراءه، إذ لا سبيل له في انفاذ بصره.

فأما القلب فإنما سلطانه على الهواء فهو يدرك جميع ما في الهواء ويتوهمه، فإذا حمل القلب على ما ليس في الهواء موجوداً رجع راجعاً فحكى ما في الهواء، فلا ينبغي للعاقل أن يحمل قلبه على ما ليس موجوداً في الهواء من أمر التوحيد جل الله وعز)(١).

١٠ ـ (وَعَلِمَ بما كانَ قبلَ أن يَكُون).

يقع البحث في هذه الفقرة في مرحلتين:

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ ١، ٩٩ ـ ١٠٠.

١ ـ في أنه سبحانه عالم بكل شيء.

٢ ـ في أن علمه بالأشياء ليس محدوداً بحالة خاصة من الماضي أو الحال أو الاستقبال بل هو عالم بها قبل الحدوث وبعد الحدوث.

المرحلة الأولى: أما أنه عالم بالأشياء في مقابل الجهل بها فلأن العالم في المصطلح اللغوي هو من كانت الأشياء متبينة له وواضحة، وهذا أمر لابد من الاتصاف به إذ كيف يفرض كونه خالقاً لهذا الكون بما فيه من سمائه وأرضه، وما فيهن، وما بينهن، وهو جاهل بما خلق.

إن فعل الشيء وخلقه وإيجاده يستلزم أن يكون ذلك الفاعل عالماً بما هو مقدم عليه وبما يؤول إليه أمره، وينتهي إليه وإلاّ كان جاهلاً بحقيقته، وما تتطلبه تلك الذات من الحيثيات والمقتضيات وحاشاه من ذلك لأن جهله بذلك إثبات للنقص، وهو عليه محال ـ وفي نفس الوقت ـ منزّه عنه.

على أن المعنيين بالبحث من العلماء عن ذاته المقدسة وصفاته، يقررون، أن صفاته جلت عظمته هي عين ذاته قديمة كقدمه، ومعنى كون علمه قديم، هو أنه محيط بالأشياء كلها، وإلاّ فلو جاز أن يكون في وقت ليس بعالم فمعناه أن تكون صفة من الصفات حادثة له، وقد أثبتوا أن هذا محال بالنسبة إليه لاستلزام كل ذلك ثبوت النقص له، وهو منزّه عنه.

مضافاً، إلى أن القول بحدوث العلم له يستلزم أيضاً أن يواجه مشكلة أخرى تلك هي:

البحث عمن منحه العلم بعد وجوده وكيفية عروض هذه الصفة عليه، وهذا أيضاً لا مجال للقول به لاستلزام الاقتصار إلى مثل هذه الذات التي تمنحه العلم والمعرفة، وقد ثبت استغناؤه عن كل أحد، وفي كل وقت.

المرحلة الثانية: وأما البحث عن متعلق علمه وأنه عالم بالأشياء بعد وجودها أو قبل الوجود أيضاً إضافة إلى ما بعد الوجود والخلق؟

فالفقرة من الدعاء تقرر التعميم والشمول لأن لفظ (كان) في هذه الفقرة تامة وليست بناقصة تحتاج إلى الخبر بل المقصود منها الكائن المرادف للموجود الذي هو أعم من الماضي والحال والمستقبل، ويكون التقدير لهذه الفقرة:

يا من هو عالم بالموجود في جميع مراحله الماضية والحالية والاستقبالية، ويعبر عن ذلك بغض النظر عن الزمان لأن الأفعال عندما تنسب إليه يستحيل إضافتها إلى زمان محدد لانسلاخ الزمان بالنسبة إليه.

يقول الشيخ المجلسي(تتئ): (الكون المستعمل ههنا تام أي تعلق علمه بما وجد في الخارج قبل أن يوجد فيه، وذلك لأن لجميع الأشياء صوراً علمية أزلية في ذات الحق وتسمى تلك الصور أعياناً ثابتة وشؤوناً إلهية، وهي التي سماها الحكماء بالماهيات وتخرج من مكمن الغيب العلمي إلى مشهد الشهادة العينية تدريجاً على حسب استعداداتها)[(١)].

وقد أوضح الإمام أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) هذه النقطة، وشرح كيفية علمه سبحانه بالأشياء قبل الوجود في حديثه مع أبي بصير الذي نقل عنه قائلاً:

سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: «لم يزل الله ربنا عز وجل، والعلم ذاته، ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته، ولا مبصر، والقدرة ذاته، ولا مقدور. فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم والسمع على المسموع والبصر على المبصر والقدرة على المقدور»[(٢)].

ومعنى قوله (عليه السلام): (والعلم ذاته) أنه عالم قبل أن يخلق الأشياء ويوجدها (فلما أحدث الأشياء) أي خلقها، وهو المعبر عنه بقوله:«وكان المعلوم» أي أوجد ما كان عالماً به قبل وجوده فكانت النتيجة:

أن العلم منه على ما كان معلوماً له قبل الخلق.

---

(١) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٩١، ٢٥١، في سند دعاء الصباح وشرح بعض لغاته.

(٢) الشيخ الكليني: الكافي/ ١، ١٠٧.

وبتعبير آخر، بخلقه حقق مصاديق علمه، أو فقل ما تعلق به علمه سابقاً.

وإذاً، فعلمه لم يتغير هو نفسه قبل خلق الأشياء، وبعدها، بل المتغير هو المعلوم فهو قبل الخلق معلوم على نحو المغيب، وبعد الخلق على نحو التحقق في الوجود الخارجي.

ولو قلنا: إن المتغير هو العلم لأن علمه بها حدث عند الخلق والايجاد وما هو قبل الخلق علم آخر غير هذا لكان معناه أنه سبحانه لم يكن عالماً بما يخلق قبل إفاضة الوجود عليه، وهل يمكن لعاقل أن يقوم بعملٍ ولم يعلم أنه ماذا يعمل وعلى أي شيء يقوم فضلاً عن الله الخالق لهذا الكون والمدبر له ولمن فيه؟

إن هذه النقطة، وهي نوعية علمه قبل الوجود للأشياء وبعده وعدم اختلافها يؤكد عليها أهل البيت في أكثر من مورد، لذلك نرى الإمام أبا الحسن (عليه السلام) يصرح بعدم الفرق في جواب سؤاله لأيوب بن نوح عندما سأله عن الله عز وجل قائلاً: «أكان يعلم الأشياء قبل أن خلق الأشياء وكوّنها أو لم يعلم ذلك حتى خلقها وأراد خلقها وتكوينها فعلم ما خلق عندما خلق، وما كوّن عندما كوّن؟».

سؤال دقيق يريد السائل أن يقف من وراء توجيهه على حقيقة الأمر لتتضح له عظمة الله وقدرته ومدى علمه بالأمور، لذلك شقق الموضوع على هذا النحو من الضبط.

ويأتي جواب الإمام (عليه السلام) يكشف الحقيقة كما حدّث عن ذلك السائل بقوله:

فوقّع بخطه: (لم يزل الله عالماً بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء كعلمه بالأشياء بعدما خلق الأشياء) [١].

فالعلم هو العلم غير متغير، ولكن المعلوم يختلف علم بالشيء قبل إفاضة الوجود عليه وبالشيء بعد إفاضة الوجود عليه.

---

(١) الكافي: ١، ١٠٧.

١١ - (يا مَنْ أرقَدَني في مِهادِ أمنِهِ وأمانِهِ).

١٢ - (وأيقَظَني إلى ما مَنَحني بهِ مِن مِنَنِه وَإحسانِهِ).

١٣ - (وَكَفَّ أكُفَّ السُّوءِ عَنّي بيَدِهِ وَسُلطانِهِ).

بهذه الفقرات الثلاثة تبدأ المرحلة الثالثة من المقطع الأول من الدعاء، وفيها شرع (صلوات الله عليه) بتمجيد الله، وتعظيمه، ولكن ببيان آخر غير ما مر من التمجيد، والتعظيم من ذكر صفاته الثبوتية أو السلبية الدالة على عظمته.

في هذه المرحلة تعرض الإمام (عليه السلام) لبيان نعم الله على عباده بقسميها:

أولاً: النعم التي تتجسد بما ينتفع بها الداعي.

ثانياً: النعم التي بها يدفع الضرر عنه.

وتتضمن الفقرتان الأولى، وهي قوله: «يا من أرقدني... الخ»، والثانية، وهي قوله: «وأيقظني... الخ»، القسم الأول، وهي النعم التي تتجسد بما ينتفع بها الداعي أما الفقرة الثالثة، وهي قوله «وكف أكف... الخ» فإنها تضمنت بيان نعمة الله على عباده بدفع الضرر عنهم، وهي القسم الثاني.

ومع هذه الفقرات:

(يا من أرقدني في مهاد أمنه وأمانه).

رقد: قوله تعالى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا﴾ [1] أي من منامنا هذا الذي كنا فيه نياما... يقال: رقد يرقد رقداً ورقوداً ورقاداً: نام ليلاً كان أو نهاراً [2]. وأرقدت الأم ولدها أنامته.

---

(١) سورة يس: الآية، ٥٢.

(٢)الشيخ الطريحي: مجمع البحرين/ مادة (رقد).

أما المهاد: قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [(١)] بكسر الميم أي فراشاً. والمهاد: الفراش [(٢)].

ولا حاجة لتوضيح الأمن والأمان لوضوحهما.

وبدأ الإمام (عليه السلام) بهذه الفقرات يذكر نعم الله تعالى، وبدأها بذكر هذه النعمة وهي (نعمة النوم) حيث قدّر الله لهذا البدن المتعب أن يهدأ أو يطمئن فينام هادئاً مطمئناً.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [(٣)].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [(٤)].

وفي التعبير بقوله (عليه السلام) (أرقدني في أمنه وأمانه) تتجلى روعة التصوير لمنظر مألوف لنا نشاهده في حياتنا اليومية، وهو منظر المهد تنوّم الأم رضيعها فيه تهدهده وترقبه بعينين أثقلهما النعاس، وأتعبهما السهر تنتظر إغفاءة الطفل لتأخذ هي قسطاً من النوم، فتشعر براحة ولو لبعض الوقت،ولكنها وقبل أن تستسلم إلى النوم تلقي بنظرات حالمة على رضيعها، وهو يغط في نوم هادئ لذيذ.

من هذا المنظر المألوف، انتقل الدعاء إلى بيان لطف الله، وعطفه على عبده حيث مَنّ عليه بهذه الحالة فأنامه مطمئناً هادئاً يحلم بالراحة والهدوء ليلقي من منكبيه أعباء يومٍ ثقيل مرّ عليه.

الله الذي أرقد عبده في راحة واطمئنان خلق له الليل والنهار ليسكن فيه ولم

---

(١) سورة النبأ: الآية، ٦.

(٢) المصدر المتقدم: مادة (مهد).

(٣) سورة يونس: الآية، ٦٧.

(٤) سورة الروم: الآية، ٢٣.

ينظر إلى مساوئ هذا العبد فلم يحاسبه على ما صدر منه في يومه، بل تفضل عليه بهذه النعمة، وبهذه الرقدة اللذيذة ليستعيد بها ما صرفه من طاقات في ذلك اليوم.

والنوم كما عده الإمام (عليه السلام) ـ وكما بينا ـ راحة للبدن، وهو نعمة من نعم الله سبحانه على الإنسان بل والحيوان أيضاً ولا يختلف في هذا أي إنسان، وقد لا يحتاج إلى شرح وتدقيق، ولكن مع كل ذلك لابد لنا من التعرض لمعرفة حقيقته من ثنايا الموسوعات الطبية لنقف على حقيقته.

النوم: ما هو؟

تقول الموسوعات الطبية: لم تعرف طبيعة النوم على الرغم من بحوث العلماء وتجاربهم، وقد وضعت النظريات الكثيرة لمحاولة حل هذا اللغز المعقد. ومع كثرة النظريات التي وضعت لتفسير النوم فلم تثبت إحداها بصورة قاطعة.

وأقدم هذه النظريات جميعاً النظرية الإغريقية التي تقول: «إن سبب النوم هو قلّة الامداد الدموي للمخ».

ومن أحدثها نظرية العالم الروسي الشهير (بافلوف) وهي: (إن النوم نوع من الأفعال المنعكسة المشروطة). وتبعاً لهذه النظرية يتعلم المخ كيف يستجيب لبعض التنبيهات بالنشاط واليقظة، ولبعضها الآخر بالهدوء، والنوم.

وتقول نظرية أخرى: «بأن النوم نتيجة تراكم نفايات كيميائية في مدة اليقظة تؤثر في المراكز العصبية العليا».

ويمكن أن يعزى النوم، إلى نشاط المراكز العصبية تحت المهارية، وهي جزء من الدماغ يؤدي تنبيهه إلى النوم.

تأثير النوم في الجسم:

في أثناء النوم تهبط كل عمليات الجسم لتأخذ الأنسجة والأعضاء قسطها من الراحة بعد نشاطها في اليقظة.

والنوم حيوي بالنسبة إلى الدماغ بصفة خاصة، ولقد أثبتت التجارب أن اضطراب النوم يؤثر تأثيراً شديداً في القوى العقلية، وإن كان أثره ضئيلاً في الجسم.

والأرق المستمر مدة ٣٠ ـ ٦٠ ساعة يسبب إهياج، وفقد الذاكرة والاهتلاس وبعض أعراض الفصام.

مدة النوم:

تختلف مدة النوم الضرورية إلى الاشخاص تبعاً لأعمارهم.

ففي الوليد تبلغ نحواً من ٢٠ ساعة كل يوم.

أما الأطفال: فبين السنة ١ ـ ٤ يحتاجون إلى النوم بمعدل ١٢ ساعة في اليوم، أما من كان بين السنة الرابعة إلى الإثنتي عشرة سنة تكفيهم عشرة ساعات يومياً.

أما المراهقون: فحاجتهم إلى النوم ٨ ـ ١٠ ساعات.

وأما الراشدون: فيحتاجون من ٦ ـ ٩ ساعات ومتوسط النوم لهؤلاء هو ٨ ساعات.

أما المرهقون، والمتعبون، والمرضى فيحتاجون إلى زيادة ساعات النوم.

ويعتقد الكثيرون: أن الحاجة إلى النوم تقل مع تقدم السن، وأن الشيوخ يحتاجون إلى ما بين خمس ساعات، أو سبعٍ يومياً فقط.

وإن كان البعض يرى أن هذا اعتقاد خاطئ لما ثبت أن الكبار المتقدمين في السن بحاجة إلى ٨ ساعات، أو ما يزيد عليها، وأن ذلك يمدهم بالصحة والعافية[1].

---

(١) لاحظ فيما ذكرناه فيما يتعلق بموضوع النوم الموسوعة الطبية الحديثة: ١٣، ٨٧١ ـ ٨٧٣.

١٢. (وأيقَظَني إلى ما مَنَحني بهِ مِن مِنَنِه وَإحسانِهِ).

اليقظة: أيقظت الرجل من نومه: أي نبهته فتيقظ واستيقظ، فهو يقظان، والاسم: اليقظة [١]. وأيقظ فلان فلاناً نبهه عن سنة الغفلة.

أما المنحة: المنح: العطاء. يقال: منحته منحاً من باب نفع وضرب، أي أعطيته، والاسم المنحة بالكسر، وهي العطية [٢].

والمنن: النعم [٣]، ومَنَّ زيدُ على عمر وأنعم عليه بلا تعب، ولا نصب.

وقد علمنا من الفقرة السابقة، أن الدعاء عند النوم نعمة من الله على عبده حيث يسّر له هذا الهدوء، وهذه الراحة البدنية، ولكن هذه النعمة لا تكتمل إلاّ بنعمة أخرى، وهي تنبيهه من هذه الرقدة، وإرجاعه إلى هذه الحياة ليستقبل صباحاً جديداً يتقبل فيه ما منحه الله به من نعمه المتواصلة التي تحيط به، وما خصه به من رزق، وسلامة.

وكما قلنا: إن النوم نعمة من الله على العباد، فكذلك اليقظة أيضاً نعمة إذ لو قدر لهذا البدن أن يبقى في حالة نوم مستمر لا تتعقبه يقظة، وصحوة فهو في الحقيقة إذاً ميت، وليس بكائن حي.

وعليه فأين نعمة الحياة، وأين الحركة، وما يتولد منها ما تتطلبه الحياة الاجتماعية؟.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [٤].

وبناءاً على هذا فلابد أن تسير الحياة على النحو التالي:

---

(١) الشيخ الطريحي: مجمع البحرين/ مادة (يقظ).

(٢) المصدر المتقدم: مادة (منح).

(٣) المصدر المتقدم: مادة (منن).

(٤) سورة القصص: الآية، ٧١.

سكون في الليل، ونشاط في النهار.

ونوم في الليل، ويقظة في النهار.

وفي كلتا الحالتين نعم الله متواصلة على عبده.

١٣ـ (وَكَفَّ أكُفَّ السُّوءِ عَنِّي بيَدِهِ وَسُلطانِهِ).

الكف: المنع. وكفه عن الشيء أي منعه، وصرفه عنه.

والأكف: جمع كف، وهي اليد.

والسوء: ما يغم الإنسان، ويحزنه.

وأما يد الله، وسلطانه: فهما مقدرته، وتسلطه على كل شيء.

وأما التعبير (بأكف السوء)، وإثبات أن للحوادث المحزنة أكُفاً فهو تعبير أدبي شائع استعمله الكتاب، والشعراء من القديم، ومن أمثلته في الشعر ما قاله الشاعر:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمةٍ لا تنفع

وقد أثبت الشاعر هنا أن للمنية أظفار أنشبتها في جسد الإنسان، وهو تعبير يجسد الموضوع كاملاً.

أما ما يريد الدعاء بيانه عبر هذه الفقرة من التمجيد لله، وتعظيمه فهو:

إن الإمام (عليه السلام) بعد أن عدد نعم الله عليه بما يجلب له النفع في كل الأوقات التي تحيط به في نومه ويقظته، ذكر نعمة أخرى متممة لهذه النعم تلك هي دفع الضرر عنه بمنع كل سوءٍ يصل إليه إذ لا فائدة في ليل يهدأ الإنسان فيه ونهار ينشط فيه لعمله، والمكاره تحيط به، وتلاحقه.

وبتعبير آخر كما يهيء الله لعباده ما يجلب لهم النفع كذلك تقتضي حكمته أن يهيء لهم ما يدفع عنهم الضرر ليحصل التوازن في هذه الحياة.

إن الله رؤوف بعباده ورحيم بهم يرعى كل فردٍ منهم من اللحظات الأولى من مسيرته الحياتية وتستمر رعايته له إلى نهايته المحتومة، وانتهاء أجله المكتوب له

وحاشا لمن كانت هذه مسيرته، وهذه رعايته أن يقرر لمن يرعاه نفعاً لكنه لا يدفع عنه أضرار هذه الحياة.

إن هذا المفهوم خاطئ قد يعتقده البعض فيقول بالتفكيك بين جلب المنفعة ودفع الضرر، بل على العكس فإن الإمام الحسين (عليه السلام) يؤكد لنا أن رعاية الله لعبده لا يفرق فيها جلب المنفعة له، أو دفع الضرر عنه.

يقول: (صلوات الله عليه) في دعائه في يوم عرفة بعد أن عدد نعم الله عليه من أول لحظة من حياته، بل ومن قبل أن يكون الوليد نطفة. «ثم ما صرفت، وذرأت عني، اللهم من الضر، الضراء أكثر مما ظهر لي من العافية، والسراء»[١].

على أن دفع الضرر أيضاً من النفع، وهو لطف، ورحمة، وعطف منه سبحانه على المخلوقين لأنه يريد لهم الخير، والسعادة في هذه الحياة ما لم يريدوا لأنفسهم الشر، والسوء.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢].

ولماذا يغير ما بقومٍ من نعمة إذا لم يغيروا هم ما بأنفسهم؟.

ولماذا يرجع الله سبحانه عن لطف منحهم به، ويضيق عليهم معايشهم، ويغلق أبواباً من الرحمة فتحها عليهم؟.

والجواب: أنه أجل وأرفع من أن يعمل عملاً فيه مصالح العباد، ويتراجع عنه.

نعم: لو اختلفوا، وغيروا السلوكية الخيّرة التي سنها لهم ضمن القوانين التي جاءت بها الشريعة فحينئذٍ له أن يغير هو أيضاً سلوكيته معهم وله الحق في ذلك لأن من فعل المخالفة بسوء تدبيره فلابد من أن يتحمل تبعات ما أقدم عليه.

ومع ذلك، فإن لطفه شامل، وحتى في هذه الحالة نرى القرآن الكريم لا يرفع

---

(١) مقاطع من دعاء الحسين (عليه السلام) في يوم عرفة.

(٢) سورة الأنفال: الآية، ٥٣.

الجسور الممدودة بين العبد وربه بل يضعها على ما عليه ليفسح المجال أمام من عصى لعله يعود، وحينئذٍ يجد من ربه صدراً رحباً يتلقاه به، ويغفر له، وهو يقول:

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾[1]. وقال تعالى:

﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾[3].

وهكذا تتوالى الآيات الكريمة، وهي تصرح بأن الله غفور رحيم يتوب على من عاد إلى حظيرة الإيمان ولو كان بعد غياب طويل.

المقطع الثاني:

١ - صَلِّ اللَّهُمَ على الدَّليلِ إليكَ في الليلِ الأليَلِ.

٢ - والماسِكِ من أسبابِكَ بِحبْلِ الشَّرفِ الأطوَلِ.

٣ - والنَّاصعِ الحَسَبِ في ذِروةِ الكاهِلِ الأعْبَلِ.

٤ - والثابِتِ القَدَمِ على زَحاليفِها في الزَّمَنِ الأوَّلِ.

٥ - وَعلى آلهِ الأخيارِ المصطفينَ الأبرارِ.

سبق لنا أن بينا في افتتاح البحث أن للدعاء آداباً، ولاستجابته شروطاً وقلنا: إن من آدابه أن يفتتح الداعي دعاءه بتمجيد الله، والثناء عليه لضمان إجابة دعائه.

وكما أن أدب الدعاء يقضي بذلك، فكذلك الأخبار الكريمة جاءت عن

---

(١) سورة طه: الآية، ٨٢.

(٢) سورة الأنعام: الآية، ٥٤.

(٣) سورة الفرقان: الآية، ٧٠.

النبي الأكرم (ﷺ)، وعن أهل بيته الميامين (عليهم السلام) تضيف شرطاً آخر لضمان استجابة الدعاء، وهو ذكر النبي بالتمجيد، والتعظيم، والصلاة عليه، وعلى آله. ومن ثم، وبعد تقديم الداعي هاتين المقدمتين ينطلق في دعائه يطلب من ربه ما يريد من جلب النفع، ودفع الضرر على الصعيدين: الدنيوي، والأخروي، وقد خصص الإمام(عليه السلام) في افتتاح الدعاء المقطع الأول لتمجيد الله، وتعظيمه.

أما المقطع الثاني، فقد خص الدعاء بفقراته الخمسة للثناء على النبي(ﷺ) بعد أن افتتحه بالصلاة عليه.

مع فقرات هذا المقطع في نسقها الدعائي:

لقد خص الإمام (عليه السلام) أربع فقرات من هذه الفقرات الخمسة بالثناء على النبي(ﷺ) بينما كانت الفقرة الخامسة مختصة بآله الميامين (عليهم السلام). ولذلك سيكون البحث فيما يعود لهذا المقطع:

تارة: فيما يخص النبي (ﷺ).

وأخرى: فيما يخص الآل من أهل بيته (عليهم السلام).

الثناء على النبي:

وقبل أن يردد الداعي هذه الفقرات الدعائية ليشترك مع أمير المؤمنين (عليه السلام) في تمجيد النبي (ﷺ)، وتعظيمه لابد لنا من أن نوضح بعض ما يتعلق بها من جهات:

الأولى: في الصلاة معناها لغة، واصطلاحاً.

الثانية: الصلاة على النبي(ﷺ) ما يراد منها عندما تكون من الله أو من الملائكة، أو من الناس.

الثالثة: لماذا كان التقديم للصلاة على النبي(ﷺ) من أدب الدعاء، ومن موجبات ضمان استجابته.

الرابعة: فيما تعرضت له الفقرات الدعائية من الثناء على النبي(ﷺ) من ناحية جهاده، وشرفه، وحسبه.

ومن الإجمال إلى التفصيل:

١ـ معنى الصلاة

يبدأ الدعاء بقوله: (عليه السلام) (وصلِّ اللهم على الدليل إليك... الخ) وطبيعي أن المقصود به هو النبي محمد(ﷺ) **فما معنى الصلاة؟**.

الصلاة في اللغة هي: الدعاء، والرحمة، وحسن الثناء من الله على الرسول (١).

أما في اصطلاح الفقهاء فهي: عبادة تشتمل على أورادٍ خاصة، وركوع، وسجود ولها أجزاء، وشروط تعرضت لتفصيلها الموسوعات الفقهية للشريعة الإسلامية.

٢ـ الصلاة على النبي:

لقد افتتح الإمام (عليه السلام) هذا المقطع بقوله: (صلِّ اللهم على الدليل إليك)، والدليل إلى الله هو الرسول الكريم، وقد طلب الإمام من ربه أن يصلي عليه، كما وأن القرآن الكريم سبق له أن تطرق إلى هذا الموضوع فقال سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾(٢).

وقد تضمنت الآية الكريمة ذكر الصلاة من الله، ومن الملائكة، ومن الناس فما الفرق بين هذه الثلاث؟.

يقول أهل اللغة: الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن المؤمنين الدعاء.

وأضافوا أيضاً نوعاً آخر من الصلاة فقالوا:

ومن الطير، والهوام التسبيح. وفرقوا بينها، وبين الدعاء فقالوا: وهي لا تكون

---

(١) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (صلى).

(٢) سورة الأحزاب: الآية، ٥٦.

إلاّ في الخير بخلاف الدعاء فإنه يكون في الخير، والشر [1].

وأما المفسرون للآية الكريمة قالوا: إن صلاة الله على نبيه ثناؤه عليه، وصلاة الملائكة الدعاء له، وصلاة الناس الاستغفار له.

وقد سأل أحد الرواة الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) عن هذه الآية فقال: جعلت فداك كيف صلاة الله على رسوله؟ فقال (عليه السلام): يا أبا محمد تزكيته له في السماوات العلى [2].

إنه شرف عظيم للنبي الأكرم، ومنزلة رفيعة أن يثني عليه الله في السماوات العلى عند الملائكة، ويخصه بالرحمة، ويأمر ملائكته أن يستغفروا له، وهكذا الناس يدعون لنبيهم، ويستغفرون له بأمر من الله سبحانه، وتوجيه منه.

جنبات الكون بسماواته وأرضيته كلها تشترك في هذه التظاهرة الثنائية على نبي الرحمة تمجده، وتعظمه، وتدعو له بالمغفرة بدءاً بالله، وملائكته انتهاءً بالمؤمنين.

وهل فوق هذا تكريم؟.

٣ ـ الصلاة على النبي ضمان لإجابة الدعاء:

ولماذا هذا التقيد في الالتزام بالصلاة على النبي في مقدمة الدعاء أو في نهايته، وجعل الحاجة التي تطلب من الله في الوسط، وبين الصلاتين؟.

ويأتي الجواب واضحاً من خلال الأحاديث التالية:

يقول ابن حجر الهيثمي نقلاً عن الديلمي: إنه(صلى الله عليه وآله) قال: (الدعاء محجوب حتى يصلى على محمد، وأهل بيته اللهم صلِّ على محمد وآله) [3].

وقد جاء في تاريخ إربل ما يلي: (ما دعاء إلاّ بينه وبين الله حجاب حتى يصلى على محمد، وآل محمد، فإذا صلّى على النبي انخرق ذلك الحجاب، واستجيب الدعاء،

---

(١) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (صلّى).

(٢) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية.

(٣) ابن حجر: الصواعق المحرقة/ الفصل الأول في الآيات الواردة في أهل البيت، ١٤٨، الطبعة الثانية.

وإذا لم يصل على النبي لم يستجب الدعاء)[١].

وقد جاء عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: «إذا دعا أحدكم فليبدأ بالصلاة على النبي (صلى الله عليه وآله) فإن الصلاة على النبي مقبولة، ولم يكن الله ليقبل بعض الدعاء، ويرد بعضاً» [٢].

ويسمى هذا في عرف الفقهاء «تبعض الصفقة» فإن الله سبحانه لا يخلو حاله مع عبده الداعي في مثل هذه الحالة يقدم فيها الصلاة على النبي قبل طلبته من:

١ - رد الكل، وعدم الاستجابة لا الصلاة على النبي، ولا الطلب.

٢ - تبعض الصفقة وقبول الصلاة على النبي دون طلب الداعي.

٣ - قبولهما معاً أي قبول الصفقة بأجمعها.

أما الأول: فغير معقول لأنه سبحانه أمر عباده بطلب الرحمة لنبيه، وأجزل الثواب لمن يصلي عليه، والأخبار في هذا الباب كثيرة رواها الفريقان فكيف يرد طلباً تضمن في صدره مثل هذه الصلاة؟.

وأما الثاني: فبعيد ـ على مَنِ الكرمُ من صفةِ أفعاله، والكريم من أجل أسمائه ـ أن يبعض صفقة الداعي، فيقبل بعض دعائه، ويرد البعض الآخر.

أليس هو الذي وصف نفسه بالكرم عندما عاتب الإنسان على تقصيره، وتجاوزه فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [٣].

(... وقال يحيى بن معاذ: لو أقامني الله بين يديه فقال: ما غرك بي. قلت: غرني بك برك بي سالفاً وآنفاً. وعن بعضهم قال: غرني حلمك. وعن أبي بكر الوراق:

---

(١) تاريخ إربل/ ١، ٢٣٩.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٤، ١١٣٨، باب استحباب الصلاة على محمد...، تحقيق وتصحيح وتذييل: الشيخ عبد الرحيم الرباني الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان..

(٣) سورة الانفطار: الآية، ٦.

غرني كرم الكريم) [١].

وبانتفاء هذين الشقين يتعين الشق الثالث، وهو:

قبوله لكل ما دعا به الداعي من الصلاة، والطلب، وهو المطلوب.

٤ ـ صفات النبي وتعظيمه بذكرها:

١ـ صلِّ اللهم على الدليل إليك في الليل الأليل.

٢ـ والماسك من أسبابك بحبل الشرف الأطول.

٣ـ والناصع الحسب في ذروة الكاهل الأعبل.

٤ـ والثابت القدم على زحاليفها في الزمن الأول.

فقرات دعائية تعرضت لصفات النبي(ﷺ) ، ولابد لنا من أن نشرح مفرداتها قبل بيانها من حيث التفصيل.

الدليل: ما يستدل به وأيضاً الدال، وقيل: هو المرشد، وما به الإرشاد [٢]، ومنه الدليل عند الملاحين الذي يرشد السفن في مسيرتها.

والليل الأليل: ليل شديد الظلمة، ويستعمل في المبالغة كما يقال: ظل ظليل: أي مكثف.

وفي الفقرة الثانية: فإن السبب في الأصل هو الحبل يتوصل له إلى الماء ثم استعير لكل ما يتوصل به إلى المطلوب من القدرة، والعلم، والألةِ، وغيرها.

أما في الفقرة الثالثة: فإن الناصع: هو الخالص من كل شيء والأمر الواضح، والشديد البياض، كل ذلك ناصع.

وأما الحسب: فهو ما يعده الإنسان من مفاخر آبائه، وأجداده.

والكاهل: هو الأعلى من كل شيء، وأعلى سنام البعير ذروته.

---

(١) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٧، ٩٤.

(٢) الزبيدي: تاج العروس/ مادة (دلل).

والكاهل: هو مقدم الظهر مما يلي العنق.

وتستعمله العرب كناية فيمن تعتمد عليه ومنه قوله(ﷺ): (هل في أهلك من كاهل؟) [١] أي من تعتمد عليه للقيام بشأن عيالك.

أما الأعبل: فهو الضخم من كل شيء.

وأما الفقرة الرابعة: فإن الزحاليف جمع زحلوفة، وهي المكان المنحدر يتزحلقون عليه [٢].

هذا من ناحية تفسير المفردات اللغوية لهذه الجمل، وأما ما يراد منها حيث يرددها الداعي، فإن هذه الفقرات مرتبطة فيما بينها لأنها تشكل مجموعة بيان بعض صفات النبي(ﷺ) التي تؤهله للمدح والثناء عليه. وهي على قسمين:

تناولت الفقرة الأولى، والثانية، والرابعة بيان صفاته الشخصية.

وخص الدعاء الفقرة الثالثة لبيان صفةٍ من صفاته العرقية الوراثية.

فمن الأول: ما جاء في قوله (عليه السلام).

١ـ (صَلِّ اللَّهُمَ على الدَّليلِ إليكَ في الليلِ الأليَلِ).

وتمثل هذه الجملة جهاده(ﷺ) في الظروف، والفترات المظلمة التي مرت بها الدعوة الإسلامية، وما لقي فيها من مشاق لم يتحملها قبله أي نبي ولا رسول. وقد كنى الدعاء عن هذه الفترة بالليلة المظلمة وطبيعي انه(ﷺ) كان علماً يدلهم على الله، ويدعو إليه، ويرشدهم إلى سننه، وأحكامه.

يقول القرآن الكريم في مقام إعطائه صورة حية عن تقليد النبي، هذا الشرف العظيم ـ كونه يبلغ رسالة السماء إلى الأرض ـ وما يلزم أن يقوم به في تلك الأدوار، وهو يواجه تلك الحشود الهائلة من جيوش الغي والضلال.

---

(١) جار الله الزمخشري: الفايق في غريب الحديث/ ١٧٨، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٢) لاحظ الشرتوني: أقرب الموارد/ مواد الكلمات المذكورة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[1].

إنا أرسلناك: فهو رسول السماء إلى الأرض يبلغ أحكامها إلى الناس كافة.

شاهداً: وذلك من مستلزمات الرسول أن يكون شاهداً على الخلق يراقب أعمالهم في امتثال أوامره، ونواهيه لأنه القوة التشريعية والتنفيذية ـ وفي الوقت نفسه ـ يشهد لهم، وعليهم يوم القيامة بما فعلوه في هذه الدنيا من خيرٍ، أو شرٍ.

ومبشراً، ونذيراً: ففي الوقت الذي يبشر الناس بما عند الله من رحمة، وعطف، وتوفيق، وسعة رزق ينذرهم بيوم الحساب، وأن النار موعدهم لو لم يمتثلوا ما فرض عليهم، ولم ينتهوا عما نهوا عنه.

نذير وبشير بالخط الذي ترسمه الشريعة الإسلامية للبشر كافة فمن سار على الدرب وصل، ومن انحرف ضل، وهوى.

وداعياً إلى الله بإذنه: وهذا هو وسام الرسالة المقدسة فهو ليس كأحد المؤمنين يقوم بكل ذلك تبرعاً، بل هو رسول من الله، وبعلمٍ منه وإذن فيما يتصرف به من تبليغ الأحكام، والدعوة إلى توحيده، ونبذ ما كانوا يعبدون من أصنام وأوثان.

وبعد كل هذا:

وسراجاً منيراً: ليهتدي به المضللون الذين يتخبطون في الغي ويصرون على اتباع من سلف منهم من المشركين، والمنحرفين عن الله سبحانه، فهو عَلَمٌ يهتدي به من يشاء أن يخرج من الظلمات إلى النور، وينير لهم طريق الحياة ليوصلهم إلى مرفأ السلامة الأبدية، والسعادة في الدارين.

من هذا العرض للآية الكريمة، ينطلق أمير المؤمنين (عليه السلام) ليقول عن النبي (صلى الله عليه وآله) إنه الدليل، والمرشد إلى الله.

ومن التعبير بأنه السراج المنير ينطلق (صلوات الله عليه) ليقول عن الأدوار

---

(١) سورة الأحزاب: الآيتان، ٤٥ – ٤٦.

التي عاش فيها(ﷺ) بأنها شديدة الظلمة جهلاً، وغياً كظلمة الليل الأليل إذ لو لم تكن مظلمة ولو لم يكن ضلال لما قال القرآن عنه: إنه سراج منير، وهل ينير الضياء في وضح النهار؟.

تلك الأدوار، وتلك الأجواء يعطي عنها أمير المؤمنين (عليه السلام) صوراً واضحة في أكثر من خطبةٍ من خطبه التي جاءت في نهج البلاغة حيث قال (صلوات الله عليه)، (إن الله قد بعث محمداً (ﷺ) نذيراً للعالمين، وأميناً على التنزيل. وأنتم معشر العرب على شر دين وفي شر دار منتخون بين حجارة خشن، وحيات صم، تشربون الكدر، وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة)[1].

ويقول في خطبةٍ أخرى، (أرسله على حين فترة من الرسل، وطول هجعةٍ من الأمم، واعتزامٍ من الفتن، وانتشارٍ من الأمور، وتلظٍ من الحروب، والدنيا كاسفة النور ظاهرة الغرور على حين اصفرارٍ من ورقها، وإياس من ثمرها، واغورارٍ من مائها، قد دُرِست منارُ الهدى، وظهرت أعلام الردى. فهي متجهمة لأهلها، عابسة في وجه طالبها. ثمرها الفتنة، وطعامها الجيفة، وشعارها الخوف، ودثارها السيف)[2].

وهكذا نرى أمير المؤمنين (عليه السلام) يعرض صوراً من الماضي فيحدث عن تلك الفترة المظلمة، وما بذله(ﷺ) في سبيل الأمة لإسعادها يقول (صلوات الله عليه): (بعثه، والناس ضُلال في حيرةٍ، وخابطون في فتنةٍ، قد استهوتهم الأهواء، واستزلتهم الكبرياء، واستخفتهم الجاهلية الجهلاء. حيارى في زلزالٍ من الأمر، وبلاءٍ من الجهل. فبالغ(ﷺ) في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة)[3].

---

(١) نهج البلاغة: ١، ٦٦، تحقيق: الشيخ محمد عبده، الناشر: دار الذخائر ـ قم المقدسة.

(٢) المصدر المتقدم: ١، ١٥٦.

(٣) المصدر السابق: ١، ١٨٦.

وسط هذه العواصف، وهذا الجهل العام، وهذه الحالة المزرية جاء(ﷺ) ليجعلهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [1]، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، فكان بينهم كالسراج في الليلة الظلماء يسيرون على هداه، ويستضيئون بنوره، ويطبقون منهاجه القويم.

٢ - (والماسِكِ من أسبابِكَ بِجبْلِ الشّرفِ الأطْوَلِ).

وهذه صفة أخرى يمتاز بها رسول الإنسانية فهو متمسك بسبب من الأسباب التي توصله إلى الله التي تعتبر من أشرف الأسباب وأعلاها.

ولكن ما هو هذا السبب الذي اعتبره الإمام فخراً للنبي(ﷺ) وهو رسول الله إلى الناس، وأشرف الأنبياء والمرسلين، وخاتم الشرائع السماوية؟.

قيل: إن الحبل المتمسك به هو القرآن الكريم كتاب الله، وقانونه الخالد ومعجزته الكبرى، وهو الخط الموصل بينه، وبين الله سبحانه.

وقد وصفه بالأطول لأنه متطاول على بقية الكتب السماوية، والشرائع الإلهية، ولبقائه دستوراً يقارع الزمن إلى يوم يبعثون.

وقيل: إن الحبل هو الدين الإسلامي القويم الذي اختاره الله ليكون نوراً يهتدي به الناس كافة، وبه تختم الشرائع السماوية، والقوانين الإلهية. فهو(ﷺ) ماسك بهذا الشرف لأنه القيّم على تنفيذه، والمبلغ له للناس أجمعين.

وأحسب أن النتيجة واحدة على كلا التفسيرين فإن المقصود من هذه الجملة هو بيان مقام النبي (ﷺ) من حيث اتصاله بالله سبحانه، وارتباطه الوثيق به. وليكن ذلك الاتصال بواسطة القرآن الكريم، أو الدين الإسلامي فكلاهما له، وهو المبلغ للدين وللقرآن عندما ينزل به الوحي من الله العلي العظيم. على أن كلمة الحبل استعملت في كلا هذين السببين الكتاب والإسلام.

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ١١٠.

ففي الكتاب الكريم جاء قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[١].

وقد فسر حبل الله في هذه الآية بالإسلام فقد طلب القرآن من الناس أن يلتفوا حول نبيهم وما بلّغ به من الدين الإسلامي، ولا يتفرقوا فيكونوا عرضة للطامعين، والأعداء.

أما في الأخبار، فقد جاء مراراً به القرآن حيث ورد «كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض»[٢]. ومعنى مده هو نوره، وآياته، وبراهينه الساطعة، وفي خبر آخر «فإنه حبل الله المتين»[٣] ويراد به عهده وأمانته.

وقد جاء عن أبي سعيد الخدري عن النبي(ﷺ) أنه قال: (أيها الناس إني قد تركت فيكم حبلين إن اتخذتم بهما لن تضلوا بعدي أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)[٤].

وإنما شبه القرآن بالحبل لأن التمسك به سبب للنجاة.

٣ - (والنّاصعِ الحَسَبِ في ذِروةِ الكاهِلِ الأعبَلِ).

لقد تضمنت هذه الفقرة الدعائية تشبيه النبي(ﷺ) في حسبه الشريف بوصوله لأعلى مدارج الرفعة بمن جلس على سنام البعير حيث يكون علماً، ومشاراً إليه لأنه في أعلى الهرم، وكذلك حسبه(ﷺ) عالٍ ومن الوضوح بمكان لا يتمكن كل أحد من إنكاره.

ولماذا لا يكون كذلك، وهو من قريش، وهم من أعرق القبائل في الجزيرة

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ١٠٣.

(٢) الشيخ الصدوق: معاني الأخبار/ ٩، باب معنى الثقلين والعترة، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري.

(٣) نهج البلاغة: ٢، ٩٥، تحقيق: الشيخ محمد عبده.

(٤) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٣٦، ٢١.

العربية، ومن قريش يأتي بنو عبد المطلب في مقدمتهم، ولهم من المفاخر ما ليس لغيرهم، وبنو هاشم قمة الفخر، ورأس المجد طهرهم الله من الدنس، وأذهب عنهم الرجس، وأودعهم الأرحام المطهرة، وحفظهم في حجورٍ طابت، وطهرت. هذا الحسب الناصع الذي هو مجمع الصفات الحميدة من الشجاعة، والكرم، والعلم، والرئاسة القبلية، وخدمة بيت الله الحرام.

فهو(ﷺ) حصيلة وعطاء هذه الصفات الحميدة التي أنصهرت فكانت الوجه المشرف للإنسان العظيم الذي جمع بين الثبات على المبدأ، والدليل إلى الله الواحد جلت عظمته.

٤ـ (والثابِتِ القَدَم على زَحاليفِها في الزَّمَنِ الأوَّلِ).

ترتبط هذه الفقرة بالفقرة الأولى من المقطع التي جاء فيها «صلِّ اللهم على الدليل إليك في الليل الأليل»، فهو(ﷺ) مع جهاده، وما كان يلقاه من المتاعب، والمصاعب في تلك الفترات المظلمة ثابت القدم رابط الجأش قوي العزيمة في ذات الله، وجهاده لم يتزعزع، ولم يثن من عزمه ما كان يضعه قومه في طريقه من عقبات، ولم يغير الخط الذي كان يسير عليه للوصول إلى هدفه المنشود من إعلاء كلمة الحق، وتثبت كلمة لا إله إلاّ الله، ويتجنب المزالق التي تجره إلى الانحراف عن القصد، والوقوع في المنحدرات، والكمائن التي تنصب له كل ذلك ينبثق عن قوة إيمانه بدعوته، وصبره على تحقيق ما كان يصبو إليه مهما كلف الثمن، وطال الزمن حتى قال في بعض الأيام: (ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت).

وأخيراً، نبقى نحن، وهذا التناسق الدعائي الذي نراه متدرجاً في فقرات هذا المقطع، فالإمام يفتتحه بتمجيد النبي(ﷺ) بصفة شخصية تلك هي أنه منار، ومرشد إلى الله في الفترات المظلمة، ويذكر بعد ذلك صفتين له تدلان على علو رفعته، وحسبه.

الأولى: تمسكه بالشرف الأطول.

والثانية: حسبه الناصع، ومجده الأصيل، **ثم يعود ليختتم تعظيمه بثباته، وعدم**

انحداره في المزالق وهي صفة ترتبط بالفقرة الأولى؛ فيقال: إنه الدليل إلى الله في تلك الفترات - وهو في الوقت نفسه -.

الثابت القدم غير تلك الأجواء القاتمة، وبعدها يعدد صفاته العرقية من الحسب، والتمسك بالشرف الأطول.

أو يبدأ (صلوات الله عليه) ببيان صفاته العرقية من نظافة حسبه وبعدها يبين صفاته الشخصية الدالة على جهاده وثباته.

فلماذا إذاً، هذه التشكيلة من جعل صفاته العرقية وسط صفاته الشخصية؟.

ويقال في مقام الجواب، والله العالم:

إن الدعاء توخى أن يبين أن هذا الدليل، والمنار إلى الله ينطلق من مركز القوة، والاقتدار من الصفات التي يتمتع بها شخصياً، وحسباً فهو من علية القوم، ومن أشرف الناس، وله من الصفات الروحية، والأسرية ما ليس لغيره، ومع ذلك، فهو ثابت لا تأخذه المظاهر، ولا تغره المباهج الدنيوية من الفخفخة، والعظمة المزيفة، بل هو ثابت القدم راسخ الإيمان صعب الشكيمة.

٥ - (وَعلى آله الأخيارِ المصطفينَ الأبرارِ).

لقد طلب الإمام (عليه السلام) من ربه الصلاة على النبي، فبدأ المقطع بقوله: (صلِّ اللهم... الخ)، وبعد تمجيد نبيه، وتعظيمه، وطلب الرحمة له عطف آله عليه الذين وصفهم بالأخيار المصطفين الأبرار.

وبين يدي هذه الفقرة من الدعاء نقف لنقسم البحث عنها في مرحلتين:

الأولى: لماذا هذا العطف لآله في الصلاة عليه، وهل كان ذلك نتيجة رغبة منه(عليه السلام) في هذا النوع من طلب إشراك آله معه، أو لا؟

بل كان ذلك بإرشاد من النبي (صلى الله عليه وآله) نفسه في عدم الصلاة عليه منفرداً. والمعبر عنها بالصلاة البتراء، حيث يقال: (اللهم صلِّ على محمد) ويقتصر على ذلك؟.

الثانية: ومن هم الآل المقصودين بالصلاة عليهم عندما يدعو الداعي ويقول: «اللهم صلِّ على محمد وآله محمد».

الصلاة على آل النبي:

لم يتعرض القرآن الكريم إلى هذه النقطة بل غاية ما ورد فيه هو الإخبار عن أن الله، وملائكته يصلون على النبي، وطلب بعد ذلك من الذين آمنوا أن يصلوا عليه، ويسلموا تسليماً جاء ذلك في الآية الكريمة التي قال فيها سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[1].

ولكن الأخبار تطرقت لبيان هذه الجهة فأوضحت بأن ذلك بطلب من النبي (ﷺ).

قال السيوطي في كتابه: (الدر المنثور) في تفسيره لقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ ... إلخ ﴾ (أخرج أبو سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم وابن مردويه عن كعب بن عجرة قال: لما نزلت آية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ ... إلخ ﴾، قلنا: يا رسول الله قد علمنا السلام عليك، فعلّمنا كيف الصلاة عليك؟ فقال: قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى ، آل محمد كما صليت على إبراهيم، وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد، وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم، وآل إبراهيم إنك حميد مجيد)، ونقل مثل ذلك الكثير.

وقال ابن حجر في صواعقه المحرقة في الصفحة ١٤٦ عند تطرقه إلى الآيات الواردة في أهل البيت (ويروى عن النبي(ﷺ) أنه قال: لا تصلوا عليّ الصلاة البتراء فقالوا: وما الصلاة البتراء؟. قال: تقولون: اللهم صلِّ على محمد وتمسكوا، بل قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد).

---

(١) سورة الأحزاب: الآية، ٥٦.

كما وقد نقل عن الديلمي انه(ﷺ) قال: (الدعاء محجوب حتى يصلي على محمد، وأهل بيته. اللهم صلِّ على محمد وآله) [(١)].

وجاء عن الإمام محمد الباقر عن آبائه (عليهم السلام) عن رسول الله(ﷺ) أنه قال: من صلّى عليّ، ولم يصلِّ على آلي لم يجد ريح الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام) [(٢)].

من هم آل النبي:

سؤال يطرح نفسه وينتظر الإجابة نظراً لأهمية الصلاة على النبي(ﷺ) لما جاء في كثير من الأخبار بأن من قالها له الثواب الجزيل، ويتضاعف هذا الثواب بتكرارها، والمواظبة عليها.

مضافاً إلى وجوبها بهذا النص في التشهد عند بعض المذاهب، وعند البعض الآخر يؤتى بها، ولكن لو تركها لا تبطل الصلاة بتركها.

أما الأقوال في تفسير الآل، وتحديدهم فهي عديدة، وقد وقع الخلاف بين المذاهب في ذلك، ومنشأ هذا الخلاف هو اختلاف الآراء في مصداق عنوان (أهل البيت) الوارد في الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [(٣)].

وللوقوف على حقيقة هذا الموضوع علينا أن نبحث هذه المصداقية في نظر المذاهب الإسلامية غير الإمامية، ومن ثم ملاحظة هذه المصداقية في نظر الإمامية.

---

(١) القندوزي: ينابيع المودة، لذوي القربى/ ٢، ٤٣٤، تحقيق: سيد علي جمال أشرف الحسيني، الناشر: دار الأسوة للطباعة والنشر.

(٢) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٨، ١٨٦..

(٣) سورة الأحزاب: الآية، ٣٣.

أهل البيت في نظر غير الإمامية من المذاهب:

ولهم في تحديد هذا العنوان وتعيين المصداقية له أقوال عديدة:

القول الأول: إن الآل هم أتباع الرجل على دينه، قال بذلك فقيه الحنابلة ابن قدامة في كتابه المغني في قوله: (فصل: آل النبي (ﷺ) أتباعه على دينه كما قال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ يعني أتباعه من أهل دينه، وقد جاء عن النبي (ﷺ) أنه سأل من آل محمد؟ فقال: كل تقي. ثم قال: وقيل: آله أهله [١].

القول الثاني: إن الآل هم بعض أرحام النبي (ﷺ) فقد نقل السيوطي (عن زيد ابن أرقم أن رسول الله (ﷺ) قال: أذكركم الله في أهل بيتي، فقيل لزيد (رضي الله عنه) ومن أهل بيته أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده: آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس) [٢].

القول الثالث: الآل هم زوجات النبي (ﷺ) وذريته. ذكر ذلك ابن قدامة أيضاً فقد نقل «عن أبي حميد أن رسول الله (ﷺ) قال: قولوا: اللهم صلِّ على محمد، وعلى زوجاته، وذريته» [٣].

القول الرابع: إن الآل هم زوجات النبي فقط نقل ذلك عن عكرمة فقد قال: (من شاء باهلته أنها نزلت في أزواج النبي (ﷺ)) [٤].

القول الخامس: إن الآل هم علي، وفاطمة، والحسن، والحسين (عليهم السلام)، وقد تضافرت الأخبار من كلا الفريقين بتفسير أهل البيت بهؤلاء الخمسة فقد نقل عن أبي جرير، وابن المنذر، وابن حاتم والطبراني وابن مردويه عن أم سلمة (رضي الله عنها) أن

---

(١) عبد الله ابن قدامة: المغني والشرح الكبير/ ١، ٥٨٢، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان..

(٢) جلال الدين السيوطي: الدر المنثور/ ٥، ١٩٩.

(٣) عبد الله بن قدامة: المغني والشرح الكبير/ ١، ٥٨٢.

(٤) الإمام الحافظ أبي العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي / ٩، ٤٨، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

رسول الله(ﷺ) كان ببيتها على منامة له، وعليه كساء خيبري فجاءت فاطمة رضي الله عنها ببرمة فيها حريرة [١]. فقال رسول الله(ﷺ) إدعى لي زوجك، وابنيك حسناً وحسيناً فدعتهم فبينما هم يأكلون إذ نزلت على رسول الله(ﷺ):

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [٢] فأخذ النبي(ﷺ) بفضلة إزاره فغشاهم إياها ثم أخرج يده وأومأ بها إلى السماء ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، قالها ثلاث مرات. قالت أم سلمة (رضي الله عنها): فأدخلت رأسي في الستر فقلت: يا رسول الله وأنا معكم فقال: إنك إلى خير مرتين.

وأخرج الطبراني عن أم سلمة (رضي الله عنها) (أن رسول الله(ﷺ) قال لفاطمة(رضي الله عنها): إتين بزوجك وابنيه فجاءت بهم فألقى رسول الله(ﷺ) كساءً عليهم فدكياً ثم وضع يده عليهم، ثم قال: اللهم إن هؤلاء أهل محمد ـ وفي لفظ آل محمد ـ فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، قالت أم سلمة: فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه من يدي، وقال إنكِ على خير).

وفي خبر آخر: نقل أن أم سلمة عقبت على عدم الإذن لها بالدخول معهم تحت الكساء قائلة: يا رسول الله ألست من أهل البيت قال: إنك على خير إنك من أزواج النبي(ﷺ).

وقد نقل السيوطي أيضاً أخباراً عديدة تقول:

(إن رسول الله (ﷺ) لما دخل علي بفاطمة كان يأتي بابها أربعين صباحاً ويقول: السلام عليكم أهل البيت، ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمكم الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً، أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم) [٣].

---

(١) البرمة القدر والحريرة دقيق يطبخ بلبن أو دسم.

(٢) سورة الأحزاب: الآية، ٣٣.

(٣) لاحظ لهذه الأقوال: جلال الدين السيوطي: الدر المنثور/ في تفسيره لآية التطهير.

أهل البيت عند الإمامية:

أما الإمامية: فإنهم يقصرون هذا العنوان على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وزوجته فاطمة الزهراء وولديها الحسن والحسين (عليهم السلام) طبقاً للأخبار التي تحدثت عن ضم هذه المجموعة تحت الكساء أو لجلوسهم على مائدته ونزول آية التطهير في تلك اللحظات وتطبيق النبي(صلى الله عليه وآله) للآية الكريمة عليهم حتى أن السيدة الجليلة أم سلمة حرم رسول الله مع ما لها من المكانة عنده، أرادت الدخول معهم أو اعتبارها من ضمن المجموعة، ولكنه لم يسمح لها بذلك وغاية ما قال في جوابها:

(إنك على خير).

ومن ذلك يعلم أن قضية تطبيق الآية ليس قضية اعتباطية، بل تخضع لشروط وموازين مخصوصة بدرجة أنها لم تسمح لمثل أم سلمة مع جلالتها أن تدخل معهم ومن ثم اعتبارها من أهل البيت.

أما تبعية الأئمة التسعة المعصومين (عليهم السلام) من ذرية الحسين لهؤلاء الأربعة في شمول عنوان أهل البيت لهم فذلك لتصريح النبي(صلى الله عليه وآله) في أكثر من مورد بانحصار ذريته من ذرية فاطمة (عليها السلام) مع النص عليهم بالإسم وكامل المشخصات والتسعة هم: «علي بن الحسين، محمد الباقر، جعفر الصادق، موسى الكاظم، علي بن موسى الرضا، محمد الجواد، علي الهادي، الحسن العسكري، الحجة بن الحسن المهدي»(عليهم السلام).

هذه الأقوال نضعها أمام القارئ الكريم ليختار لنفسه ما يحلو كما يقول المثل.

والمهم من جميع ما تقدم ذكره، أن لا يصلى على النبي الصلاة البتراء وهي الصلاة على النبي ويمسك، أما من يقصد بالآل عندما يقول: وآل محمد، أو وعلى آل محمد، بعدما يقول: اللهم صلِّ على محمد فذاك متروك إلى المصلي نفسه.

المقطع الثالث:

١ ـ وافتحِ اللَّهُمَ لنا مصاريعَ الصبَّاحِ بِمَفاتيحِ الرحمةِ والفَلاحِ.

٢ ـ وَألبِسني اللّهُمَّ مِنْ أفضلِ خِلَعِ الهِدايةِ والصَّلاحِ.

٣ ـ واغرِسِ اللَّهُمَ بِعَظَمتِك في شِربِ جَناني يَنابيعَ الخُشوعِ.

٤ ـ وأجرِ اللَّهُمَ لِهَيْبَتِكَ مِن آماقي زَفراتِ الدُّموعِ.

٥ ـ وأدِّبِ اللَّهُمَ نزقَ الخُرقِ مِنّي بأزمةِ القُنوعِ.

لقد علمنا الدعاء في المقطع الأول والثاني، كيف يبدأ الداعي في مسيرته الدعائية ليضمن لنفسه الإجابة فقدم حمد الله والثناء عليه، ومن ثم الصلاة على النبي وآله، ولنسمي هذه المقدمات (مفاتيح الإجابة).

أما بهذا المقطع الثالث، فقد صور لنا الإمام (صلوات الله عليه) النموذج الكامل لكيفية الطلب من الله سبحانه وترتيب عرضه عليه.

لقد رسم الدعاء لنا في هذه الفقرات الخمس الخطوط العريضة التي لابد من سلوكها لمن يريد أن يتقدم بحوائجه إلى من بيده الإجابة، والاستجابة.

ويجد الداعي، وهو يردد هذه الفقرات أنها أفتتحت بأجمعها بالطلب من الله سبحانه بأمور، وإن كانت مختلفة من حيث النظر إلى كل فقرة من الفقرات، ولكنها من حيث المجموع تعود إلى غاية واحدة، وهدفٍ موحد يقصده هذا المقطع من الدعاء.

فالبعض منها نرى فيها تضمن أن يمن الله على الداعي، فيفتح له أبواب الرحمة والفلاح، ويلبسه برود الهداية والصلاح، وأن يضفي عليه نعمة الاتزان في القصد والعمل، ويسلب منه صفة النزق، والطيش ليكون إنساناً كيّساً يضع الأمور بمواضعها، ويسير معتدلاً في هذه الحياة.

أما البعض الآخر فإن الداعي نراه يطلب فيها من الله سبحانه أن يثبت في قلبه الخشوع، والخضوع له، وأن يجعله غزير الدمع من خشية الله.

وهذه صفات تنبئ لو حصلت عند أحد عن صفاء النفس، وتجردها من شوائب الحياة، وبذلك تسمو راضية بما قسم الله لها من كل شيء ـ وفي الوقت نفسه ـ فإن الدعاء بهذا المقطع يريد من الداعي أن يجمع بين هاتين الصفتين.

عمل يقوّم هذه الحياة، وتوجه نحو الله سبحانه في كل صغيرة وكبيرة. إن العمل مطلوبٌ من الفرد في كل يوم، ولكن لا بشكل يكون عقبة في طريقه نحو الله، وتعاليمه، المقدسة.

والمال مرغوب فيه، وعلى حبه جبلت النفس وهو ـ في الوقت نفسه ـ عصب هذه الحياة، ولكن لا على نحو يكون وسيلة للفساد، والشر للآخرين، ووبالاً على صاحبه في الدنيا، والآخرة.

بل كل شيءٍ في هذه الحياة مما أحله الله سبحانه لكل فردٍ الحق في الحصول عليه، ولكن بشرط أن يكون تحت عنوان من القناعة، والاتزان لا بالجشع، والحرص، وجمعه من الطرق التي لا تقرها الشريعة المقدسة، أو التطلع على ما في أيدي الآخرين.

إذاً، فالدعاء بهذا المقطع يريد من الله أن يجعل الداعي إنساناً متكاملاً بقدر الإمكان ليقوى على استقبال يومٍ جديد.

ومن هذا العرض إلى التوقف مع كل فقرةٍ من فقرات مقطعنا الثالث.

١ ـ (وافتحِ اللّهُمَ لنا مصاريعَ الصّباحِ بِمَفاتيحِ الرحمةِ والفَلاحِ).

المصاريع: جمع مصراع، والمصراع من الباب شطره وهما مصراعان.

والرحمة: هي الرقة، والتعطف بكل شيءٍ في خير.

أما الفلاح: فهو الفوز، والنجاح، والبقاء في النعيم، والخير.

والنسق الدعائي في هذه الفقرة يصور لنا حال الداعي، وهو يهب ليستقبل صباحاً جديداً بعد أن استسلم لنومٍ لذيذ قضى به ليلة هادئة أرضى فيها بدنه المتعب،.

وبهذا الرقود، والاستسلام للنوم، والظلام يخيم على الكون تظهر لنا صورة الإنسان النائم، وقد غلقت الدنيا عليه الأبواب، ولكن الصباح بأنواره الوهاجة سيفتح عليه ما كان مغلقاً، لذلك توجه الداعي إلى ربه أن يفتح عليه أبواب الرحمة، ويقدر له في يومه الجديد الفوز، والنجاح في أعماله، وقد ورد في الأخبار عن أهل البيت (عليهم السلام) الاهتمام بهذه الفترة الصباحية من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فعن أمير المؤمنين(عليه السلام) «من كانت له إلى ربه عز وجل حاجة، فليطلبها في ثلاث ساعات: ساعة في يوم الجمعة، وساعة نزول الشمس حين تهب الرياح، وتفتح أبواب السماء، وتنزل الرحمة ويصوت الطير، وساعة في آخر الليل عند طلوع الفجر فإن ملكين يناديان: هل من تائب يتاب عليه، هل من سائل يعطى، هل من مستغفر، فيغفر له، هل من طالب حاجة فتقضى له؟ فأجيبوا داعي الله، واطلبوا الرزق فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فإنه أسرع في طلب الرزق من الضرب في الأرض، وهي الساعة التي يقسم الله فيها الرزق لعباده»(١).

وعن أبي الصباح عن الإمام الباقر (عليه السلام): «إن الله عز وجل يحب من عباده المؤمنين كل دعاء، فعليكم بالدعاء بالسحر إلى طلوع الشمس، فإنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء، وتقسم فيها الأرزاق، وتقضى فيها الحوائج العظام»(٢).

ويأتي التنسيق الدعائي في هذا المقطع من ابتداء الطلب من العبد بالرحمة، والاستفتاح به في مطلع اليوم الجديد، فالفرد عندما يستيقظ من نومه يفتح صفحة جديدة يسجل فيها أعماله في هذا اليوم، وستبدأ حركته من الساعات الأولى، ولابد له من أن يتجه إلى ربه ليساعده، وليأخذ بيده ليكتب له التوفيق، والفوز في كل ما يقدم عليه، وهو ما يقتضيه الحال في مثل هذه الفترة، وللدعاء يطلب المغفرة وما يعود إلى الآخرة مجال يأتي في الفقرات من المقاطع الآتية من هذا الدعاء.

وقبل أن نودع هذه الفقرة الدعائية نرى تعبير الإمام (عليه السلام) بقوله: (لنا) بصيغة

---

(١) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٩٣، ٣٤٤ـ ٣٤٥.

(٢) بحار الأنوار: ٩٣، ٣٤٤ـ ٣٤٥.

الجمع في قوله: (وافتح اللهم لنا) يلفت النظر إلى أن من آداب الدعاء، وضمان الاستجابة أيضاً أن يعم الداعي بدعائه، ولا يقتصر على نفسه، فإن التعميم أقرب للإجابة كما جاء في شروط استجابة الدعاء، وقد ورد عن النبي(ﷺ): قوله: (إذا دعا أحدكم فليعم فإنه أوجب للدعاء) [١].

٢ ـ (وَألبِسني اللّهُمّ مِنْ أفضلِ خِلَعِ الهِدايةِ والصَّلاحِ).

الخلعة: بالكسر الثوب الذي يعطي منحة، وخيار المال أيضاً خلعة.

أما الهداية: فهي مصدر هدى وهدى يهدي أرشده ضد أضله يقال: هداة الطريق، وإلى الطريق إذا بينه له، وعرفه به، وهداه الله إلى الإيمان أرشده إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [٢].

والهداية: بناءاً على ذلك هي الدلالة إلى ما يوصل إلى الشيء.

وصلح: ضد فسد، والصلاح ضد الفساد.

هذا ما يقوله أهل اللغة، أما في المصطلح الخاص فقد قيل عن الهداية:

هي: الاهتداء إلى كل حق، وصواب، وقبوله، والعمل عليه ـ وفي الوقت نفسه ـ عدم الرجوع معه إلى الباطل، وقيل إن معنى ذلك هو التقيد بالأحكام الشرعية، والأخذ بها.

أما الصلاح: فقد فسر على ما قيل عنه: بأنه ضد الفساد، وهو السير على الطريق المستقيم سواءً بالأخذ بما يمليه عليه الحكم الشرعي من الأوامر، والنواهي أو مراعاة بما يفرضه عليه الواجب إزاء الناس.

وقد نقل عن الزجّاج رأيه في الموضوع «كما ذكر ذلك في معاني القرآن» قائلاً:

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ ٢، ٤٨٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية، ١٠١.

(الصالح: هو الذي يؤدي ما فرض الله عليه ويؤدي إلى الناس حقوقهم).

ويأتي هذا الطلب من الداعي مترتباً على ما سبق من طلبه فيما تقدم في الفقرة الأولى من الرحمة، والفلاح يطلبهما من الله مع تباشير صباحه الجديد، ولكن هذا الفلاح، وهذا الفوز والنجاح في كل عملٍ يقوم به بدءاً من أول ساعات يومه يريد الداعي أن يقرنه الله بأن يكون مقترناً بالهداية منه حيث يفتح الله بصيرته، ويرشده إلى ما فيه صلاحه من امتثال أحكامه الشرعية ومراعاة حقوق الله، وحقوق الناس.

إن الدعاء ومن بدء هذه الفقرات يريد أن يجعل من الداعي ـ وهو يتجه إلى الله مردداً هذه الكلمات ـ الإنسان الكامل الذي شملته العناية الإلهية فأنقذته من مزالق الشر، وأضفت عليه، برود الخير والصلاح. لا الضال الذي يتخبط في يومه ذلك أو في كل يوم بكل ما لا يرضي الله من أفعال، وأقوال، وأعمال.

على أن التعبير بأن يلبسه الله من أفضل خلع الهداية فيه طلب بالهداية بشكل خاص يريده الداعي من ربه ذلك لأن الخلع هي ما يمنح من ثوب أو ما شاكل، ولكن المتعارف أن هذا النوع من الهداية، والمنحة يصدر من الكبار لأشخاصٍ في مقام التكريم، والتبجيل، والتعظيم ـ وعلى سبيل المثال ـ فإن الشعراء إذا قصدوا ملكاً، أو أميراً، أو رئيساً، ومدحوه جازاهم بأن يخلع عليهم من البرود والأثواب ما يكرمهم به، أما العطاء الصرف فلا تستعمل فيه كلمة (خلعة).

ومن هذا المنطلق، نرى الإمام (عليه السلام) يريد من الله سبحانه تعالى أن يجعل ما يخصه به من الهداية، والصلاح على هذا النحو من العطاء، والتكريم ليكون ذلك مدعاة للفخر، والاعتزاز، والشعور بقربه من الله، وأن ما يقدمه في هذا المضمار منظور من قبله سبحانه، ومقبول له.

نبقى نحن وما يرد من الإشكال على هذا النوع من التعبير عندما يصدر من مثل أمير المؤمنين، أو أحد الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام)، أو أحد الصلحاء الذين يشترط فيهم العصمة، وقيادة الناس إلى الله، فإن هؤلاء قد تكاملت نفوسهم ووصلت إلى حدٍ من الطهر أن قال فيهم القرآن الكريم:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[١].

فمن أذهب الله عنه الرجس، وطهره تطهيراً ماذا يريد عندما يطلب من ربه أن يجلله بالهداية، والصلاح؟.

سؤال يطلب الإجابة، وفقرة من الدعاء لابد لها من التوضيح:

والجواب **أولاً**: أن ما يقرأه النبي(ﷺ)، أو الأئمة (عليهم السلام) أو بعض الصلحاء ممن كانت درجاتهم الإيمانية تقارب درجات المعصومين، ليس ذلك لأنفسهم فقط بل يكون نظرهم ـ في الوقت نفسه ـ لتعليم الآخرين في كيفية التحدث مع الله سبحانه، وتوجيه مسيرتهم الدعائية عندما تتوجه النفوس إلى خالقها تؤدي فروض الشكر لنعمه، أو لتحميده، وتعظيمه، أو لطلب ما يخصها من الحوائج في المجالين: الدنيوي، والأخروي.

وإذا كان الهدف هذا فلا منافاة في تقديم مثل هذه الطلبات التي يطلب فيها الإمام المعصوم من ربه أن يلبسه الله برود الهداية، ويهديه إلى طريق الصلاح.

ولكن لو لم يقتنع القارئ الكريم بذلك، وقال: بأن الذي يتتبع سيرة هؤلاء العظماء يراهم يقرأون الدعاء باعتبار أن القارئ هو المذنب، وهو الذي يطلب المغفرة، والعفو، والهداية، وهو أيضاً الذي يريد من ربه إرشاده إلى طرق الخير لا الفساد، ولم يظهر من ترتيلهم للأدعية أنهم بقصد التعليم، بل ربما دخل أحدهم على أحد الأئمة (عليه السلام) فيراه ساجداً لله سبحانه، وهو يناجيه بدعاء يعترف فيه بذنبه، ويطلب منه العفو، وما شاكل من الهداية إلى ما فيه الخير، والصلاح.

وقد نقل عن بعض الأصحاب قوله رأيت الإمام (عليه السلام)، ويذكر اسمه، وهو متعلق بأستار الكعبة في جوف الليل، وهو يقول: كذا وكذا ثم يذكر الدعاء في وقت لم يكن في بيت الله أحد لأن الوقت كان في جوف الليل، والظلام يخيم على أرجاء البيت، فكيف يكون التعليم والحالة هذه؟.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية، ٣٣.

وعلينا إذاً أن ننتقل إلى:

الجواب الثاني: وهو أننا ننقل الحديث إلى ما يقرأه النبي(ﷺ) والأئمة (عليهم السلام) وغيرهم من الصلحاء كل يوم من الآية الكريمة في سورة الحمد، وفي كل صلاة من صلواتهم الخمس في قوله سبحانه:

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ وهو دعاء يستجيبه الله لعبده عندما يقف خاشعاً بين يديه يرتل سورة الحمد، فقد قال أمير المؤمنين، وهو يتحدث عن هذه السورة قائلاً:

(فاتحة الكتاب أعطاها الله محمداً(ﷺ) وأمته. بدأ فيها بالحمد، والثناء عليه، ثم ثنى بالدعاء لله عز وجل، ولقد سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: قال عز وجل: قسمت الفاتحة بيني، وبين عبدي فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل. إذا قال العبد: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾. قال الله عز وجل: بدأ عبدي باسمي وحق عليَّ أن أتمم له أموره، وأبارك له في أحواله. فإذا قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾. قال الله جل جلاله: حمدني عبدي وعلم أن النعم التي له من عندي وأن البلايا التي دفعت عنه فبتطولي أشهدكم أني أضيف له نعم الدنيا إلى نعم الآخرة وادفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا. فإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾. قال الله عز وجل: شهد لي بأني الرحمن الرحيم أشهدكم لأوفرنّ من رحمتي حظه ولأجزلنّ من عطائي نصيبه. فإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾. قال الله جل جلاله: أشهدكم كما اعترف بأني أنا المالك ليوم الدين لأسهلن يوم الحساب حسابه ولأقبلن حسناته ولأتجاوزن عن سيئاته. فإذا قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾. قال الله عز وجل: صدق عبدي إياي يعبد لأثيبنه عن عبادته ثواباً يغبطه كل من خالفه في عبادته لي.

فإذا قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾. قال الله عز وجل: بي استعان وإلي التجأ أشهدكم لأعيننه على أمره ولأعيننه في شدائده لآخذن بيده يوم القيامة عند نوائبه. وإذا قال: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ إلى آخر السورة. قال الله عز وجل: هذا لعبدي

ولعبدي ما سأل فقد استجبت لعبدي، وأعطيته ما أمل، وأمنته مما منه وجَلِ»[1].

(هذا لعبدي ولعبدي ما سأل).

ولنقف عند هذه الفقرة من الحديث.

فماذا سأل العبد حتى يقول الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل؟

إنه سأله أن يهديه الصراط المستقيم.

أليس النبي (ﷺ) أو الإمام (عليه السلام) كبقية الناس من جهة التكليف الشرعي بالصلاة في اليوم خمس مرات، وفي كل صلاة يكررها مرتين، وهو يطلب من ربه أن يهديه إلى الصراط المستقيم؟ فما معنى هذا الطلب وهو الكامل من ناحية الهداية حسبما يعتقده الإمامية في النبي وأئمتهم (عليهم السلام)؟

وإذاً فلابد من مراجعة ما يقوله المفسرون في مثل هذا الطلب من هذه الآية الكريمة.

وبذلك لا يبقى مجال للإشكال في فقرتنا الدعائية عندما يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): (وألبسني اللهم من افضل خلع الهداية، والصلاح).

وللمفسرين في جواب هذا الإشكال أقوال:

الأول: إن معنى هذا الطلب هو التثبت على الدين الحق لأن الله تعالى، قد هدى الخلق كلهم إلاّ أن الإنسان قد يزل، وترد عليه الخواطر الفاسدة فيحسن أن يسأل الله تعالى أن يثبته على دينه، ويديمه عليه، ويعطيه زيادات الهدى التي هي إحدى أسباب الثبات على الدين، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[2] وهذا كما يقول القائل لغيره، وهو يأكل: كل أي: دُم على الأكل.

---

(١) ميرزا حسين النوري: مستدرك الوسائل/ ٤، ٣٢٧، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث (عليهم السلام)، بيروت ـ لبنان..

(٢) سورة محمد: الآية، ١٧.

الثاني: إن الهداية هي: الثواب لقوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾[١].

فصار معناه أهدنا إلى طريق الجنة ثواباً لنا، ويؤيده قوله: الحمد لله الذي هدانا لهذا.

الثالث: إن المراد دلنا على الدين الحق في مستقبل العمر كما دللتنا عليه فيما سبق ويجوز الدعاء بالشيء الذي يكون حاصلاً كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾[٢].

وقوله حكاية عن إبراهيم (عليه السلام): ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾[٣].

وذلك لأن الدعاء عبادة، وفيه إظهار الانقطاع إلى الله تعالى.

فإن قيل: ما معنى المسألة، وقد فعله الله؟

فجوابه: إنه يجوز أن يكون لنا في الدعاء به مصلحة في ديننا، وهذا كما تعبدنا بأن نكرر التسبيح، والتحميد، والاقرار لربنا عزّ اسمه بالتوحيد، وإن كنا معتقدين لجميع ذلك.

ويجوز أن يكون الله تعالى، يعلم أن أشياء كثيرة تكون أصلح لنا إذا سألناه، وإذا لم نسأله لا تكون مصلحة فيكون ذلك وجهاً في حسن المسألة. (ويجوز أن يكون المراد استمرار التكليف، والتعريض للثواب لأن إدامته ليس بواجب بل هو تفضل محض فجاز أن يرغب إليه فيه بالدعاء)[٤].

على أن بالإمكان أن تقول:

إن الإنسان مهما تسامت منزلته، ووصل إلى الدرجات العليا من الإيمان

---

(١) سورة يونس: الآية، ٩.

(٢) سورة الأنبياء: الآية، ١١٢.

(٣) سورة الشعراء: الآية، ٨٧.

(٤) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية.

والقرب من الله سبحانه، فإنه مع كل ذلك لا يصل إلى درجة الكمال المطلق، فإن الكمال المطلق لله وحده جلت عظمته.

وإذاً فالإنسان، وإن كان معصوماً مهدياً موفقاً توفيقاً لم يسبقه إليه غيره إلاّ أن ذلك ليس معناه أنه فتحت له كل الآفاق، بل هناك ما يحتفظ به الله لنفسه ليكون ذلك من جملة الفروق بين العبد، وربه، وبين القادر، والعاجز، وبين الخالق، ومخلوقه.

ومن هنا، ومن هذا المنطلق، نرى أصحاب المنازل الرفيعة يطلبون الهداية، والصلاح فهم بذلك يستزيدون المنح الربانية، والعطايا الإلهية بتوفيقهم الأكثر مما وفقوا إليه، وإن كانوا قد نالوا ما لم ينله غيرهم، ويريدون منه سبحانه أن يرشدهم إلى ما فيه الخير بأكثر مما حصلوا عليه.

يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في كتابه إلى عامله في البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري، وقد بلغه أنه دعي إلى وليمة قومٍ من أهلها فمضى إليها.

يقول في جملة ما قال: (ولو شئتُ لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع) [1].

فأمير المؤمنين (عليه السلام) مع قربه من الله، وعظم منزلته، ومقامه لا يدّعي لنفسه أنه مطّلع على كل شيء بل يتوقف عن أكل الطيب مواساة للجائعين والمحرومين الذين لم يعلم بحالهم حيث يقول: (ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع).

إن الإمام (عليه السلام) عندما يطلب المزيد من الله سبحانه قد يقصد بهذا النوع من الطلب أن يوفقه الله للإطلاع على أحوال هؤلاء، وأمثالهم ليصل إليهم عطاؤه.

---

(١) نهج البلاغة: ٣، ٧٢، من كتاب له إلى عثمان بن حنيف.

والصلاح، وإن كان ضد الفساد، ولكن ما المانع أن يكون مثل الإمام (عليه السلام) يطلب من ربه أن يتفضل عليه بإبقاء ما أنعم عليه من طهارة النفس، وعدم فسح المجال إلى ملاذ الدنيا أن تجد إلى نفسه سبيلاً.

كل هذا تضرع إلى الله سبحانه، وتوسل إليه، وانشداد إلى ساحته المقدسة، وطلب منه بأن يقربه منه أكثر، وإن كان هو من المقربين.

وقد سبق لنا، أن بينا في موضوع الصلاة على النبي(صلى الله عليه وآله) بأن الله حث الناس على الصلاة عليه وآله مع ماله ولهم من المنزلة عندهم، وهل يشك أحد بأنهم بحاجة إلى ما يدخلهم الجنة لتطلب لهم الرحمة منه سبحانه؟.

وهل الله جلت عظمته يمنع رحمته عن محمد وآله لينتظر من عباده أن يتوسطوا في أمرهم فيرحمهم؟.

كل ذلك ـ كما قلنا ـ لزيادة القرب، والتقرب إليه، وليكن ما نحن فيه كذلك.

٣ـ (وأغْرِسِ اللَّهُمَ بِعَظَمَتِكَ في شِرْبِ جَنَاني يَنابيعَ الخُشوعِ).

غرس النخل أو الشجر: أنبته في الأرض.

والشرب: بالكسر، هو المورد من الماء.

والخشوع: هو التذلل، والخضوع، والخوف.

والجنان: بالفتح هو القلب.

وأما الينابيع: فهي جمع ينبوع، وهو عين الماء، أو الجدول الكثير الماء.

والخشوع والخضوع: من صفات المؤمنين الصالحين، لذلك يوجه الدعاء الداعي أن يكون من جملة طلباته من الله سبحانه أن يثبت في قلبه الخشوع ليقابل ربه بقلب خاشع كما أمر سبحانه في كتابه الكريم حيث قال:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١).

---

(١) سورة الاعراف: الآية، ٥٥.

وللتضرع آثاره على النفس، وله هيمنته على الإنسان، وبه يستسلم الخاشع إلى ربه ينقاد له بشكل بعيد عن النزق، والطيش، وهو أضمن للإجابة في الدعاء.

وقد جاء في الأخبار فيما قال الله لموسى (عليه السلام): (يا موسى كن إذا دعوتني: خائفاً مشفقاً وجلاً، وعفر وجهك لي في التراب واسجد لي بمكارم بدنك، واقنت بين يدي في القيام، وناجني حيث تناجيني بخشية من قلب وجل... الخ) (١).

هذه صفات يريدها الله من الداعي عندما يتوجه إليه ليكون الداعي، وهو على هذه الهيئة من الاستسلام، والانقياد أطوع إلى الله، وأقرب إليه، وبذلك يكون قد ضمن لنفسه الإجابة.

إن الداعي بهذه الفقرة يطلب من ربه أن يملأ قلبه بالخشوع كالأرض عندما يتفجر منها الماء عيوناً، وليكن الخشوع مغروساً في القلب نابتاً فيه بحيث يكون راسخاً ليكون الداعي في كل وقت مستعداً للقاء الله، والطلب منه.

ولكن لماذا اختار الدعاء لخشوع قلب الداعي ليكون مقراً له، وقدّمه على سائر أعضاء بدنه؟.

الجواب عنه: إن القلب هو سيد الجوارح، وكلها ترجع إليه، وبخشوعه تتبعه بقية الأعضاء، وبذلك يقبل الداعي على ربه، وينقطع إليه انقطاعاً كاملاً تعبر عنه جميع جوارحه.

يقول النبي(صلى الله عليه وآله) وقد رأى شخصاً يصلي، وهو يعبث بلحيته.

(أما انه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه) (٢). وحيث أن قلبه لم يخشع كانت يده تعبث بلحيته.

فالقلب مركز القيادة في البدن وبحركته تنشط الأعضاء، وبتوقفه تتوقف عن الحركة، وبخشوعه تخضع الجوارح وتتجه نحو الله سبحانه.

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ ٨، ٤٤، حديث موسى(عليه السلام) وما خاطبه الله عز وجل به.

(٢) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٨، ٢٢٨، باب آداب الصلاة.

وقد يرد الإشكال على النسق الدعائي في هذه الفقرة من الدعاء.

حيث طلب الداعي من ربه أن يغرس في قلبه ينابيع الخشوع ومن الواضح أن الغرس لا يلائم الينبوع، بل الذي يلائم الينبوع إنما هو الحفر فإن الإنسان إذا حفر الأرض خرج الماء منها، ولهذا نرى الاستعمال الدارج على الألسنة يقول: حفر البئر أو الآبار، ومن ذلك الحديث: (من حفر بئراً لأخيه المؤمن وقع فيها) (١).

وقد أجيب عن هذا الإشكال بأجوبة عديدة:

الأول: إن المراد من الغرس هو الإخراج، وهو محمول على التضمين بمعنى الإخراج بقرينة (ينابيع) فإنها ليست من متعلقات (أغرس) ولا يصلح أن يكون من معلولاته فاستعماله مع الينابيع يوجب التضمين أي: أغرس مخرجاً.

الثاني: إن الغرس هو إخراج التراب من الأرض وإدخال الشجر فيه فلو جرد عن إدخال الشجر واقتصر على إخراج التراب كان المعنى مستقيماً، والإشكال مرتفعاً.

وإنما لم يقل أخرج مكان أغرس لأن أغرس أبلغ لأنه (عليه السلام) شبه الينابيع بأشجار طويلة مرتفعة فاستعاد لها الينابيع وأثبت لها الاغراس.

الثالث: إن بعض النسخ للدعاء جاء فيها كلمة (أغزر) مكان (أغرس) والغزارة هي الكثرة يُقال: أغزر القوم إذا كثرت ألبان مواشيهم، ويلتئم هذا مع الينابيع حيث يطلب الداعي من ربه أن يجعلها غزيرة أي كثيرة.

الرابع: إن بعض النسخ جاء فيها كلمة (نبابيع) بدل (ينابيع) والنبع كما يقول عنه أهل اللغة: هو شجر يتخذ منه القسي والسهام وكان شجراً يطول ويعلو فدعا عليه النبي (صلى الله عليه وآله) ،فقال: «لا أطالك الله من عود» (٢) فلم يطل.

وعليه فيرتفع الإشكال، مع مناسبة التعليل لأنه (عليه السلام) لما أراد أن يطلب

---

(١) محمدي الريشهري: ميزان الحكمة/ ٣، ٢٧٢٢.

(٢) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث/ ٥، ٩.

خشوعاً كاملاً بالغاً طويلاً عالياً على القلب، وعلى جميع الجوارح، والأعضاء ليكون التوجه والإقبال على الله تعالى، والخوف منه، والإعراض عما سواه دائماً مستمراً بحيث لا يشغله شأن عن شأن غير هذا الشأن جاء بصفة العظمة ليجعلها وسيلة لطلب ما هو عظيم، وهو الخشوع، المشبه بالنبع في طوله وعلوه، وعروقه، وكثرة جذوره، وأغصانه.

وهناك وجوه أخرى ذكرت لحل الإشكال المذكور.

وقد أطال البعض في التوفيق بين كلمة (أغرس) وبين الينابيع.

ولكنني أحسب أن هذا التعمق يخرج الداعي عن الاتجاه والتوجه ـ وفي الوقت نفسه ـ يفقد الداعي حلاوته، ونغمة المؤثر.

إننا نرى العبارة كما هي (أغرس) كما يقول بعض الشرّاح: أنه قد بلغه أن نسخة خطية وجدت بخط أمير المؤمنين (عليه السلام) وفيها كلمة (أغرس) ومع هذه الكلمة فإن المعنى الدعائي يكون واضحاً وذلك:

فإن الداعي حسب ما تعطيه هذه الفقرة طلب من ربه أن يجعل قلبه موطناً للخشوع والخشوع، له ولكنه راعى في هذا الطلب جهة الكيفية للخشوع، وجهة الكمية.

أما الكيفية: فإنه طلب ممن توجه إليه أن يرسخ هذا الخشوع على نحو يكون كترسيخ الشجرة في الأرض قوية وثابتة.

وأما الكمية: فإنه يريد من ربه أن يكون الخشوع من الكثرة كما تكون الينابيع التي تخرج مياهها من باطن الأرض.

خشوع يزكو، ويكثر بشكل مكثف، ومتواصل لا انقطاع له.

وبذلك يلتئم مع الغرس، فإن الإنسان عندما يغرس الشجرة، فإنه ينبتها في الأرض ويرسخ جذورها، وكذلك الدعاء يريد من الله أن يرسخ على نحو الغرس الخشوع بقلب الداعي.

هذا ما يريده الدعاء حسبما يعطيه النسق الدعائي من الفقرات السابقة، واللاحقة.

أما أن الكلمة أغرس، أو أغزر، أو أغرز فإن ذلك لا يضر عندما يكون المقصود واضحاً والبيان يصدر من مثل أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو من سَنّ الفصاحة لقومه.

ولماذا نجمد على كون كلمة (أغرس) هي إخراج التراب من الأرض وإدخال الشجر.

بل ربما كان للإمام رأي في ذلك بحيث كان يقول بأن الغرس يشمل هذا النحو من إخراج المياه، ولو كان ينبوعاً، أو كانت لغة للعرب في ذلك.

كل ذلك نتركه لنسير مع الدعاء فترفع كفاً ضارعة، وقلباً خاشعاً ملؤه الرجاء بأن يستجيب الله فيجلل الداعي بالخشوع، والخضوع لينتقل إلى الفقرة التالية من الدعاء من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) حيث يقول:

٤- (وأجر اللَّهُمَ لِهَيْبَتِكَ مِن آماقي زَفراتِ الدُّموعِ).

تقول المعاجم اللغوية: إن الهيبة هي السطوة، والخوف يقال: هاب الشيء يهابه إذا خافه، ولذلك قيل: إذا هبت شيئاً فقع فيه.

أي أكسر سطوة الخوف وأقدم عليه لئلا تنشأ عندك عقدة نفسية منه.

والأماقي: جمع موق، وهو طرف العين مما يلي الأنف.

وأما الزفرات: فهي جمع زفرة، والزفرة بالكسر القربة، والماء الكثير، ولذا قيل للنساء اللاتي يحملن قرب الماء: زوافر ويطلب الداعي من ربه أن يكمل له خشوع قلبه بأن يهبه عيناً باكية من خشية الله، وخوف عقابه وإجلالاً لهيبته، وسطوته.

ولربما كان في البين تلازم بين خشوع القلب، والبكاء خوفاً من الله سبحانه فإن من غفل قلبه عن الله لا تدمع عينه من خوف الله، لذلك ترى كثيراً يأتي الخشوع مقدماً على جريان الدمع لما بينهما من الارتباط في هذا المضمار.

وقد نقلت مصادر الدعاء والحديث أن الله سبحانه قال لعيسى بن مريم يا عيسى (هب لي من عينيك الدموع، ومن قلبك الخشية، وقم على قبور الأموات فنادهم بالصوت الرفيع فلعلك تأخذ من موعظتك منهم، وقل: إني لاحق في اللاحقين صب لي من عينيك الدموع، واخشع لي قلبك، يا عيسى استغث بي في حالات الشدة فإني أغيث المكروبين، وأجيب المضطرين، وأنا أرحم الراحمين) (١).

حالات يطلبها الله من نبيه عيسى (عليه السلام)، ولا اختصاص لعيسى بها، بل يريدها من عباده، لا لحاجة له في هذا النوع من التضرع بل لخلق حالة عند العبد تجعله وثيق الارتباط بربه، ولذلك نرى الأخبار تحدثنا عن الثواب الجزيل يهبه الله لمن بكت عينه من خشية الله سبحانه.

وقد جاء عن الإمام محمد الباقر (عليه السلام) قوله: (ما من قطرة أحب إلى الله عز وجل من قطرة دموع في سواد الليل مخافة من الله لا يراد بها غيره) (٢).

وفي حديث آخر جاء عن الإمام الصادق (عليه السلام): (ما من شيء إلاّ وله كيل، ووزن إلاّ الدموع فإن القطرة منها تطفئ بحاراً من النار فإذا اغرورقت العين بمائها لم يرهق وجهه قتر، ولا زلة فإذا فاضت حرمه الله على النار، ولو أن باكياً بكى في أمة لرحموا) (٣).

وقد يقال: ما هذه المبالغة عن قطرة من دموع تكون محببة لله عز وجل بهذا النحو من الحب، وهي نطفئ بحاراً من نار فإذا فاضت العين حرم الله ذلك الإنسان على النار؟

ويجاب، بأن القطرة من الدموع، أو تجمّع الدموع في العين وتفيض ليس لذلك خصوصية، وموضوعية في حصول هذا النوع من الجزاء من الله سبحانه بل لأن

---

(١) ابن فهد الحلي: عدة الداعي/ ١٥٥.

(٢) الشيخ الكليني: الكافي/ ٢، ٤٨٢.

(٣) الكافي / ٢/ ٤٨٢.

ذلك يكشف عن توبة الباكي، وندمه، وخشيته من الله، وإذا حصلت هذه الحالة عفا الله عن هذا الإنسان، وغفر له ذنوبه، وأطفأ عنه بحاراً من النار لو كان قد جمع حطب تلك النيران بأعماله المنافية، وقد جاءت الآيات، والأخبار مستفيضة بالإعلان بأن الله يقبل التوبة من عباده، أو أنه غفار لمن تاب، أو أنه غفور رحيم، أو أنه يغفر كل ذنب عدا الشرك به.

ومع كل هذا فلماذا نستكثر على عطف الله، وشفقته قبول عبدٍ ندم، وعاد إلى رحاب الله: معتذراً نادماً منكسراً مستغفراً معترفاً بخطئه، وتجاوزه.

إن الله سبحانه يحب من عبده أن يتضرع إليه حتى إنه يؤخر اجابة دعائه ليسمع منه صوته، وإلحاحه عليه.

يقول أحمد بن محمد بن أبي نصر: قلت لأبي الحسن ـ الإمام الرضا ـ (عليه السلام): (إني قد سألت الله حاجة منه كذا وكذا سنة، وقد دخل قلبي من إبطائها شيء، فقال: يا أحمد إياك والشيطان يكون له عليك سبيل حتى يقنطك. إن أبا جعفر ـ الإمام الباقر (صلوات الله عليه) ـ كان يقول: إن المؤمن يسأل الله عز وجل حاجة فيؤخر عنه تعجيل اجابته حباً لصوته واستماع نحيبه)[1].

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) في حديث آخر: إن العبد ليدعو فيقول الله عز وجل للملكين: قد استجبت له، ولكن احبسوه بحاجته فاني أحب أن أسمع صوته، وإن العبد ليدعو فيقول الله تبارك وتعالى: عجلوا له حاجته فإني أبغض صوته)[2].

صوتان من عبدين كلاهما يدعو الله ويريد منه حاجته، ولكن أحدهما يحب أن يسمعه الله، والآخر يبغض سماعه، ولماذا؟

ولا يمكننا الإجابة عن ذلك لأنه سبحانه هو المطلع على السرائر، وهو يعلم حالة عبده النفسية عندما يتوجه إليه بحوائجه أو يناجيه، ويتضرع إليه.

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ ٢، ٤٨٨ ـ ٤٨٩.

(٢) الكافي / ٢، ٤٨٨ـ ٤٨٩.

إن ما يهمنا في البين هو القول: بأن الله سبحانه يحب من عبده هذا التقرب إليه وهذا الخشوع، ولذلك نرى الدعاء يرفق طلب الداعي من الله: بمنحه قلباً يتفجر منه الخشوع وبعينٍ تنهمل منها الدموع، وكلها وسائل لسمو النفس، وشمولها لرحمته غير المتناهية.

٥ ـ (وأدِّبِ اللَّهُمَ نَزقَ الخُرقِ مِنّي بأزمةِ القُنوعِ).

النزق: نزق الرجل طاش، وخفّ عند الغضب، ونشط.

والخرق: بالضم، الجهل، والحمق، وهو أن لا يحسن الإنسان العمل، والتصرف في الأمور.

أما الزمام: فهو المقود الذي يوضع في مقدمة وجه الحيوان للسيطرة عليه.

وقيل: هو عود يوضع في أنفه ويشد بطرفيه الحبل ليكون ذلك هو المسيطر عليه إيقافاً، وسيراً.

والقناعة: كما يقول اللغويون: الرضا بالقسم تقول: نسأل الله القناعة.

أي الرضا بما قسمه لنا.

ولا يكتفي الإمام (عليه السلام) أن يوجه الداعي ليطلب من ربه أن يفتح عليه صباحه بالفوز، والفلاح، والنجاح، وأن يبارك له في يومه ليستقبل يوماً جديداً نشطاً متكلاً على الله سبحانه بقلب خاشع، وعين من هيبة الله دامعة.

لا: ليس هذا بكافٍ فالنفس عندما تجد الراحة، والمال تطيش، ويأخذها الغرور وتندفع وراء المال وحب الظهور، ويدخلها من الحسد، والحرص، والكبر ما يجعلها منحرفة عن الخط الذي يريده الإمام (عليه السلام) لها، وإن كان العمل، والجهد وصرف الطاقة بالطرق المشروعة.

إن الإمام (عليه السلام) يريد للداعي أن يجمع بين الناحيتين: الاتزان في القصد، والعمل لأجل العيش.

وبعبارة أخرى: بين حياتين دنيوية، وأخروية، ولكل من هاتين الحياتين

ضوابط، وحدود لابد من رعايتها، ذلك لأن النفس البشرية أمّارة بالسوء إلاّ ما رحم الله، وبذلك تهدأ فورتها، ويكبح من جماحها.

ولذلك نرى الإمام (عليه السلام) في دعائه عندما يصل إلى هذه الفقرة يوجه الداعي لأن يختم هذا المقطع بأن يؤدبه بأدبه الإلهي فيبعده عن النزق، والخرق، والمقصود منه الطيش، والغرور، والابتعاد عن المفاهيم التي يريدها الله لعباده.

أما كيف يكون التأديب لهذه النفس الأمارة التي طلب الداعي لها الهداية والصلاح؟.

وهنا تتدخل الأمور النفسية، والصور، والمناظر المناخية للجو الذي صدر فيه الدعاء، أو المجاميع التي كانت تدعو به في تلك الفترات.

وقد سبق لنا أن بينا، في موارد سبقت هذا المورد من الأضواء أن أهل البيت(عليهم السلام) أو أحد المصلحين أو أحد المشرّعين إذا أراد أن يقرب لمجموعة أو لأكثر أمراً من الأمور يكلمهم من الواقع الذي يعيشون فيه ليسهل عليهم الانتقال إلى ما يقصده، ويريد تحقيقه.

وقد اختار أمير المؤمنين (عليه السلام) للداعي منظراً كان يألفه ولا يزال يألفه حتى اليوم رغم مرور السنين المتعاقبة بيّن فيه كيفية تأديب النفس وتحديدها فيما لو طاشت ودخلها الغرور.

لقد كان العرب ولا يزالون يجعلون للبعير، أو الفرس أو أي دابةٍ يركب على ظهرها أو يحمل عليها المتاع مقوداً يوضع في مقدم وجهها ليسيطر عليها إيقافاً، وحركة.

ويطلقون على هذا المقود اسم (الزمام) فيقولون: زِمام الناقة، أو زمام البعير.

وهكذا يتدرج الأمر فيرى لوسائط النقل أيضاً في أيامنا هذه يوضع مقود ليسيطر به على حركة السيارة، أو غيرها من الوسائط.

وقد شبه الإمام (صلوات الله عليه) النفس البشرية بالناقة التي لابد لها من

الزمام للسيطرة عليها.

وزمام الناقة من ليف، أو حبل، ولكن ما هو زمام الإنسان، ومقوده ليسيطر به عليه ونرجع إلى الإمام (عليه السلام) لنرى ما وضع للنفس من زمام، وهو الطبيب الأكبر؟

ومن خلال هذه الفقرة من الدعاء يأتي الجواب حيث يقول:

(وأدب اللهمّ نَزَقَ الخُرْقِ مني بأزِمَّةِ القنوع).

لقد رأى (صلوات الله عليه) القناعة خير زمامٍ يقيد الإنسان في حياته الاجتماعية وفي خلواته الشخصية.

وما هي القناعة؟

انها الرضا بما قسمه الله لعبده واختاره له.

هذه هي القناعة، وهي التي اختارها الإمام لتقف في طريق الإنسان الطائش الخرق لتوقفه عند حده وتجعل منه إنساناً متكاملاً متطامناً مسلماً.

تقول مصادر التاريخ: إن حكيماً من الحكماء كان جالساً بالقرب من عين ماء يشرب من الماء الذي يتواجد فيها، ويأكل مما يسقط من الأشجار التي كانت تحيط بتلك العين.

وتشاء الصدف أن يمر رجل عابر على ذلك الحكيم فيرى ما يأكل، وما يشرب فيرق لحاله فيقول له: لو خدمت السلطان لما احتجت إلى أكل هذا. فأجابه الحكيم: وأنت لو قنعت بهذا لما احتجت إلى صدقة السلطان.

ومن المعلوم أن ذلك الحكيم لم يقصد بقوله: لو قنعت بهذا الاقتصار على أكل ما يسقط من الشجر، والشرب من تلك العين، بل يريد أن يعطيه قاعدة كلية يطبق عليها أجواء حياته حيث يكون قانعاً متطامناً، فإن الاكتفاء بالقليل مع العز أولى من حصول الكثير مع الذل، والنوم على الحصير مع الكرامة خير من النوم على الوثير بمهانة، والأكل مما تجنيه يده خير من التسكع على موائد الغير متسكعاً.

وفي الأخبار أن رجلاً من أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله) (اشتدت فاقته، فقالت له

امرأته: لو أتيت رسول الله(ﷺ) فسألته. فجاءه ليسأله فلما رآه النبي (ﷺ) قال: من سألنا أعطيناه، ومن استغنى أغناه الله. فقال الرجل: ما يعني غيري فرجع إلى امرأته فأعلمها. فقالت: إن رسول الله (ﷺ) بشر فأعلمه. فأتاه فلما رآه قال: من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله، حتى فعل ذلك ثلاثاً، ثم ذهب الرجل واستعار معولاً، واشتغل بالاحتطاب وابتياعه حتى اشترى بكرين [1] وغلاماً ثم أثرى حتى أيسر فجاء إليه (ﷺ) فأعلمه كيف جاء يسأله وكيف سمع منه قلت لك: من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله... الخ) [2].

إن النبي الأكرم(ﷺ) ومن خلال هذه المحاورة نلحظه لم يؤنب هذا المحتاج ويردّه رداً عنيفاً، بل تدرج معه فأظهر له بأنه على استعداد لعطائه، ولكنه لو استغنى، وقنع أغناه الله من فضله.

وفعلاً فقد قنع الرجل بنصف مدٍ من الدقيق في اليوم الأول وهكذا إلى أن وسّع الله عليه فأغناه بالثراء.

ومن هنا نعرف ما يريده أمير المؤمنين (عليه السلام) من كلمة «القناعة كنز لا يفنى».

وعلينا أن نرى لماذا استعمل الإمام كلمة الجمع في قوله: (أزمة القنوع) مع أن زماماً واحداً، وهو القناعة من حيث هو كافيه لايقاف الإنسان عند حده.

والجواب: صحيح أن الزمام الذي فرضه (صلوات الله عليه) هو زمام واحد وهو القناعة، ولكن نظراً للعوامل التي تعبث بالنفس طيشاً، وغروراً وجهلاً فقد فرض لكل حالةٍ زماماً خاصاً، وإن كان الزمام في الجميع واحداً إلاّ أنه واحد موزع إلى آحاد، ومقسّم إلى كل موضوع على حده ـ وعلى سبيل المثال ـ لنأخذ واحداً من عوامل طيش النفس، وغرورها، وهو الحسد فإن الأخبار قد حدثت عنه، فقالت:

---

(١) البكر: الفتى من الإبل والأنثى بكرة.

(٢) الشيخ الكليني: الكافي/ ٢/ ١٣٩.

(وإن الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب) [١].

وقد جاء عن رسول الله (ﷺ) إن الله قال لموسى بن عمران (عليه السلام): (يا ابن عمران لا تحسدن الناس على ما آتيتهم من فضلي، ولا تمدن عينيك إلى ذلك، ولا تتبعه نفسك فإن الحاسد ساخط لنعمي صاد لتقسمي الذي قسمت بين عبادي ومن يك كذلك فلست منه وليس مني) [٢].

ودواء هذه الحالة هي القناعة، ولو كانت القناعة إنساناً لتحدثت مع هذا الحاسد لتقول له:

إن هذا الشخص الذي أفاض الله عليه من نعمة لا يخلو الحال فيه:

فإما أن يكون مؤمناً.

أو أنه ليس بمؤمن.

أما لو كان مؤمناً فلماذا يحسد الإنسان أخاه المؤمن؟ وهو يعلم أن الذي رزق هذا هو الله سبحانه، وهو قادر على أن يرزقه أيضاً ويعطيه بمقدار ذلك أو بأكثر منه، ولكنه سبحانه حيث منع، فإن القضية ترجع إلى المصالح، والمفاسد، ولاشك أن المصلحة تأخذ دورها في هذه الحالة وإلاّ فإن قاعدة العدل، والإنصاف تأبى على مثل الله سبحانه، وهو العادل في بريته أن يعطي أحداً، ويمنع آخر وكلاهما مؤمن بالله.

وأما لو كان غير مؤمن فلربما يظن أن هذه نعمة من الله على غير المؤمن، وحرمان للمؤمن، وفي هذه الصورة نرى الآية الكريمة تهون الأمر على الحاسد لتنهاه عن هذه الحالة فتقول: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [٣].

وصحيح أنه متاع، ولكنها مباهج، ومناظر سرعان ما تذهب وتذبل، ولا يبقى

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ ٢، ٣٠٦ـ٣٠٧.

(٢) الكافي / ٢، ٣٠٦ـ٣٠٧.

(٣) سورة طه: الآية، ١٣١.

منها شيء، وبعد كل هذا فليس هو متاعاً يُستمتع به.

إنه امتحان يراد من ورائه اختبارهم به ﴿ لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ ﴾ وترى كيف يخرجون من وراء ذلك الاختبار؟.

وقيل إن المراد من الفتنة هنا أي لنشدد عليهم بذلك.

وترقى بعض المفسرين فقال: إن معنى قوله تعالى: ﴿ لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ ﴾ أي لنعذبهم به لأن الله قد يوسع في الرزق على بعض أهل الدنيا تعذيباً له، ولذلك قال (عليه السلام): «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء» [1].

ويؤيد هذا الرأي الأخير ما جاء في آية أخرى حيث قال سبحانه تعالى:

﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [2].

جواباً على صدر الآية من قوله عز وجل:

﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ ﴾ [3].

والآية الكريمة وإن كانت قد نزلت لبيان حال الكافرين، ولكنها تعطي قاعدة عامة بالنسبة لمن فضل الله عليه في الرزق وهو ليس بمؤمن ولا بمرضي السلوك وإذا كان الأمر كذلك عدنا إلى ذيل الآية الكريمة الأولى لنرى كيف يصبّر الله سبحانه المؤمنين الذي أمرهم أن لا يمدوا بأعينهم إلى ما في أيدي الآخرين فيقول:

﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴾.

فقليل منظور مبروك من قبل الله تعالى خير من كثيرٍ يراد منه الاختيار وأبقى، وأدوم وهذا معنى القناعة، والرضا بما قسمه لعبده.

ويقول الإمام الباقر (عليه السلام) وهو يصبّر بعض أصحابه في مواجهة ما يصيبه من شحة في الرزق (إياك أن تطمح بصرك إلى من هو فوقك، فكفى بما قال الله عز وجل

---

(١) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية، الكريمة.

(٢) سورة آل عمران: الآية، ١٧٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية، ١٧٨.

لنبيه (ﷺ): ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ (١). وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (٢). فإن دخلك من ذلك شيء فاذكر عيش رسول الله (ﷺ): فإنما كان قوته الشعير، وحلواه التمر، ووقوده السعف، إذا وجده) (٣).

قوت رسول الله (ﷺ) وهو قائد المسلمين، وزعيمهم الروحي، وبيده كل شيء من بيت المال، وغيره، الشعير وحلواه التمر، أما وقوده فهو السعف وذلك إذا وجده، وأما لو لم يجده فأمره، وأمر عياله إلى الله.

وهذا هو معنى القناعة وهذه أزمة النفس يكبح بها جماح النفس.

فالحسد مثال من أمثلة طيش النفس وغرورها وقد عرفت كيف تكون القناعة زماماً للنفس للوقوف في طريق ملاحقة ما في أيدي الآخرين.

ومثال آخر نستعرض من خلاله مصداقيته لطيش النفس، وغرورها، وهو:

الحرص والتكالب على ما في هذه الدنيا والركض خلف المال بنحوٍ يبعد الإنسان عن المفاهيم التي يريدها الإسلام للإنسان في هذه الحياة من صرف المال في طرقه المشروعة المقررة، ولو كان ذلك الصرف على نفسه، وعياله، والابتعاد عن الصرف غير المشروع مهما كان نوع الصرف، ودواء هذه الحالة: القناعة.

فبها يدفع الإنسان الحرص، ولا يدع مجالاً لنفسه أن تنهمك ركضاً وراء المادة لتبعد عن المعنويات الروحية.

ومعاً لنستمع إلى أمير المؤمنين ، وهو يحدث عامله عثمان بن حنيف على البصرة في كتاب أرسله إليه بعدما سمع أنه دعي إلى مأدبة تستطاب فيها الألوان.

إن هذا الكتاب وإن كان قد أرسله إلى عامله، ولكنه درس قيم تضمن ما يلزم على الإنسان أن يعمله، وعلى الأخص لو كان مسؤولاً عن الآخرين، ومكلفاً

---

(١) سورة التوبة: الآية، ٥٥.

(٢) سورة طه: الآية، ١٣١.

(٣) الشيخ الكليني: الكافي/ ٢، ١٣٧ ـ ١٣٨.

برعايتهم وقد بين (صلوات الله عليه) في بعض فصوله كيف يكافح الإنسان ظاهرة الحرص، وشره النفس في الحصول على المادة في هذه الحياة.

يقول (صلوات الله عليه):

(ألا وإن لكل مأمومٍ إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه. ألا، وإن امامكم قد اكتفى من دنياكم بطمريه، ومن طعمه بقرصيه. ألا، وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورعٍ واجتهاد، وعفةٍ وسداد. فوالله ما كنزتم من دنياكم شبراً، ولا ادخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً) [(١)].

هذه دنيا ابن أبي طالب: رجل الإيمان، والعقيدة، رجل الفناء في ذات الله، رجل العدالة الاجتماعية، وبطل الإسلام الخالد.

لقد عرض (صلوات الله عليه) عبر هذه الفقرات من كتابه صوراً من حياته لتكون مناراً يسير على هداه كل من أراد أن يسلك طريق العظماء الخالدين.

ولنمعن في هذه الصور لنستوحي من مناظرها الأسس المتينة لنبني عليها حياتنا على الصعيدين الداخلي والخارجي.

ملبسه: إنه لا يتجاوز ـ وهو أمير المؤمنين ـ والشخصية اللامعة في المجتمع الإسلامي، وعلى الأخص عندما كان خليفة المسلمين (هذين الطمرين وهما ثوبان خلقان) لا يملك غيرهما.

وأما قوته: فلم يكن يزيد على (قرصين من خبز الشعير)، وكان يحفظهما في جرابٍ ـ كيس ـ يشد طرفه لئلا تمتد إليه يد رحيمة من عياله، أو ولديه الحسنين فيضيفوا إليه شيئاً من العسل، أو غيره ليطيب طعمه، ولربما أضاف إلى الخبز شيئاً من الملح، أو اللبن وكان يحرص على ألا يجمع بينهما، فإما الملح، وإما اللبن لأنه لم يرغب أن يجمع بين إدامين في طبق واحد كما صرح بذلك.

---

(١) نهج البلاغة: ٣، ٧٠، طبعة دار المعرفة – بيروت.

وكان خبزه من اليُبس بحيث قد يضطر في بعض الأحيان من وضعه على ركبته ليكسره.

وأما رصيده المالي فقد قال عنه، وهو الصادق في حديثه:

«فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا أدخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً» (١).

وليس من العجيب أن يعلن (صلوات الله عليه) أنه لم يكنز شيئاً من الذهب أو يوفر لنفسه شيئاً من المال، ولكن العجب يأخذ من الإنسان مأخذه، وهو يقف أمام الفقرة الأخيرة من كلامه حيث نراه يقسم بالله انه لم يدخر ثوباً آخر بدلاً من ثوبيه اللذين كان يلبسهما كل يوم ولم يبدلهما بشراء ثوبين آخرين حتى يبليا.

ولا عجب حتى بهذا النحو من الشظف في العيش والملبس بعد أن قال:

(لقد رقعت مدرعتي حتى استحييت من راقعها) (٢).

وفي منظر آخر يدخل عليه ابن عباس فيراه يخصف نعله.

وامام هذا المنظر لنقول:

يا سبحان الله، والحيرة تأخذ على الإنسان مسالك تفكيره.

أمير المؤمنين، وبيت المال بيده.

أمير المؤمنين، والغنائم كلها تحت تصرفه.

أمير المؤمنين، وهو متقلد أعلى منصب في الدولة الإسلامية.

ومع ذلك هذا ما يلبسه، وهذا قوته، وهذا رصيده الاحتياطي.

هذه هي القناعة، وهذا نموذج من زمام النفس يعرضه (عليه السلام) ليخط بقلمه

---

(١) نهج البلاغة: ٢، ٧١.

(٢) المصدر المتقدم: ٢، ٦١.

صورة حية إلى الرجل القانع الراضي بما قسمه الله لعبده في هذه الحياة.

وليثبت إلى الجميع بأن الدنيا، مهما عمر فيها الإنسان ومهما أثرى، ومهما أوتي من حول، وقوة فإنها دار ممرٍ يأخذ منها الإنسان، إلى مقره الأخير ما يسعى في الحصول عليه فإن سعى إلى الخير فزاده الخير، وإن مال إلى الشر فزاده الشر.

ولكنه (صلوات الله عليه) وهو العالم بنفوس الناس، وطاقاتهم، وبقدراتهم في مجال مقاومة النفس التي وصفها القرآن الكريم (بأنها الأمارة بالسوء) يعود فيهون على الناس عدم قدرتهم على هذا النوع من القناعة في الدنيا فيعذرهم إذا ما لم يتمكنوا من أداء مثل هذا الامتحان قائلاً:

(ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك).

لأنكم بشر، وللبشر غرائزه، ولكل بين جنبيه نفس إلى الهوى تميل، والشيطان يتربص بكم الدوائر، ولكن الإمام حرصاً منه على هذه الأمة يعود فيقول:

(ولكن أعينوني بورع، واجتهاد، وعفة، وسداد).

(أعينوني بورعٍ واجتهاد).

والورع: هو الكف عن المعاصي ومجانبة الإثم، والاجتهاد هو بذل الوسع في طلب الشيء والإمام (عليه السلام) يطلب من المجموعة الخيّرة التي لا تتمكن من ضبط النفس بالقناعة بالشكل الذي يقوم هو به أن تتورع عن محارم الله وتبذل الوسع في التحري عن الحلال والحرام لئلا يقع الإنسان في مخالفة حكم من أحكام الله.

(وعفةٍ، وسداد).

وهذه الفقرة تأكيد للجملة السابقة فإن العفة هي الكف عما لا يحل قولاً وفعلاً:

فالورع العفيف السديد الرأي هو الذي يتمكن أن يجتاز هذه العقبات الدنيوية

ليثبت بأنه الإنسان المسلم الذي يسلم الناس من يده ولسانه، وهو المسلم في عمله وأفعاله.

وهناك أمثلة أخرى تصح أن تكون مصداقاً للقناعة، وضبط النفس من الكبر، والعجب، وما شاكل من الرذائل التي تزيل من القلب صفاءَه، وخلوصه في العمل لذات الله، وللتقرب إليه.

ومن عرض ما للحسد من تأثير على النفس، والحرص، وماله من الوقوف في طريق سموها إلى رحاب الله نعرف السبب الذي حدا بالإمام (عليه السلام) أن يطلب من ربه أن يؤدب نفسه بفرض أزمة عديدة لنفسه، وإن كانت تلك الأزمة ترجع إلى زمام القناعة بمفهومها العام.

وقد عرفنا مما تقدم، من عرضنا لأفعال النفس التي لابد من معالجتها أن قناعة النفس ومنعها من صفة الحسد يختلف عن قناعتها ومنعها عن صفة الحرص والانهماك وراء الشهوات.

فمنع النفس عن الحسد يرجع إلى أمورٍ نفسية لابد للإنسان من أن يعملها فلا ينظر إلى ما في أيدي الغير من نعمٍ أنعمها الله على ذلك الغير.

أما قناعة النفس، ومنعها عن الحرص، فإن ذلك يرجع إلى عالم الأفعال، وعدم اجهاد النفس بالعمل وراء المادة.

وهكذا الحال في بقية الصفات، ولأجل ذلك عبر (عليه السلام) بقوله:

«أزمة القنوع» ولم يقل: وأدب اللهم نزق الخرق مني بزمام القنوع.

أو «بزمام القناعة».

المقطع الرابع:

١- إلهي إنْ لَم تَبتدِئني الرَّحمةُ مِنكَ بِحُسن التَّوفِيق فمن السالكُ بي إليك في واضحِ الطريقِ.

٢ - وإنِ أسلمتني أناتُك لقائِدِ الأملِ والمُنى فمن المُقيلُ عثراتي مِن كبواتِ الهوى.

٣ - وإن خذَلني نَصرُك عندَ مُحاربةِ النَّفسِ والشَّيطانِ فقَد وكَلني خِذْلانُكَ إلى حيثُ النَّصبِ والحِرمان.

٤ - إلهي أتَراني ما أتيتُك إلاّ من حَيثُ الآمالِ أم علِقتُ بأطرافِ حِبالِك إلاّ حينَ باعدتني ذُنوبي عن دارِ الوصالِ.

٥ - فَبِئسَ المطيّةُ التّي امتطتْ نفسي مِن هَواها فواهاً لَها لِما سَوّلت لها ظُنونُها ومُناها.

٦ - وتباً لها لجُرأتها على سيِّدِها ومَولاها.

٧ - إلهي قرعتُ بابَ رَحمتِكَ بيدِ رَجائي.

٨ - وهربتُ إليكَ لاجئاً من فَرطِ أهوائي.

٩ - وعلّقتُ بأطرافِ حِبالك أناملَ وَلائي.

١٠ - فاصفَح اللّهُمَ عما كُنتُ أجرمتُهُ من زَللي وخَطائي.

١١ - واقِلني من صَرعةِ رِدائي.

١٢ - فإنَّك سَيدي ومولاي ومعتمدي ورجائي.

١٣ - وأنتَ غايةُ مطلوبي وَمُناي في منقَلبي ومَثواي.

حرية الإنسان بالنسبة إلى أفعاله كانت مدار جدلٍ ونقاش بين الفرق الإسلامية فيما مضى من الزمن.

فالبعض يراه مجبوراً من قبل الله في جميع أفعاله، بينما يراه آخرون مختاراً في كل ما يفعل ولا دخل لله فيما يعود إلى كل شيء يقوم به في هذه الحياة.

وذهب غير هؤلاء إلى الحد الوسط بين هذين القولين والالتزام بمبدأ الأمر بين الأمرين.

قال القاضي عبد الرحمن الايجي: (المقصد الأول: في أن أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله وحدها. وقالت المعتزلة: بقدرة العبد وحدها. وقالت طائفة: بالقدرتين) [1].

وقد أطلق على أصحاب القول الأول اسم (المجبرة).

بينما أطلق على أصحاب القول الثاني اسم (المفوضة).

وأما أصحاب القول الثالث: فهم القائلون بـ (الأمر بين الأمرين أو المنزلة بين المنزلتين).

مع الأقوال الثلاثة:

الجبر، والتفويض، والأمر بين الأمرين.

القول بالجبر:

القول بالجبر هو اعتبار قدرة الله هي المؤثر الحقيقي في فعل وايجاده على نحوٍ يسلبه الصلاحية التامة في اختياره ما يريد.

ولكن للقائلين بهذا المسلك أقوال أوصلوها إلى ثلاثة [2] وربما يضاف إليهم

---

(١) عبد الرحمن الايجي: المواقف في علم الكلام/ ٣، ٢٠٨، الناشر: دار الجيل. (والقاضي أشعري المسلك).

(٢) راجع السيد عبد الأعلى السبزواري: مواهب الرحمن في تفسير القرآن/ ١، ١٥٥.

قول الفلاسفة [1]، ولكن الجميع يرجع إلى القول بالجبر ،وإن تعددت أشكاله ومظاهره.

ويأتي في مقدمة هذه الأقوال، قول الجهمية، والأشاعرة القائلين بأن العبد مجبور على أفعاله لأنها مخلوقة لله سبحانه، وليس له أي دخلٍ فيها، وأن حركاته بمنزلة حركة الجمادات لا قدرة له عليها، ولا قصد له فيها، ولا اختيار.

ويقولون: إن كل ما يصدر من العبد من طاعة أو معصية فإنما هو بقدرة الله سبحانه وقضائه لأنه الفاعل الحقيقي، وأما العبد فهو كالآلة ينفذ ما يريده الله منه تعالى في مجال الخير والشر ففي الحقيقة تكون نسبة الأفعال الصادرة من العبد إلى الله حقيقة وإلى العبد مجازاً كما يقال:

أثمرت الشجرة، وطلعت الشمس، وأمطرت السماء، وكتب القلم.

أدلة القول بالجبر:

استدل القائلون بالجبر بالأدلة النقلية والعقلية:

أما الأدلة النقلية: فقد استدلوا بجملة من آيات الكتاب الكريم التي توهم دلالتها على أن العبد مجبور في أفعاله، ومن تلك الأدلة: ما جاء في قوله تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [2].

ولا إشكال في أن أفعال العباد شيء من الأشياء فيكون الله سبحانه خالقها.

الجواب عنها: إن هذه الآية وأمثالها مما يوهم ظاهرها الدلالة على الاضطرار معارضة بآيات أخرى صريحة في الاختيار، وذلك كما جاء في قوله تعالى:

---

(١) يقول الفلاسفة إن الأفعال مستندة إلى إرادة العبد، ولكن هذه الإرادة تنتهي إلى الإرادة الأزلية، وهي إرادة الله فالأفعال مستندة إلى الله حقيقة، ولكن بوساطة إرادة العبد، وتكون النتيجة: أن العبا عندهم مختار في فعله مضطر في اختياره، وإذاً فمفاد هذا القول رجوعه إلى الله بالجبر أيضاً.

(٢) سورة الرعد: الآية، ١٦.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [(١)].

على أن هذه الآية في مقام نفي تعدد الشركاء (الآلهة) واثبات التوحيد، وأنه تعالى هو الخالق.

يضاف إلى كل ذلك أن هذه الآيات [(٢)] الموهمة للاضطرار، لا يمكن التمسك بها في المسألة العقلية حيث يمكن التمسك بالدليل اللفظي في المسألة العقلية، وحينئذٍ فلو فرض مخالفة آية من الآيات لما حكم به الوجدان فلابد من صرفها عن ظاهرها لاحتفافها بالقرينة المتصلة، وهي الوجدان، والدليل العقلي الدال على الاختيار ومع ذلك لا يبقى مجال لانعقاد الظهور في هذه الآيات [(٣)].

نبقى نحن وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [(٤)].

حيث حصرت الآية إشاءة العبد بعد إشاءة الله فالنتيجة أن الإشاءة الإلهية هي التي تقتضي الصدور وتأتي هذه الآية في مقدمة ما يستدل به القائلون بالجبر.

والجواب عنها: يتضح من تحليل نظرية الأمر بين الأمرين من إشتراك الإشائتين لصدور الفعل فلو لم يشاء الله لم تتحقق الإشاءة من العبد.

ولكن لا ينافي ذلك صدور الفعل من العبد باختياره.

على أن القول بالجبر يستلزم:

نسبة الظلم إلى الله سبحانه إذ ما معنى أن تقول: إن الله يجبر عبده على المعصية

---

(١) سورة الدهر: الآية، ٣.

(٢) من قبيل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ سورة الصافات: الآية، ٩٦. وقوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ سورة إبراهيم: الآية، ٤. ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ سورة الأنفال: الآية، ١٧.

(٣) أجاب بذلك سيدنا الأستاذ الامام السيد الخوئي في بحثه (الأصول) عند تطرقه لمشكلتي الجبر والتفويض.

(٤) سورة الإنسان: الآية، ٣٠.

ثم يعاقبه عليها ،وهل يعقل أن يعاقب الله عبداً على فعلٍ أوجده الله بنفسه فيه، وإذا لم يكن هذا من الظلم فأين يتحقق الظلم إذاً؟.

ثم أليس هذا من مصاديق قول الشاعر:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له   إياك إياك فأحذر سورة الغرق

إن صدور هذا قبيح من البشر فكيف بخالقهم المنزه عن كل عيب.

على أن القول بعقاب العاصي وعدم إثابة المطيع يستلزم لغوية بعث الرسل وإنزال الكتب فما يصنع الرسول والعبد مجبور على المعصية وكيف يأمر بمعروف والعبد لا يثاب عليه أم كيف ينكر المنكر، وهو مجبر على فعله؟

ومن هذه الزاوية وتهرباً من هذا الإشكال ذهب جماعة ممن تقول بهذه المقالة إلى القول باستحقاق العقاب لمن عصى وبحصول الثواب لمن أطاع حتى ولو كان العبد آلة ينفذ رغبات الغير ولا حول له ولا قوة من هذه الجهة.

ونسب هذا الاستدراك إلى زعيم الأشاعرة (الشيخ أبو الحسن الأشعري) مستنداً فيما ذهب إليه من القول بالاستحقاق للثواب والعقاب مع القول بالجبر إلى القول بالكسب في أفعال العبد وتوضيح ذلك:

إن العبد، وإن لم يكن مختاراً في أفعاله إلاّ أنه هو الكاسب في ذلك لأن فعله كسب له فيكون فعله مقارناً لاختياره فيعاقب ويثاب عليه.

ويرد ذلك: بأن العبد لو كان مجبوراً على أفعاله فهل يصحح العقاب مقارنة الفعل للاختيار مع أن المفروض عدم دخل الاختيار في صدور الفعل من العبد.

ثم أليس هذا نظير مقارنة الفعل لطول العبد وقصره [1].

ومن جملة ما يلزم من المحاذير على القول بالجبر تعطيل العقل وشل حركته، وحينئذٍ فما الفائدة في تزويد الإنسان بجوهرة العقل، وهو مجبور على أفعاله؟.

---

(١) الامام السيد الخوئي في بحث الأصول.

أليس العقل هو المقياس في إجراء التكاليف عليه؟.

ألم يقل القرآن الكريم: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (١).

وإذا كان الإنسان آلة في يد غيره يجبره على المعصية والطاعة ولا دخل للعقل في ترك ذاك واختيار هذا فلماذا إذاً يهديه السبيل؟ وقد فسر السبيل بأنه طريق الخير وطريق الشر أو أنه التكاليف الشرعية أو معرفة الحق من الباطل أو غير هذا وذاك من أقوال المفسرين وآرائهم.

كل ذلك لا داعي له ما دام العقل في مجنب من هذه المسيرة، وحينئذٍ فلا خوف من الله كما لا رجاء لعفوه ومغفرته، بل يأس، وقنوط، وخيبة أمل.

ألم ينهى الله عن القنوط في كتابه حيث قال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ (٢).

ألم يعبر في آية أخرى عن القانط من رحمة الله بالضال فقال:

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (٣). بل عبرت آية ثالثة عن اليائس بالكافر، فقالت: ﴿إِنَّهُ لَا يَايْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٤).

وأما ما استدل به للقول بالجبر من الأدلة العقلية فقد نوقشت من قبل غيرهم ولم نتعرض لها تهرباً من إطالة البحث.

مع القائلين بالتفويض:

القائلون بالتفويض هم القدرية وهم أتباع (معبد الجهني، وغيلان الدمشقي) والمعتزلة، وفحوى مقالتهم:

---

(١) سورة الإنسان: الآية، ٣.

(٢) سورة الزمر: الآية، ٥٣.

(٣) سورة الحجر: الآية، ٥٦.

(٤) سورة يوسف: الآية، ٨٧.

إن الله أعطى الإنسان الحرية الكاملة بالنسبة لأفعاله، وأنه هو الذي يقدّر ما يعمله بنفسه ويتوجه إليها بإرادته ثم يوجدها بقدرته لأن الله خلق الإنسان وزوده بالعقل وفوض الأمر إليه وتركه يعمل لنفسه ما يشاء في هذه الحياة.

خيره له وشره عليه وتنحى هو عن كل قضاء وقدر.

وقد استدل القائلون بالتفويض بآيات من الكتاب الكريم قالوا بأنها تدل على مدعاهم من إناطة الأمور إلى العبد في أفعاله.

منها: قوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾(١).

ومنها: قوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾(٢).

ومنها: قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(٣).

ومنها: قوله عز وجل: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٤).

وغير هذه الآيات المعبّرة عن تحمل الإنسان مسؤولية نفسه في عمله ولا دخل لله فيها.

والجواب عن ذلك: إنا نسلّم أن هذه الآيات تعطي تحمل الإنسان مسؤولية نفسه بالنسبة لأفعاله، ولكن ذلك لا ينافي أن الله يحتفظ بصلاحيته في القدرة على كل شيء حتى ولو كان ذلك فعل العبد وعمله لأن اقصى ما تدل عليه هذه المجموعة من الآيات أن الإنسان وما يعمل، وأما أن الله سلخ سلطانه وسحب صلاحيته بحيث لا دخل لقضائه وقدره فيما يعود إلى العبد وأفعاله فهذا ما لا تعطيه الآيات المذكورة وغيرها.

على أنها من هذه الجهة، معارضة بالآيات الدالة على أنها من الله عز وجل قال

---

(١) سورة الطور: الآية، ٢١.

(٢) سورة غافر: الآية، ١٧.

(٣) سورة الكهف: الآية، ٢٩.

(٤) سورة الجاثية: الآية، ٢٨.

تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [١]. والآيات الدالة على طلب الاستعانة منه تعالى نحو قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [٢].

ولما ورد عن المعصومين (عليهم السلام) من قول: (لا حول ولا قوة إلاّ بالله) فإن الجميع ظاهر في صحة نسبة أعمال العباد إلى الله تعالى، إما بنحو القضاء كما في السيئات، أو هو والرضا معاً كما في الحسنات، وقضاه ورضاه ليسا من العلة التامة.

وبالجملة: إن الآيات والروايات لا يمكن أن يستفاد منها التفويض الكلي للعباد المقابل للجبر، ويمكن حمل كلامهم على التفويض الاقتضائي بأن يقال: إن نهاية استغنائه تعالى عن خلقه يقتضي إيكال الإرادة إلى العباد بعد بيان طريق الحق والباطل، وإتمام الحجة عليهم، ولكنه لم يفعل لمصالح كثيرة بل جعل إرادته مسيطرة على إرادة عباده لا على نحو يلزم منه الجبر، وهذا هو ما يظهر من بيان الأمر بين الأمرين [٣].

وعلى أي حال، إن بطلان قول المفوضة واضح لاستلزامه سلب صلاحية الله وانسلاخه عن سلطانه، وهذا معناه ثبوت النقص له، وهو محال عليه ـ وفي الوقت نفسه ـ هو منزه عنه.

(على أن البقاء لهذا الخلق كالحدوث محتاج إلى الخالق، وإفاضته جل جلاله لوحدة الملاك في الحدوث والبقاء فإن الملاك هو الإمكان، وهو مشترك بين الحدوث والبقاء) [٤].

ومن الغريب أن المفوضة التزموا بالتفويض فراراً عما يلزم من القول بالجبر من الظلم وغفلوا عن أن نتيجة قولهم هو الشرك لأن ما أعطوه إلى العبد من الحرية

---

(١) سورة النساء: الآية، ٧٨.

(٢) سورة الحمد: الآية، ٤.

(٣) السيد عبد الأعلى السبزواري: مواهب الرحمن في تفسير القرآن/ ١، ١٥٩.

(٤) الامام السيد الخوئي في بحث الأصول.

والاستقلال في الايجاد والفعل فرع الاستقلال في الوجود، وهو مختص بالله تعالى.

وبالجملة، المفوضة حافظوا على عدل الله تعالى، ولكن سلبوا منه سلطانه، والمجبرة حافظوا في سلطانه، ولكنهم سلبوه عدله فهم بين إفراط وتفريط.

ولذلك نرى أهل البيت (عليهم السلام) وضعوا حداً لهذا التهافت بين هذين القولين وخصموا النزاع بـ:

(القول بالأمر بين الأمرين).

كما صرح بذلك الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) عندما سُئل عن أفعال العباد فأجاب قائلاً:

(لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين) أو (منزلة بين المنزلتين) [1].

وهو عندما يقول ذلك ينزه الله سبحانه عن الظلم، والنقص، ويقول بالحد الوسط لأن الله تعالى خلق العباد، ومنحهم الاختيار الكامل في أفعالهم لم يجبرهم على شيء بل ترك الأمر إليهم، فلهم أن يعملوا لينالوا الثواب، ولهم أن يتركوا لينالوا العقاب مع اختصاصه بصلاحيته التامة في منعهم لما يختارونه أو إجبارهم على ما لا يختارونه.

أما كيف ومتى يعمل هذه القدرة فذلك موكول إليه لا إلينا تبعاً للمصالح والمفاسد وحاشاه أن يمنع، أو يجبر أحداً عبثاً لأنه منزه عن العبث والعيب.

وبناءاً على هذا، يتجه العقاب على المعصية، والثواب على الإطاعة لأن الفعل صدر باختيار العبد فيعاقب، ولم يفوض الأمر إلينا. لم يجبرنا على الفعل، ولم يفوض الأمر إلينا.

وفي مقام توضيح هذه النظرية، قال سيدنا الأستاذ السيد الخوئي في مجلس الدرس:

إن كل فعلٍ يصدر من العبد له جهتان، وإضافتان:

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ ١، ١٦٠.

إضافة إلى الله تعالى لأنه معطي الحياة، والقدرة لعبده.

وإضافة إلى العبد نفسه لأنه أعمل تلك القدرة في صدور الفعل.

وقد مثل (حفظه الله) لإعمال هاتين القدرتين في وقت واحد بمثال تقريبي قال فيه:

إنا لو فرضنا إنساناً أصيب بشلل في يده بنحو لا يتمكن من تحريكها إلاّ بإيصال الشحنات الكهربائية لها فلو أوصل الطبيب هذه الشحنات بوساطة سلك إلى يده فتمكن المريض من تحريك يده واستعمالها فيما يريد، وفي هذه الصورة لو تصدى هذا المريض فقتل شخصاً أو تجاوز على أحدٍ غير القتل والطبيب بيده السلك يرى ماذا يصنع فلا شبهة حينئذٍ أن هذا الفعل لا يكون مستنداً إلى المريض على نحو الاستقلال لأنه يستمد قوته من غيره وهو الطبيب الذي يسعفه بهذه الطاقة الكهربائية ـ وفي الوقت نفسه ـ لا يستند إلى الطبيب مستقلاً لأن الفعل صدر من المريض باختياره وتمكنه من عدمه إذا كان متمكناً أن لا يقتله فهو غير مجبور على ما صدر منه.

وقد قرب سيدنا الأستاذ ـ دام ظله ـ المثال بشكل أوضح عندما بيّن بأن الكلمة الشريفة التي يقولها المصلي عند نهوضه من السجود قائماً «بحول الله وقوته أقوم وأقعد»، تشير إلى الأمر بين الأمرين، وذلك: لأن القيام والقعود، وإن كان مستنداً إلى نفس المصلي، ولذا يقول: أقوم، وأقعد. ولكن هذا الاستناد إليه ليس على نحو الاستقلال بل هو بحوله وقوته لأنه هو مصدر القوة والقدرة الممنوحتين للمصلي في تمكنه من مباشرة أفعاله.

وقال سيدنا معقباً: ولعل وجه الاستحباب في إتيان هذه الكلمة في الصلوات تنبيه العباد بأن الأفعال مستندة إليهم وصادرة عنهم اختياراً، وفي عين الحال هم غير مستقلين في الإيجاد بل يحتاجون إلى إفاضة الفيض منه جلت عظمته.

وقد يعترض على هذه النتيجة: بأن الله إذاً له دخل في القتل إذا صدر من أحدٍ إذ لولا القدرة الممنوحة للعبد من قبل الله لم يتمكن العبد من إصدار هذا الفعل وتحقيق

القتل، ومن الواضح أنه سبحانه أجل من أن يوصف بذلك أو ينسب إليه مثل هذا الفعل.

والجواب عن ذلك: إن الله سبحانه منح القدرة لعبده ولكنها القدرة باطارها العام ـ وفي الوقت نفسه ـ منحه العقل وجعله مختاراً في فعله وبيّن له ما في هذا الفعل من العقاب والمخالفة وحينئذٍ فلو عصى العبد وفعل فإنما يفعل باختياره لا باختيار الله لأنه سبحانه لم يتدخل في قدرته بخصوص هذا الفعل.

نعم: لو أراد منعه كان متمكناً من ذلك، ولكنه لم يتدخل في المنع لأن ذلك يستلزم تعطيل العقل وصلاحيته، وليس معنى عدم تدخله ثبوت اشتراكه معه في الفعل لمجرد أنه منحه الحياة والقدرة على الأفعال.

نعم، لو لم يمنحه العقل، ولم يبين له الأحكام، ولم يهده إلى السبيل كان لهذا الاعتراض وجه، ولكن قد عرفت خلافه فلا وجه إذاً للإشكال المذكور.

هذا عرض موجز لمشكلة الجبر والتفويض والخلاص من هذه المشكلة ببيان الحل الوسط بينهما الذي أنهى نقاشاً وجدالاً كان السبب في تفريق كلمة الكثير من المسلمين في تلك الأدوار السابقة.

وعندما نعود إلى ملفات التاريخ نرى الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) هو الذي وضع اللبنات الأولى لنظرية الأمر بين الأمرين وضرورة الارتباط بين العبد، وربه بشكل ينزه الله عن كل نقص ويبعده عن كل عيب، ويحفظ له صلاحيته في التصرف في أمور عباده ـ وفي الوقت نفسه ـ يحترم العبد ويجعله المسؤول الأول أمام القانون في كل ما يصدر منه طاعة أو معصية.

لقد أجاب أمير المؤمنين (عليه السلام) من سأله عن العدل والتوحيد فقال: (التوحيد أن لا تتوهمه، والعدل أن لا تتهمه) [1]. فالقائل بأنه خالق للأفعال فقد أتهمه بالظلم، والقائل بأنه لا يقدر على أعمال عباده، وأن كل أعمالهم بإرادتهم ولا شأن له فيها فقد اتهمه بالعجز.

---

(١) نهج البلاغة: ٤، ١٠٨.

ونعود لمقطعنا الرابع من الدعاء، لنرى أمير المؤمنين (عليه السلام) يؤكد لنا هذه النظرية في الفقرة الأولى الآتية، حيث يركز الاهتمام على طلب التوفيق من الله سبحانه في ابتداء الأعمال، والالتجاء إليه في الاقالة من العثرات التي تصادف الإنسان في حياته.

فالقضية لا ترجع إلى طاقات العبد وحده في هذه الحياة، بل لابد من إشراك الله سبحانه لتقويم ما يعمله الإنسان من طاعة ولمحو ما يترتب على فعله من معصيته فليس الأمر يرجع إلى الله بحيث لا حول للعبد في فعله، ولا قوة، ولا أن الأمر موكول إلى العبد بحيث لا علاقة لله فيه.

بل من العبد الإلتزام بما تقرره الشريعة في جميع أعماله، ومن الله التوفيق. لطاعاته واجتناب معاصيه.

لذلك نراه (صلوات الله عليه) يناجي ربه بقوله:

١ - (إلهي إنْ لَم تَبتدئني الرَّحمةُ مِنكَ بِحُسن التَّوفِيق فمن السالكُ بي إليك في واضحِ الطريقِ؟).

فمن العبد العمل، ومن الله التوفيق.

أما ارتباط هذه الفقرة بما سبق من الدعاء فذلك:

إنه سبق للدعاء أن وجه الداعي أن يطلب من ربه أن يفتح له أبواب الصباح بمفاتيح الرحمة والفلاح، وأن يقرن ذلك بأن يلبسه برود الهداية والصلاح.

كل ذلك ليستقبل حياة جديدة عبر يومه هذا وبقية أيامه الآتية.

حياة كريمة يبارك له الله مسراها ومسيرتها.

ولكن ذلك لوحده ليس بكافٍ ليضمن له الوصول إلى الغاية المنشودة في مجيئنا لهذه الدنيا، وهي الوصول إلى الله سبحانه عبر الطريق الواضح الذي اختاره الله لعباده المؤمنين: طريق النبيين، والصالحين، طريق الإسلام الخالد بما يشتمل عليه من تعاليم أخلاقية، واجتماعية، وأحكام شرعية.

ورغم وضوح هذا الطريق إلاّ أن السير فيه محفوف بالمخاطر، فالنفس أمارة بالسوء ومن ورائها الشيطان الذي يوسوس لها وينصب لها الكمائن لجرها إلى الرذائل عبر الطريق الوعرة الملتوية.

وأخيراً، فللنفس عثرات، وزلات، ومَنْ المؤمّن من إنحرافها عن الصراط المستقيم، ومنهاج الله القويم؟.

فهو إذاً، بحاجة إلى من يأخذ بيده، ويؤمن له مسيرته، ويصحبه إلى نهاية الخط لئلا ينحرف، فيصبح محروماً من عنايته، ورعايته جلت عظمته.

لذلك نرى الدعاء يوجه الداعي لأن يلجأ إلى الله سبحانه ليطلب منه أن يتولى هذه المهمة ليضيف إلى أياديه، ونعمه على عبده يداً جديدة، ونعمة أخرى يمن بها عليه. ويتمثل الداعي فيفتح هذا الحوار الهادئ مع ربه يبدأه بهذه الترنيمة المحببة إلى قلوب المؤمنين قائلاً:

(إلهي). وهي كلمة تطلق على كل معبود إلاّ أنها اختصت بالله سبحانه، وهي بلسان الداعي تقطر رقة، وتذوب ضراعة لأنها تحمل معنى:

يا معبودي، ويا خالقي، ويا مدبري، ويا مقدري، ويا من أتضرع إليه، ويا من التجئ إليه.

ولسنا مبالغين لو قلنا: إن هذه الكلمة تحمل بنغمتها العذبة كل صفات الله جلت عظمته، هذا النداء يطلقه الداعي يريد من ربه أن يبتدئه بالرحمة يبتدأ لئلا يكون عطاء الله الجديد من باب الاستحقاق، بل من باب التفضل، وهو أهل للفضل لأن الداعي يؤدي شيئاً يستحق به هذا النوع من الطلب.

(إلهي إن لم تبتدئني الرحمة منك). ورحمته واسعة وتسع كل شيء فأي نوع من أنواع رحمته يريد الداعي دنيوية أم أخروية، أو هما معاً.

ويأتي التعقيب بصدر من فمٍ أسكره الشوق إلى ربه ليقول:

(بحسن التوفيق). والمشكلة بعد لم تنحل فالتوفيق لأي شيء يريده الدعاء على

لسان الداعي إنه أيضاً عام.

ويعيّن التوفيق ما جاء في الفقرة التالية من قوله: (فمن السالك بي إليك في واضح الطريق).

وها هي الغاية تتضح فالداعي يريد السلوك إلى ربه عبر طريقه الواضح.

وقد اكتفى من أمور دنياه ما طلبه في الفقرات السابقة، وهو الآن يشق طريقه لأن يبقى مع الله وإلى الله عبر هذا الطريق لينهي هذه الحياة ويسير على هذا الخط الإلهي إذا وفقه الله لذلك، وكان من مصاديق الآية الكريمة عندما يتلقى الله سبحانه النفوس المؤمنة، وهي تعود إليه:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾[1].

لذلك نرى الداعي، ومن ثنايا هذه الفقرة يستفهم وليس الاستفهام بحقيقي، بل هو استفهام إنكاري يسأله بأنه لو أعرض عنه، ولم يوفقه في الأخذ بيده ليسلك هذا الطريق إليه فمن إذاً البديل لمنحه التوفيق المنشود، ومن سينير له الطريق ويضيء له المسالك التي تؤدي إليه والشيطان رابض له يتربص به الدوائر ليوقعه في المآزق العثرة، ويتخلى عنه:

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[2].

انه لمنظر غريب مضحك، ومبكٍ يتقمص الشيطان فيه شخصية الخائف الوجل من سطوة الله سبحانه، وبعد أن أغرى الإنسان وجرّه إلى مستنقع الرذيلة تخلى عنه، وقد تبرأ من عمله.

وماذا وراء هذه المحاورة بين هذا الإنسان الطائش، والشيطان الماكر تقول

---

(١) سورة الفجر: الآيات ٢٧ ـ ٣٠.

(٢) سورة الحشر: الآية، ١٦.

الآية: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١].

وفي مشهد آخر من مشاهد غواية الشيطان للإنسان واستدراجه للوقوع في الهلكات والتخلي عنه نرى القرآن الكريم يصور لنا منظرين من مناظر القيامة منظر الكافرين، ومنظر المؤمنين، وما يجرى بين الشيطان، وجماعته من تأنيب.

يقول سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ﴾[٢].

لقد قضي الأمر وأقفلت الدنيا أبوابها، فلا عودة، ولا عمل، ولا ينفع كل شيء، فقد مضى أمس، وفيه عمل، ولا حساب، وجاء اليوم، وفيه حساب، ولا عمل.

وينظر الإنسان، وقد فاته الركب ويتعلق بأذيال الشيطان يطالبه بوعوده الخلابة وبضماناته المغرية يريد منه أن ينقذه من ورطته.

وعندها يقف الشيطان وقفة المنتظر ليقارن لهم بين وعدين صدرا في دار الدنيا وان أياً من هذين الوعدين أضبط وألزم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾[٣].

وباعتراف الشيطان أن وعد الله وعد الحق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[٤].

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[٥].

ولا نحتاج لمتانة هذا الوعد من الاستشهاد كثيراً فواقع الحال في هذه الدنيا يعطي صورة واضحة عن نعمة الله، وأياديه، ووعوده وجزائه.

---

(١) سورة الحشر: الآية، ١٧.

(٢) سورة إبراهيم: الآية، ٢٢.

(٣) سورة إبراهيم: الآية، ٢٢.

(٤)سورة آل عمران: الآية، ٩ ؛ سورة الرعد: الآية، ٣١.

(٥) سورة النساء: الآية ١٢٢.

﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾[1]. وهذا هو الوعد الثاني: ونتيجته أنه أخلفهم.

ويبدو الشيطان، وهو يتنصل من المسؤولية ليظهر لهم بأن وعده لهم لم يكن تحت تأثير من الضغط، والإجبار، مجرد وعد لا أكثر.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[2].

تماماً كقطيع الغنم يتبع الشاة المتقدمة إن سارت سار معها، وإن وقفت ألقى عصا الترحال، وهكذا دواليك تبعية صرفة، وطاعة عمياء من دون تروٍ، وتفكير.

وتكمل الآية الكريمة هذا المشهد حيث يخرج الشيطان بنتيجة هذه المقارنة فتقول عن لسانه: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾[3].

ويبدو واضحاً تهرب الشيطان منهم، وتنصله من أعمالهم فقد ألقى اللائمة عليهم في اتباعهم له من غير تعقل، وتدبير، بل ركض وراء وعود زائفة لا واقع لها.

وأخيراً، يبين لهم حقيقة الموقف، وأن ذلك اليوم لا ينفع فيه كل شيء لذلك يواجههم بالحقيقة المرة: ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾[4].

كل منهم عاجز عن إنقاذ صاحبه، وليس بإمكانه إرسال نجدةٍ إليه.

ولم يكتف بهذا المقدار، بل ترفع عنهم ليتركهم في حيرتهم، وهو يقول:

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[5].

ويلملم الشيطان أطرافه ليختم هذا الحوار معهم بلطمة يصفعهم بها قائلاً:

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[6].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية، ٢٢.

(٢) سورة إبراهيم: الآية، ٢٢.

(٣) سورة إبراهيم: الآية، ٢٢.

(٤) سورة إبراهيم: الآية، ٢٢.

(٥) سورة إبراهيم: الآية، ٢٢.

(٦) سورة إبراهيم: الآية، ٢٢.

وتكون نتيجة هؤلاء أنهم يساقون إلى جهنم زمراً كما قال عنهم القرآن في آية أخرى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾[1].

أما الذين وقفوا وقفة المؤمن الراسخ في عقيدته الذين لم تغرهم وعود الشيطان وأكاذيبه المعسولة فإن الآية الثانية أخبرت عنهم بقوله سبحانه:

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾[2].

ونعود بعد هذه الجولة القرآنية بين المشاهد التي صورت لنا جماعتين يبدو الذل على إحداهما بينما تلوح علائم النصر على الأخرى.

جماعة الشيطان، وهم يساقون إلى جهنم زمراً.

وجماعة الله، والملائكة يدخلونهم برفق إلى الجنة، وتحيتهم فيها سلام.

ومن هذا المنطلق، وخوفاً من أن يسيطر الشيطان نعطي الحق إلى الداعي حينما نراه يتضرع إلى الله سبحانه ليوفقه إلى تأمين مسيرته للوصول إليه محفوظاً من حيل الشيطان، ومكائده، ووعوده المغرية، ولئلا يكون مع الجماعة الأولى، فيكون مصيره أن يحشر مع الذين يساقون إلى جهنم زمراً يبارك لهم الشيطان هذه المسيرة الخاسرة.

٢- (وإِن أسلمتني أناتُك لقائِدِ الأملِ والمُنى فمن المُقيلُ عثراتي مِن كبواتِ الهوى).

أسلم فلان فلاناً، إذا ألقاه في مهلكة، ولم يحمه من عدوه، وهو عام في كل من أسلمه إلى شيء، ولكن غلب عليه الإلقاء في الهلكة.

أما الأناة: فهي الحلم والمراد بها هنا تأخير العقوبة والاستدراج، وهو من تأنى في الأمر إذا مكث ولم يعجل.

---

(١) سورة الزمر: الآية، ٧١.

(٢) سورة إبراهيم: الآية، ٢٣.

أما القائد: فهو من يأخذ بقياد الحيوان إذا تقدمه، وهو بخلاف السائق فإن السائق يتأخر عن الحيوان، ولذلك قيل لآمر الجيش قائداً لأنهم يتبعونه فكأنه يقودهم.

والمنى: جمع منية، وهي بغية الإنسان، وقيل هي الصورة الحاصلة في النفس من تمني الشيء.

والمقيل: من أقال، والإقالة بمعنى التجاوز عن الذنب وأصلها من أقال عثرته إذا رفعه في سقوطه، ومنه الإقالة من البيع لأنها رفع العقد.

وأما العثرة: فالمراد بها هنا السيئة والخطيئة من عثر يعثر إذا كبا، وسقط.

والكبوات: جمع كبوة وكبا أي سقط لوجهه.

والهوى: ما يميل الإنسان إليه من الخير، أو الشر والمهوى محموداً كان أو مذموماً ثم غلب على غير المحمود يقال: فلان اتبع هواه، وإذا أريد ذمه.

وفي بعض تعريفاته جاء: **الهوى**: ميلان النفس إلى ما تستلذ من الشهوات من غير داعية للشرع.

وقيل: سمي الهوى هوىً لأنه يهوي بصاحبه إلى النار، ولا يستعمل في الغالب إلاّ فيما ليس بحق، وفيما لا خير فيه (١).

هذه مفردات هذه الفقرة من حيث معانيها اللغوية.

أما من حيث دعائيتها، فللداعي أن يتوجه إلى ربه مستمراً في حواره فبعد أن طلب من ربه التوفيق في الأخذ بيده في طريقه القويم فيما سبق فإن الخوف من ذنوبه يقطع عليه أمله بالاستجابة، ولربما كان نصيبه الحرمان من التوفيق، وحينئذٍ يتركه الله سبحانه، ويسلمه إلى آماله العريضة، وأمنياته الخلابة فيجد العبد من حلم ربه في تأخير العقوبة ما يحرف به سفينته عن شاطئ الأمان فتكثر عثراته، ويسيطر الشيطان عليه بتغلب هوى نفسه على عقله.

---

(١) لاحظ لمعاني هذه المفردات الشرتوني: أقرب الموارد/ مواد الكلمات المذكورة.

وإذاً فمن الذي يتجاوز عنه، ويقيله، ويحميه من هذه العثرات؟.

ولذلك جاء الدعاء يسطر للداعي أن يقول لربه، وعلامات الاستفهام ظاهرة على قسمات وجهه: «وإن أسلمتني أناتك إلى قائد الأمل والمنى»:

ومرة أخرى أتوجه إليك يا إلهي، ويا من هو ملجئي في شدائدي إن لم ترضَ عني، ولم تقبل مني توسلي، وأسلمني حلمك إلى نفسي وآمالي وأمنياتي، وكلها تقودني إلى ما يبعدني عنك وعن رحابك إذاً يا مولاي، (فمن المقيل عثراتي من كبوات الهوى)؟.

يا سبحان الله: أمل الإنسان بإمكان التدارك فيما بعد أو اللامبالاة بما يفرضه العقل من الالتزام بمقدرات الشرع، هو الداء الذي يحطم معنوياته الدينية وأعماله الخيرة، وهو السراب الذي قالت عنه الآية الكريمة:

﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[1].

والأمل: قاعدة من قواعد الشيطان في نفس الإنسان ينطلق منها ليسيطر على كيانه يغريه بالفسحة التي أمامه، وبالأيام المقبلة، وبطول العمر، وبأن الله يتجاوز عن مثل هذه الأعمال التي تصدر منه... وهكذا يبقى الإنسان يعيش في خيالٍ واسع من الآمال العريضة منشداً إلى أمنياته، وهو في كل مرة يبعد عن الله وقربه وتغلق الأبواب الواحدة تلو الأخرى بوجهه رويداً رويداً إلى أن ينتهي الأمد المحدد لعمره، وبعدها ينتقل إلى دارٍ لا يتمكن فيها من ترميم التصدع الذي حصل فيما بناه لآخرته أو تهديمه، والقضاء عليه.

ولذلك نرى الآية الكريمة تخاطب النبي(ﷺ) في شأن هؤلاء الذين اتخذوا من أماهم ستاراً يغطون به على ملاذهم، وشهواتهم النفسية فتقول:

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[2].

---

(١) سورة النور: الآية، ٣٩.

(٢) سورة الحجر: الآية، ٣.

دعهم يأكلوا كما تأكل البهائم.

ودعهم يتخبطوا بما هم فيه متعة وقنية وسرعان ما تزول.

ودعهم يتخبطوا بأمالهم الزائفة فسوف يعلمون ما أخفى لهم جزاء بما كانوا يعملون.

هذا هو الأمل الذي يجر الإنسان إلى هذه النتائج الخاسرة.

وأما الهوى: فهو أخ الأمل: وشريكه في تأسيس قاعدة الشر، وجر النفس وإخراجها عن مسارها الصحيح إلى المآزق الوعرة التي تبعد الإنسان عن رضوان الله والسلوك إليه للتوغل به في المعاصي والرذائل.

إن هذا الارتباط بين الأمل الكاذب والهوى، هو الذي دعا أمير المؤمنين (عليه السلام) أن يحذر الناس من هذين الشبحين المرعبين فيقول:

(أيها الناس إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتباع الهوى، وطول الأمل. أما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة) (١).

(أما اتباع الهوى فيصد عن الحق).

لأن الهوى يجر إلى الرذيلة، والحق فضيلة وكيف يجتمعان؟.

(وأما طول الأمل فينسي الآخرة).

لأن التسويف، والاتكال، وعدم الإسراع بالإتيان بما يقرره الله سبحانه، وينهى عنه ينسيه ما وراءه من الحساب، والكتاب.

وللهوى بالخصوص وردت تحذيرات مؤكدة من القرآن، والسنة.

فمن القرآن آيات عديدة:

منها: ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (٢).

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ ٢، ٣٣٦. ونهج البلاغة.

(٢) سورة ص: الآية، ٢٦.

ومنها: قوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (١). ومن السنة أخبار كثيرة:

منها: ما جاء عن رسول الله (ﷺ) كما حدث عنه الإمام الصادق (عليه السلام): (قال: قال رسول الله (ﷺ): يقول الله: وعزتي وجلالي وعظمتي وكبريائي، ونوري، وعلوي، وارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هواه على هواي إلاّ شتت أمره عليه، ولبّست عليه دنياه، وشغلت قلبه بها ولم أوته منها إلاّ ما قدرت له، وعزتي، وجلالي، وعظمتي، ونوري، وعلوي، وارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هواء على هواه إلاّ استحفظته ملائكتي، وكفلت السماوات، والأرضين رزقه، وكتبت له من وراء تجارة كل تاجر، وأتته الدنيا راغمة) (٢).

مقارنة دقيقة بين عبدين يجريها الحديث: عبد قدم هواه على هوى الله ورغباته.

وعبد قدم هوى الله على هواه، ومشتهياته. يقسم الله بعزته، وجلاله، وكبريائه إنه يقف بالمرصاد للأول، ويعمل فيه ما يشاء مما ذكره الحديث.

أما الثاني فيكرر الحديث بتلك الأيمان بأنه يكفله، ويقبض له من ملائكته من يتولى المحافظة عليه، ويجعل الدنيا تأتيه راغمة.

هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإن الجنة هي المأوى بنص الآية الكريمة المتقدمة:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٣).

بين العقل والهوى:

العقل، والهوى مما اختص بهما الإنسان دون بقية فصائل الحيوان، وفي الغالب يقف الإنسان بين عاملين مؤثرين: عقله، وهواه، ولكلٍ منهما سيطرته على النفس.

---

(١) سورة النازعات: الآيتان ٤٠ و ٤١.

(٢) الشيخ الكليني: المصدر المتقدم/ ٢، ٣٣٥.

(٣) سورة النازعات: الآيتان ٤٠ و ٤١.

عقله: عندما يتوجه إلى أمرٍ من الأمور يزنه، ويقلبه، ويرى ما له فيه من نفع، وما يترتب عليه من ضرر، ويخلص بعد الموازنة بما يراه راجحاً.

أما الهوى: فلا يدع مجالاً للإنسان أن يجري مثل تلك الموازنة، وأن يتحكم العقل فيما يجر النفس إليه، بل يتحكم هو بما يفرضه على النفس البشرية، ولكلٍ من العقل والهوى رصيد عند الله.

فالعقل: هو مقياس للطاعة، والعصيان، وهذا رصيده عند الله.

وقد جاء عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال: (لما خلق الله العقل استنطقه، ثم قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إلي منك، ولا أكملتك إلاّ فيمن أحب أما إني إيّاك آمر، وإيّاك أنهي، وإيّاك أعاقب، وإيّاك أثيب)[1].

وعن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام): يا هشام إن الله تبارك، وتعالى بشر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[2].

وبهذا المضمون جاءت الأخبار تهيب بالعقل وتعتبره المقياس ـ كما قلنا ـ في الطاعة، والعصيان.

وأما الهوى: فإنه مصدر الشر، وحبل الشيطان الذي به يجر الإنسان إلى مساقط الرذيلة، والمستنقعات الضحلة.

ورصيد الهوى من الله التحذير من اتباعه، وقد جاء ذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[3].

وجاءت الأخبار تترى تحذر من الهوى والسير في ركابه، ومن مغبة سيطرته على النفس.

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ ١، ١٠.

(٢) المصدر المتقدم: ١، ١٣. والآيتان: ١٧ و ١٨، من سورة الزمر.

(٣) لاحظ لهذه الأخبار الشيخ الكليني: المصدر المتقدم/ ٢، ٣٣. والآية: ٢٦ من سورة ص.

وبعد هذا العرض لحقيقة الهوى والأمل، وأن أمير المؤمنين (عليه السلام) يحذر الناس منهما، ومن عواقبهما ألا نعطي الحق إلى الداعي عندما نستمع إليه وهو يتضرع إلى ربه يردد قول الإمام في هذه الفقرة حيث يقول: (وإن أسلمتني أناتك لقائد الأمل والمنى، فمن المقيل عثراتي من كبوات الهوى؟).

٣ـ (وإن خَذَلني نَصرُك عندَ مُحاربةِ النَّفسِ والشيَّطانِ فقَد وَكَلني خِذلانُكَ إلى حَيثُ النَّصبِ والحِرمان).

خذل: أي ترك نصره، وإغاثته.

ووكل: بالتخفيف ترك الأمر، وأسلمه إليه، وفوضه إليه.

أما النَّصب: فهو التعب، والمشقة.

والحرمان: هو نقيض الرزق، وحرمه الشيء أي: لم يعطه شيئاً.

وفي الفقرة السابقة، وما قبلها رأينا الداعي يطلب من ربه التوفيق في مسيرته إليه، وأن لا يسلمه إلى آماله، وأمنياته الخادعة الجوفاء.

ويفترض الداعي نفسه بعد كل ذلك، وقد اتجهت إلى الله في مسيرتها، وكبحت جماحها أنها ستقف وجهاً لوجه أمام الشيطان في معركة حامية الوطيس، فالشيطان لا يدع الفرصة تفوت عليه، وهو يرى العبد يطيع ربه، ويخلص له في عمله، ويتقرب إلى رحابه الطاهرة بل سيحاربه بكل وسائله المغرية، وأكاذيبه، وحيله ليصرفه عن القصد، وينحرف به عن الطريق المستقيم.

والإنسان مهما أوتي من عقلٍ، وتدبير، ولكنه إنسان يخضع إلى شهوات، وغرائز كلها منافذ يطل الشيطان من خلالها على ما تنطوي عليه نفسه، وهل بإمكانه أن يقف في الميدان وحيداً يصارع مثل هذا العدو اللدود؟.

لقد جاء الداعي ليطرح المشكلة، ويضعها أمام ربه.

ولماذا لا يلجأ إليه، وهو مأوى اللاجئين، وغياث المستغيثين؟.

جاء ليفتح كشف حسابه أمام ربه ليطلعه على الحقيقة المرة ـ وهو العالم بكل

شيء ـ وبكل صغيرة، وكبيرة.

جاء ليقول له: (وإن خذلني نصرك ـ يا رب ـ عند محاربة النفس والشيطان).

فها هو مصيري أضعه أمامك يا إلهي:

(فقد وكلني خذلانك إلى حيث النصب، والحرمان).

نصب، وتعب: لأنه يسلك طريقاً قائده في تلك المسيرة الشيطان، ولا نهاية لمسيرة يقودها الشيطان.

وحرمان: من عطف الله، ولطفه، وبُعدٍ عن قربه جلت عظمته.

وللداعي أن يتجه إلى ربه ليردد ما كان يناجي به الإمام زين العابدين (عليه السلام) في مثل هذه المواقف ومثل هذه الغلسات:

(إلهي: يا قديم الإحسان، أين سترك الجميل، أين عفوك الجليل أين غياثك السريع، أين رحمتك الواسعة، أين عطاياك الفاضلة، أين مواهبك الهنيئة، أين صنائعك السنية، أين فضلك العظيم، أين منّك الجسيم، أين إحسانك القديم)؟.

وأخيراً، ليطلقها من فمه صرخة مدوية فيقول»: أين كرمك يا كريم؟ [(١)].

وحتماً سيجد من ربه بعد هذا العتاب الهادئ صدراً رحباً يتقبله ليعود به إلى الرحاب المقدس معززاً مكرماً، وصوت من وراء الغيب يهديء من روعه، وهو يرتل:

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [(٢)].

وقبل أن ننتقل مع الداعي إلى بقية فقرات هذا المقطع من الدعاء نعود إلى هذه الفقرة نفسها حيث نلحظ أنها صورت لنا معركة تدور بين نفس الداعي، والشيطان

---

(١) فقرات من دعاء أبي حمزة الثمالي للامام زين العابدين (عليه السلام).

(٢) سورة الزمر: الآية، ٥٣.

ومن هذا المنظر نرى ضرورة إلقاء الضوء على ما يلي:

١ـ النفس: ما هي؟

٢ـ الشيطان: من هو؟

٣ـ كيف تكون الحرب بين هذين الاثنين؟.

النفس:

من المفاهيم التي وقع البحث حولها، وتشعب الخلاف فيها، هو: مفهوم النفس فقيل: إن النفس هي الروح وكما يقولون: إن هذا تعريف بالأخفى.

فإن الروح أيضاً مما وقع الخلاف في مفهومه، وحتى إن القرآن الكريم عندما تعرض إلى ذلك قال: ﴿ **وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾[1].

وهذا معناه سد لباب النقاش في مثل هذه المسألة لأن الإنسان ما أوتي من العلم إلاّ قليلاً.

وإذا قال أهل اللغة إن النفس هي الروح فمعنى ذلك أيضاً غلق الباب في وجه من يريد أن يصل إلى حقيقة النفس، وإن قال ابن عباس عنها: (إن لكل إنسان نفسين: **إحداهما**: نفس العقل الذي يكون به التمييز. **ثانيهما**: نفس الروح الذي به الحياة)[2].

ويقول الزجاج: إن لكل إنسان نفسين. (**إحداهما**: نفس التمييز، وهي التي تفارقه إذا نام، فلا يعقل بها يتوفاها الله كما قال الله تعالى. **والأخرى**: نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس) [3].

---

(١) سورة الإسراء: الآية، ٨٥.

(٢) ابن منظور: لسان العرب: مادة (نفس).

(٣) المصدر المتقدم.

وقد عرفها كثير من العلماء بأمثال هذه التعاريف.

ولكن الظاهر أن هذه التعاريف، وغيرها تتعرض إلى صفات النفس لا إلى حقيقتها، ومن ذلك ما نراه في القرآن الكريم، فإنه تعرض للنفس في آيات عديدة.

قال في إحداها: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾[1]. فعبر عنها هنا بالمطمئنة، وبالراضية، وبالمرضية.

وقال في آيةٍ أخرى معبراً عنها باللوامة: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾[2]. وفي آية ثالثة وصفها فقال: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[3].

ووصفها في آية رابعة بالزكية فقال سبحانه: ﴿ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ ﴾[4].

ويقول كميل بن زياد: (سألت مولانا أمير المؤمنين علياً (عليه السلام) فقلت: أريد أن تعرّفني نفسي فقال (عليه السلام) يا كميل وأي الأنفس تريد أن أعرّفك؟. قلت: يا مولاي هل هي إلاّ نفس واحدة؟. قال (عليه السلام): يا كميل إنما هي أربعة: النامية، والحسية، الحيوانية، والناطقة القدسية، والكلية الإلهية).

والظاهر هو أن النفس شيء واحد وهذه التعاريف تحوم حول صفاتها وما تتحلى به وإلاّ فهي: «هذا الكيان الشخصي لكل فردٍ حيث يكون بها قوام هذه الحياة»[5].

هذه النفس إن اتجهت إلى الله وأخذت بتعاليمه، ومالت إليه تأتمر بأوامره وتنتهي بنواهيه، فهي النفس المطمئنة الراضية المرضية، وهي التي يدخلها الله سبحانه في جنته بضمان صريحٍ منه عندما قال: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ

---

(١) سورة الفجر: الآيات ٢٧ ـ ٣٠.

(٢) سورة القيامة: الآيتان ١ و ٢.

(٣) سورة يوسف: الآية، ٥٣.

(٤) سورة الكهف: الآية، ٧٤.

(٥) لاحظ لمزيد توضيح للبحث كتابنا (أضواء على دعاء كميل): ٢٠٧.

﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [١].

وفي هذه الصورة نرى العقل يسيطر على هذه النفس ويتغلب عليها، وإذا بها تسير وفق تعاليمه، وعلى ضوء ما أمر به ونهى عنه.

وهذه النفس هي بعينها لو اتجهت إلى الشيطان، ومالت إليه، وتبعت هواها فهي الأمّارة بالسوء وهي المبغوضة له سبحانه، وتعالى.

وبتعبير آخر النفس نفس واحدة من حيث كيانها الشخصي الذي به حياة الإنسان، وهي نفسها الإنسان الذي قالت عنه الآية الكريمة:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [٢].

والسبيل: هو الطريق الواضح الذي أبانه الله، وأوضحه للإنسان في هذه الحياة ليختار:

طريق الله، فيحصل على السعادة. أو طريق الشيطان، فتكون من نصيبه الشقاوة.

ويقف الإنسان ـ وبين جنبيه نفس أتم الله عليها الحجة بهدايتها إلى السبيل ـ على مفترق الطريق:

فإما أن يكون المسيطر عليها العقل فهو إذاً شاكر، وإلى الله سالك.

وإما أن الشيطان قائده، فهو إذاً كفور بنعمة ربه، وبتعاليم الشيطان متمسك.

الشيطان:

إذا قيل: الشيطان ينتقل الذهن سريعاً إلى مخلوقٍ يسمى (إبليس)، وكما أن آدم أبو البشر فإن إبليس أبو الشياطين.

وهل أن إبليس من الملائكة، أو من الجن، أو من فصيلة ثالثة؟.

---

(١) سورة الفجر: الآيات ٢٧ ـ ٣٠.

(٢) سورة الإنسان: الآية، ٣.

وقع الخلاف في ذلك بين العلماء.

وعلى أي حال، فقد عرّف الشيطان بأنه: جسم شفاف يتشكل بأشكال مختلفة، ويتمكن من الولوج في بواطن الأشياء، وينفذ في كل منفذ، ولو كان ذلك المنفذ ضيقاً.

ويقول آخرون: إن الشيطان نفس ناطقة شريرة مفارقة للبدن يتعاون على الشر، والفساد.

وقيل: غير هذا وذاك، وليس ذلك بمهم لنا في هذا البحث، بل المهم هو إن كل إنسان مؤمن يحتفظ في مخيلته بصورة تعبر عن مخلوق متمرد على الله سبحانه، وقد دفعه غروره إلى إعلان العصيان لامتثال أوامر الله في السجود لآدم فكان ذلك سبباً لطرده من رحاب الله، وقدسه.

وقد نوه القرآن عن مجريات هذه الواقعة في أكثر من مورد ليحذر البشر من هذا العدو الذي توعدهم، ووقف لهم بالمرصاد ليغويهم، ويسحبهم إلى جهنم وبئس المصير.

ومعاً لنستمع إلى القرآن الكريم في أحد موارده في النقل المذكور إذ من خلال ذلك نستفيد فهم ورقة عمل هذا المخلوق الذي أصبح رمزاً لعداوة الإنسان.

يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١).

منظر رهيب أن يتصور الإنسان الملائكة تقف على أهبة الاستعداد لتتلقى أمراً جديداً من الله سبحانه، ويصدر الأمر لهم بالسجود لآدم ـ ولسنا في صدد البحث عن كيفية السجود، ونوعيته فذلك موكول إلى كتب التفسير ـ بل لنا أن نعرف أن الملائكة كلهم سجدوا وامتثلوا الأمر الإلهي الصادر إليهم لما ورد في آية أخرى من قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٢).

---

(١) سورة الأعراف: الآية، ١١.

(٢) سورة الحجر: الآية، ٣٠.

ومن بين هذا الحشد الهائل يتخلف إبليس عن هذا الأمر بالتعظيم لآدم.

ومن هنا تبدأ المحاورة بينه، وبين الله عز وجل فيأتي الاستفهام من قبل الله سبحانه موجهاً إلى إبليس: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟ (١).

وعلى إبليس أن يجيب عن امتناعه ليقدم دفاعه عن هذا التمرد الصريح.

وبالفعل، فقد أجاب عن ذلك بقوله:

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (٢).

لقد ظن إبليس أن عنصره الذي خلق منه ،وهو النار أشرف من الطين الذي خلق منه آدم، ولذلك رتب النتيجة على هذه المقدمة فقال: بأنه خير من آدم، وما دام هو أشرف، فلا يجوز خضوع الأشرف للأدون منه.

ولا ندري كم مر على إبليس من الوقت، وهو ينتظر ما سيصدره الله من الحكم في حقه، ولكنه وعلى كل حال، تلقى الحكم الذي صدر إليه بقوله جلّت عظمته:

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (٣).

واختلفوا في أن الهبوط الذي هو النزول والانحدار من أي مكان فهل هو من السماء، أو من الجنة أو من غيرهما؟.

وقد شفع هذا الحكم بأسبابه التي دعت إليه من أن السماء، أو الجنة ليس فيها مكان للعاصين، بل هي مكان المطيعين الذي يمتثلون أوامر الله سبحانه:

﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾.

ومرة أخرى أكد الله سبحانه الحكم بقوله: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

لقد علم إبليس أنه حرم من رحمة الله، ومن رضوانه، وسيكون مصيره الهلاك

---

(١) سورة الأعراف: الآية، ١٢.

(٢) سورة الأعراف: الآية، ١٢.

(٣) سورة الأعراف: الآية، ١٣.

وقد امتلأ غيظاً وحقداً على آدم (عليه السلام) لأن آدم (عليه السلام) كان السبب في وصوله إلى هذه النتيجة الخاسرة.

فهل يترك آدم(عليه السلام) يتمتع هو ومن يتناسل منه برضوان الله آمناً، ويتجرع هو يتبعه ومن ذريته مرارة الحرمان؟.

لقد قرر أن ينتقم ممن كان السبب في حصول هذه المرارة، ولكن كيف الوصول إلى غايته؟.

إن إبليس، وهو الذي كان قريباً من السماء قبل العصيان يعلم مدى رحمة الله، وسعة عفوه، ولطفه، وكرمه، ولذلك فإن الله لا يرد له طلباً، وإن كان قد عصا.

أو كان يعلم أن الله لا يرد طلبه جزاء عبادته، وطاعته له فيما سبق حالة التمرد منه لذلك تقدم إلى الله سبحانه بطلبه: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[1].

إنه يريد من ربه أن لا يعجل عليه بالموت، بل يمهله إلى يوم بعث الخلائق، وفي بعض الآيات إلى يوم القيامة. وأجيب إلى طلبه فقال سبحانه:

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾[2] وبمنطوق هذه الآية الكريمة فقد أجيب إلى طلبه وأصدر الله حكمه بإمهاله.

ولكنه هنا مطلق فهل هو إلى يوم القسيمة، أو إلى يوم موت الخلائق أجمعين، وهو المعبر عنه بيوم النفخة الأولى.

كل ما في البين هو أنه ورد في آية أخرى قوله تعالى:

﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾[3].

وأيضاً وقع الخلاف في هذا اليوم المعلوم ما هو؟.

---

(١) سورة الأعراف: الآية، ١٤.

(٢) سورة الأعراف: الآية، ١٥.

(٣) سورة الحجر: الآيتان ٣٧ و ٣٨.

يوم النفخة الأولى، أو يوم القيامة، أو يوم أجله المقدر عند الله؟

المهم، الذي لا إشكال فيه هو أنه يبقى حياً هو ومن تبعه من ذريته إلى يوم النفخة الأولى، وهو يوم موت الخلائق أجمعين، ومعنى ذلك أن الإنسان ابتلى بهذا المخلوق المراوغ الكافر إلى آخر فرد من أفراد البشر في هذه الدنيا.

إذاً على إبليس أن يجمع أطرافه، ويهبط من عليائه إلى الحضيض الذي اختاره منحدراً له، ولكنه لم يقطع المحاورة، بل أجاب ربه معقباً على هذا الطرد والإمهال:

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١).

لقد بدت نوايا إبليس الشريرة ظاهرة من هذا التعقيب، فقد ألزم نفسه أن يقف في طريق الإنسان الذي سنه الله له طريق الله المستقيم.

ليحرفهم عنه، ويغويهم أي يخيبهم من طاعة الله كما أغواه الله في أنه خيبه من رحمته بطرده من السماء، أو الجنة.

ثم شرع بعد ذلك يعدد مشاريعه المستقبلية في كيفية الإغواء، وجر أكثر عدد ممكن من بني آدم إلى حظيرته، ومنها إلى جنهم تشفياً منه قال:

﴿ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (٢).

وفي آية أخرى قال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥ ﴾ (٣).

أي لأقودنهم إلى المعاصي وأضيق عليهم الخناق، وأسد عليهم الطرق.

حيث آتينهم من جميع الجهات المحيطة بهم، وأقودهم كما تقاد الدابة بحنكها عندما يوضع الحبل في مقدم رأسها، ووجهها لتقاد إلى حيث يريد سائقها.

---

(١) سورة الأعراف: الآية، ١٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية، ١٧.

(٣) سورة الإسراء: الآية، ٦٢.

وفي معنـى قولـه: ﴿لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ [(١)] الـخ، جـاء عـن أهـل البيت(عليهم السلام) أن قوله ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ معناه أهوِّنُ عليهم أمر الآخرة.

﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ آمـرهـم بجمـع الأمـوال، والبخـل بهـا عـن حقـوق الله لتبقـى لورثتهم ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أي أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة، وتحسين الشبهة ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾ بتحبيب اللذات إليهم، وتغليب الشهوات على قلوبهم [(٢)].

وبعد هذا العرض لمنهجية إبليس، أعماله مع الإنسان، يأتيه النداء مرة ثالثة مـن الله في ختام هذه المحاورة يأمره بالخروج على أبشع حالة:

﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [(٣)].

وهكذا بدأت الحياة المضنية، وأخذ الشيطان يتربص بالإنسان الدوائر، ويريد به الوقيعة ويزين له الأعمال القبيحة ليجره من ورائها إلى مواطن الرذيلة، والفساد.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [(٤)].

وليس معنى الاستثناء هنا في قوله [إلاّ عبـادك مـنهم المخلـصين] إن الـشيطان يترك هؤلاء المؤمنين وشأنهم، لا يتعرض إليهم، ولا يزين لهم الأعمال القبيحـة، بـل على العكس إنه مطمئن من اتباع أهل الغوغائيـة لـه فهـؤلاء لا يحتـاج لجـرهم إليـه صرف طاقة كثيرة، وكبيرة، بل المشكلة تكمن في هؤلاء المؤمنين المخلصين لله في كـل صغيرة وكبيرة هؤلاء الذين أضفى الله عليهم من نوره فطهرت قلوبهم فلا يـشركون في عبادة ربهم أحداً.

هؤلاء الذين يقول فيهم أمير المؤمنين (عليه السلام): (فمن علامة أحدهم أنك ترى له

---

(١) سورة الأعراف: الآية، ١٧.

(٢) لاحظ الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآيات من سورة الأعراف.

(٣) سورة الأعراف: الآية، ١٨.

(٤) سورة الحجر: الآيتان ٣٩ – ٤٠.

قوة في دين، وحزماً في لين، وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعلماً في حلم، وقصداً في غنىً، وخشوعاً في عبادة، وتجملاً في فاقة، وصبراً في شدة، وطلباً في حلال، ونشاطاً في هدىً، وتحرجاً عن طمع. يعمل الأعمال الصالحة، وهو على وجلٍ يمسي وهمه الشكر ويصبح وهمه الذكر، يبيت حذراً، ويصبح فرحاً، حذراً لما حذر من الغفلة وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة... الخ)[١].

هؤلاء الذين يتحدى الله بهم إبليس فيقول:

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾[٢].

٤ - **(إلهي أتَراني ما أتيتُك إلاّ مِنْ حَيثُ الآمالِ أم عَلِقتُ بأطرافِ حِبالِك إلاّ حين باعدتني ذُنوبي عن دارِ الوصالِ).**

الهمزة في قوله: (أتراني) للاستفهام الإنكاري، والمعنى أتظنني أو أتحسبني.

وعلقت: بالتخفيف من تعلقت لا من باب علقت بالتشديد.

وأطراف الحبال: المقصود بها هنا الطرق أو الجسور الموصلة بين العبد، وربه من الدعاء، والعبادة، والتضرع، والبكاء من خشيته، وامتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه.

ودار الوصال: هي كناية عن قربه سبحانه، والتقرب إليه.

ويتصور الداعي أن خذلان الله له، وتركه لوحده في ميدان المعركة مع الشيطان، وعدم الالتفات إليه إنما هو لأجل أن الداعي جاء إلى ربه متأخراً من موطن الضعف حيث لعبت به الأهواء، وساقته الآمال، وجاء بعد أن حجبت الذنوب بينه، وبين ربه، لا من منطلق القوة الإيمانية، والعقيدة الإلهية.

إلهي: وبتمام الخضوع، والخشوع إن كان خذلانك، وطردك لي من حيث إنك

---

(١) مقاطع من خطبة لأمير المؤمنين(عليه السلام) خطبها بعد أن طلب منه أحد أصحابه يقال له همام أن يصف له المتقين فبدأ بوصفهم لاحظ نهج البلاغة: ٢، ١٨٥.

(٢) سورة الإسراء: الآية، ٦٥.

اعتبرتني قد لجأت إليك بعد أن قادتني آمالي الواهية إلى متاهات السراب العريضة وأنني نصبت إليك جسوراً لأصل إليك ولكن بعد أن أبعدتني ذنوبي عنك، وعن قربك، ورحمتك.

إلهي: إذا كانت نظرتك إلي من هذه النافذة، ومن هذا الإطار ـ وعندما يصل الداعي إلى هذه النتيجة يغض طرفه، وهو يكمل الفقرة الآتية من الدعاء مردداً بصوتٍ يشوبه الإنكسار ـ.

٥ ـ (فَبِئسَ المطيّةُ التّي امتطَتْ نَفسي مِن هَواها).

ويتابع دعائه والألم يحز في نفسه، ويتوجع متلهفاً، ومعجباً من عمله ليقول:

(فَواهاً لَها لما سَوّلت لها ظُنونُها ومُناها).

وأخيراً: يصدر حكمه على هذه النفس الشريرة المتمردة التي أوصلته إلى هذه النتيجة المخزية وهذا المستنقع الضحل.

٦: (وتباً لها لجُرأتها على سيّدِها ومَولاها).

والتب: هو الخسارة، والهلاك.

وتظلم الدنيا في عين الداعي، وهو يرى نفسه قد تطاول على مولاه، وتجرأ عليه فيا للخسارة الدائمة، ويالهلاكه، وسوء منقلبه.

ويرى الداعي أن الشقة بعدت بينه، وبين ربه.

لحظات حرجة تمر عليه، وهو يدور في دوامة من التفكير ماذا يصنع؟.

أيترك النفس وحبلها على غاربها تتقرب إلى الشيطان، وتبعد عن شاطئ الأمان بعيداً عن لطف الله وكرمه، أم يعود إلى ربه يلتمس أن يمن عليه مرة أخرى فيلقي إليه بالحبل ليعيد هذا الزورق التائه وسط هذه الأمواج العاتية أمواج الحياة الصاخبة إلى حيث الطمأنينة والاستقرار والإيمان الراسخ بالله العظيم؟.

ويتأرجح الداعي بين اليأس والرجاء.

لطف الله وعفوه، يلوح له بالضوء الأخضر.

ونفسه وهواها، تدفع به إلى اليأس من روح الله ورحمته.

ورحمة الله، وإن كانت واسعة وليس لها حد وحدود، ولكن رقة التصوير في الدعاء تصور للداعي رحمة الله، وكأنها بيت كبير، وله باب، والله سبحانه يفتح هذا الباب لمن يحب، ويبقيها مغلقة في وجه من لا يرغب فيه.

ويقذف الدعاء الأمل بقلب الداعي أن يطرق هذا الباب وقد جاء في الأخبار أن من أكثر طرق الباب يوشك أن يفتح له.

أخيراً: يتغلب الرجاء ويعود الداعي إلى ربه يلتمس رحمته. (وقد أتيتك يا إلهي بعد تقصيري وإسرافي على نفسي معتذراً نادماً منكسراً مستقيلاً مستغفراً منيباً مقراً مذعناً معترفاً لا أجد مفراً مما كان مني ولا مفزعاً أتوجه إليه في أمري غير قبولك عذري وإدخالك إياي في سعة رحمتك) [1].

وبخطىً ثابتة يتقدم الداعي نحو باب رحمة ربه نحو كرمه نحو لطفه ويصل به المطاف إلى رحاب الله فيمد يد الرجاء ليطرق بها بابه بمطارق الدعاء والضراعة والخشوع والاعتراف بما جنته يده.

ويرفع طرفه نحو السماء، ولكنه يغض بصره حياءً من ربه، ولسانه رطب بفقرات الدعاء التالية:

٧- (إلهي قرعتُ بابَ رَحمتِكَ بيدِ رَجائي).

٨ - (وهربتُ إليكَ لاجئاً من فَرطِ أهوائي).

٩- (وعلّقتُ بأطرافِ حِبالِك أناملَ وَلائي).

إلهي: ونغم الدعاء يضفي على هذا النداء روعة الإلتجاء والإنكسار.

والإنكسار ذل، ولكنه أمام الله جلت قدرته رفعة واعتزاز.

وفي مد اليد نحو الآخرين ضيعة ولكنها إلى الله عز وجل فخر وإكبار ذلك:

---

(١) فقرات من دعاء كميل (عليه الرحمة).

لأن الله الكريم وأكرم الأكرمين، فلا لوم على عبدٍ مد يده نحوه يطلب منه.

وليقف الداعي مع من قصد باب رحمة الله لينصت بخشوع إلى الإمام زين العابدين (عليه السلام) وهو يطرق ذلك الباب بيدٍ من الرجاء مملوءةٍ وعينٍ بالدموع منهمرة، وهو يردد:

إلهي: لا تغلق على موحديك ابوابك رحمتك، ولا تحجب مشتاقيك عن النظر إلى جميل رؤيتك.

إلهي: نفس أعززتها بتوحيدك، كيف تذلها بمهانة هجرانك، وعندما يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في فقرتنا هذه الدعائية.

(إلهي: قرعت باب رحمتك بيد رجائي).

فإن حفيده الإمام زين العابدين (عليه السلام) يعلمنا عبر هذه الفقرات كيف نقرع هذا الباب، وكيف يكون الدعاء، وكيف يكون التوسل بالله ليفتح أبواب رحمته في وجه من يريد أن يكون ضيفاً على الله في رحابه المقدس.

ولنشترك معه في ترتيله، ومناجاته، وهو يضرع إلى الله سبحانه قائلاً:

(يا من لا يفد الوافدون على أكرم منه، ولا يجد القاصدون أرحم منه.

يا أرحم من خلابه وحيد، ويا أعطف من آوى إليه طريد، إلى سعة عفوك مددت يدي، وبذيل كرمك أعلقت كفي، فلا تولني الحرمان، ولا تبتلني بالخيبة والخسران، يا سميع الدعاء، يا أرحم الراحمين) [1].

وأخيراً، ليقف الداعي، وهو يترنم بقول الشاعر:

مالي سوى قرعي لبابك حيلة ... فإذا رددتُ فأيّ باب أقرع؟

وهكذا نستمر في مسيرتنا الدعائية لنستمع إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) يعقب

---

(١) فقرات من مناجاة الامام زين العابدين (عليه السلام) الموسومة بمناجاة المتوسلين المذكورة في الصحيفة السجادية.

بالفقرة الدعائية التالية:

«وهربت إليك لاجئاً من فرط أهوائي».

ويصور لنا الدعاء حالة الداعي وينقلنا التصوير إلى تذكر ما صدر منه من الذنوب أو إلى تصور نفسه مقصّراً إزاء ربه، فيرى المصير المظلم، ويرى نفسه أصبحت بعيدة عن خالقها، وتمتلكه حالة من الخوف والهلع فيفر هارباً:

ولكن إلى أين وممن؟.

إلى أين: ولا يدري إلى أين؟ شأنه في ذلك شأن كل هارب خائف يطلق لقدميه العنان لينجو بنفسه.

وممن: من الله، وملائكته، ومن جهنم، وزبانيتها.

ويصحو ليرى نفسه تسير، ولكن على غير هدىً لأن الأبواب بوجهه مغلقة،وليس بإمكان أي أحدٍ أن ينقذه من عذاب الله إلاّ باب واحد يراه مفتوحاً بوجه اللاجئين وإن تخيل الداعي أنه مغلق بوجهه.

ذلك هو باب الله، وهي باب رحمته، وباب لطفه وكرمه. يقصده كل أحد، ويلجأ إليه اللاجئون، «يا خير من أمّل فضله المؤمّلون، وقصده القاصدون، ورجاه المقلون ولج في سعة رحمته المذنبون».

«وعلّقتُ بأطرافِ حبالَك أناملَ ولائي»:

كلمة الحبال تقدم ذكرها في الفقرات السابقة من الدعاء حيث قال (عليه السلام):

(أم علقت بأطراف حبالك إلاّ حين باعدتني ذنوبي عن دار الوصال).

وقد قلنا فيما سبق إن المقصود من الحبال هناك هو الجسور الموصولة إلى الله سبحانه، وهي التي تربط بين العبد، وبيّنا أنها الوسائل التي تحكي عن تضرع العبد من بكائه ودعائه، وخشوعه، وخضوعه.

أما هنا جاء الداعي ـ بعد أن وقف مع جملة من وقفوا على باب الله يقرعه بيد

الرجاء ـ يسلك طريقاً جديداً لجلب رضا الله سبحانه، وهذا الطريق هو تعلقه بمحمدٍ، وآل محمد، وبكل مؤمن له عند الله المنزلة الرفيعة، وقد جعل ذلك وسيلة، وشفيعاً له عنده.

إن سياق الدعاء، والتعبير من الداعي بأنه علق أنامل ولائه بحبال الله يعطي هذا المعنى، وبتعبير آخر إن الداعي يريد أن يقول لربه ـ وهو يطرق باب رحمته ورضاه، ويقدم مستمسكات إخلاصه له ـ إنني جئت إليك مستمسكاً ومتمسكاً بالحبل الموصل إليك، وهو ولايتي وولائي، ومتعلق الولاء، وإن لم يذكر في الفقرة إلاّ أنه معروف من حال صاحب الدعاء، وهو أمير المؤمنين (عليه السلام) الذي طالما رأيناه، والأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) يجعلون محمداً، وآله وسيلة لنيل رضا الله، ومغفرته، أو لطلب التوفيق منه أو لأمر آخر من أمور الدنيا، والآخرة.

١٠ـ (فاصفَح اللّهُمَ عما كُنتُ أجرمتهُ من زَللي وخَطائي).

الصفح: العفو والتجاوز، وأصله الإعراض بصفحة الوجه.

والزلة: السقطة، والعثرة، وتطلق على الخطيئة.

والزلل: مصدر زل، وقد يكنى به عن ارتكاب الذنوب كما جاء ذلك في قوله الشاعر:

(فقلت استغفر الرحمن من زللي)

أما الخطأ: فقد يطلق، ويراد به ضد الصواب، وما لم يتعمد من الذنب، والإثم.

والظاهر، هو أن المراد به هنا الإثم من الخطيئة لأن ما صدر من الإنسان خطأً بمعنى ما لم يتعمد من الذنب، أو ضد الصواب ليس الإنسان بمعاقب عليه لأنه مرفوع من قبل الشريعة المقدسة، في جملة أشياء لا يعاقب عليها لو حصلت.

منها النسيان، ومنها ما يكره عليه الإنسان، ومنها ما يصدر من الشخص غير متعمد بصدوره، وقد جاء في الحديث عنه (صلى الله عليه وآله) فيما نقله عنه الإمام الصادق (عليه السلام) في قوله: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): رفع عن أمتي تسعة: الخطأ والنسيان، وما

استكرهوا عليه، وما لا يطيقون، وما لا يعلمون، وما اضطروا إليه، والحسد، والطيرة، والتفكر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطقوا بشفة)[١].

على أن القرآن الكريم أطلق لفظ الخطيئة أو الخطأ وأراد الذنب في أكثر من آية شريفة فقال سبحانه: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾[٤].

وهكذا نرى الآيات الكريمة تطلق هذه اللفظة، وتريد منها الذنب.

ومن مفردات هذه الفقرة ننتقل إلى ما تحمله من مطالب قدمها الداعي إلى ربه.

لقد قرع الداعي باب رحمة الله بيد الرجاء، وهرب إليه لاجئاً من هوى نفسه، وتشفع إليه بولائه لآل بيت الرحمة، ولابد لنا من أن نفترض أن الله قد قبل منه هذا التضرع، ومنحه اللجوء إلى ساحته المقدسة فما هي طلباته، وماذا يريد من وراء هذه الضجة، وهذا الانعطاف الدعائي، والتقلب على باب رحمة الله؟.

ويتقدم الداعي بطلبه وبعرضه أمام الله منتظراً منه الإجابة بعد هذه الالتفاتة من ربه نحو عبده النادم.

وأفصح الداعي عما يريد، ورفع يديه كهيئة المستعطي الفقير يستقبل بباطنهما السماء، وهو يردد:

إلهي:

(فاصفح اللهم عما كنت أجرمته من زللي وخطائي).

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ١١، ٢٩٥.

(٢) سورة الاسراء: الآية، ٣١.

(٣) سورة الشعراء: الآية، ٨٢.

(٤) سورة يوسف: الآية، ٩٧.

وهذا هو معنى التوبة، والعود إلى قدس الله، وروحه.

وهذا معنى الخضوع لمولاه بعد أن عصفت به الأعاصير فجعلت منه إنساناً متمرداً على ربه، وعلى مجتمعه، وعلى بيته، وأسرته.

جاء الداعي ليفتح ملفاً جديداً مع ربه.

ملفاً أبيض لا تشوه صفحاته الجرائم، والذنوب.

ولكن كيف يقدم هذا الملف مع أن ملفه السابق يحمل بين طياته مخالفات عديدة صدرت منه، وكان يساعده على تشويهها الشيطان بمغرياته وأساليبه الخادعة... لذلك تقدم الداعي يجمع بين الجرأة، والانكسار يريد من ربه أن يصفح عن كل جرم أجرمه.

الجرأة، بما تحمله هذه الكلمة من معنى لأنه مذنب ولأنه مقصر في حق من نعمه لا تحصى وأياديه لا تجازى.

ومنكسراً، لأنه يعرف مع من كان مقصراً، ومذنباً.

مع جبار السماوات، والأرضين.

مع من إذا قال لشيء كن فيكون.

ولكنه مع كل ذلك أقدم، وهو يردد قائلاً:

(فاصفح اللهم عما كنت أجرمته من زللي وخطائي).

والداعي عندما طلب من ربه مثل هذا الطلب يعرف جيداً ما هي الأسباب التي جعلته يقدم على الذنب، ويرتكب الجريمة فهو إنسان والغرور من غرائز هذا المخلوق المسكين لا ينفك عنه إلاّ ذو النفوس الخيّرة المؤمنة فهي التي تقدر كيف تشق طريقها في هذه الحياة من غير تكبر، ولا غرور، ولا استكبار في الأرض.

لذلك عقّب طلبه بطلب آخر مزيجٍ من طلب وبيان لسبب ما صدر منه من الذنب فقال:

١١ـ (واقِلني من صَرعةِ رِدائي).

الإقالة: هنا بمعنى: خلصني.

والصرعة: هي السقوط على الأرض من صرعه إذا رماه على الأرض. ومنه المصروع أي ذو المرض الذي يلقي بصاحبه أرضاً فاقداً.

والرداء: ثوب معروف يضعه الإنسان على عاتقه بين كتفيه، وفوق ثيابه.

وقد يُقال في توضيح هذه الفقرة: إن الداعي طلب منه ربه أن يخلصه من هذا الثقل الذي على عاتقه من الذنوب والآثام التي أحاطت به كإحاطة الرداء ببدن الإنسان من قبيل ما جاء في قوله تعالى:

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾[1]. فكان ذلك سبباً لوقوعه، وانهياره أمامها كما يقع المصروع أرضاً، لذلك طلب من الله خلاصه منها.

وقد يُقال: إن غرور الإنسان هو الذي دفع به لأن يتجرأ على المولى فيقصر في حقه، ويخالف أوامره ويرتكب نواهيه فكان كمن يجر رداءَه متكبراً على مولاه وكان ذلك سبباً لوقوعه في الهلاك أي في الآثام، والذنوب.

والمراد على كلا التفسيرين واضح، وما يريده الداعي من هذه الإقالة، وهذا التخليص.

وقد يتصور الداعي أن الله سيحاسبه، ويسأله عن هذه الطلبات المتلاحقة مع أنه المقصر، والمتجرئ على مولاه ولماذا هذا التوقع؟.

لذلك عقب طلبه معللاً هذه الجرأة ،وهذا الإقدام بقوله:

١٢ـ (فإنّك سَيدي ومولاي ومعتمدي ورجائي).

١٣ـ (وأنتَ غايةُ مطلوبي ومُناي في منقَلبي ومثْواي).

وبدأ الداعي يوضح أسباب هذه الجرأة، والدوافع التي دفعت به أن يتقدم ولا يبالي بطلبه إلى ربه ليخلصه من ذنوبه وخطاياه.

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٨١.

(فإنك سيدي):

والسيد: هو كبير القوم، ومن تجب إطاعته، وإذا صدر تقصير من بعض أتباعه فمن أولى منه بالعفو، والتجاوز عنه؟ هذا بين البشر أنفسهم فكيف بسيد السادات ومن وسم نفسه بالرحمن الرحيم العفو الغفور؟.

(ومولاي):

والمولى: هو الناصر، والمعين، ومنه مولى العبد فإنه ناصره، ومعينه، ومن يتولى أمره، ومن يعفو عن العبد الآبق غير مولاه؟.

(ومعتمدي):

والمعتمد: من يتكئ عليه الإنسان، ويعتمد عليه، وليس له من يسند ظهره إليه غيره فهو جداره الحصين، والأساس المتين الذي يبني عليه آماله العريضة في التجاوز عن جرائمه، وخلفياته.

(ورجائي):

أي وأنت مرجوي، ومن أرتجيه في كل شدة وأعول عليه في جميع ما أريد من حوائجي الدنيوية، والآخروية. «وأنت غاية مطلوبي ومناي».

والغاية هنا نهاية ما يقصده الإنسان في مطالبه، وأمنياته، وقد عمم الداعي بجعل ربه غايته في الدنيا، والآخرة عندما قال:

(في منقلبي ومثواي):

والمنقلب: هو الآخرة أما المثوى فهو مكان الإنسان. من ثوى بالمكان إذا أقام به.

هذه مبررات إقدامه، وهذه هي الدوافع التي دفعت به لأن يتعدى حدود الأدب مع ربه، فيطلب منه، وهو المذنب، ويتمنى عليه، وهو المتجرئ.

ولماذا لا يطلب؟. ولماذا لا يتمنى؟.

أليس هو عبده آبق آت إلى ربه نادماً منكسراً معتذراً مستقيلاً مستغفراً؟.

ألم يكن العود إلى ربه، وسيده، ومولاه، ومعتمده، ورجائه؟.

أليست عودته إلى: غياث المستغيثين، وغاية الطالبين، وبغية الراغبين وكنز الفقراء، وعون الضعفاء؟.

أليس الذي عاد إليه ـ وهو الله سبحانه ـ هو غاية ما يتوخاه الإنسان في هذه الدنيا، وفي الآخرة؟.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[(١)].

أما أنه أذنب وأجرم فإن الداعي بشر، ولم يصدر ما صدر منه من الذنب والتقصير بدافع التحقير، والاستهانة لخالقه، أو الإنكار لمبادئ الإسلام بل كان ذلك:

يا إلهي:

لهوىً قد غلبني وعدوٍ قد استكلب عليَّ ودنياً قد تزينت لي ونفس أمارة بالسوء، وكل ذلك لا يكون مبرراً ليقطع رجاءه من ربه، وهو القائل في كتابه الكريم:

﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[(٢)].

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ﴾[(٣)].

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾[(٤)].

وأخيراً: ألم يقل في آية أخرى:

﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾[(٥)].

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٠١.

(٢) سورة الحجر: الآية، ٥٦.

(٣) سورة الأنعام: الآية، ١٤٧.

(٤) سورة الكهف: الآية، ٥٨.

(٥) سورة الزمر: الآية، ٥٣.

المقطع الخامس:

١ـ إلهي كيف تَطرُدُ مِسكيناً التجأ إليكَ من الذنوبِ هارباً.

٢ـ أم كيفَ تُخيّبُ مُسترشداً قَصَدَ إلى جنابِك ساعياً.

٣ـ أم كيف ترُدُّ ظمآنَ وردَ إلى حياضِكَ شارباً.

٤ ـ كلاّ وحياضُك مترعةٌ في ضَنْكِ المحُول.

٥ ـ وبابُك مفتوحٌ لِلطَّلب والوغولِ.

٦ ـ وأنتَ غايةُ المسؤولِ.

٧ـ ونِهايةُ المأمولِ.

يقف الداعي بين يدي هذا المقطع من الدعاء ليتذوق حلاوة الدعاء من خلال هذا العتاب الهادئ.

يقف ليرى الخشوع ينساب من كل نغمة دعائية يرتلها الداعي بصوت تجلله الضراعة.

يقف ليرى الخضوع ذلة إلاّ إذا كان لله سبحانه.

يقف ليشاهد كيف يمدّ الداعي يد المسكنة نحو ربه.

لقد تضمن هذا المقطع عتاباً رقيقاً يصدره الداعي يعاتب به رباً عطوفاً كريماً، فيبدأ بالاستفهام مستنكراً، ويشفعه بآخر، ولا يكتفي بل يستفهم مستنكراً ثالثاً، ثم لا ينتظر الإجابة، بل يتولى هو الإجابة عن هذه الاستفهامات المتلاحقة بتنزيه ساحة ربه عما تخلفه هذه الإنكارات التي جاءت على شكل استفهام يوجهه الداعي لربه مشفوعاً بعتاب يصدر من عبدٍ أيقن بأن الله لا يرد من التجأ إليه تائباً.

ومع الدعاء في موكب الضراعة، والخشوع.

١: (إلهي كَيْف تَطرُدُ مِسكيناً التجأ إليكَ من الذنوبِ هَارِباً).

كيف: الاستفهام هنا إنكاري، وليس باستفهام حقيقي.

تطرد: الطرد هو الدفع والإبعاد، وقولك طردت الرجل إذا أبعدته عنك.

مسكيناً: المسكين مأخوذ من دائم السكون، ومن المسكنة، وهي الذلة والافتقار، أما المسكين بالنسبة إلى الحالة المالية فقد فرق بينه، وبين الفقير:

بأن الفقير الذي لا يسأل الناس، والمسكين أجهد منه، جاء ذلك عن الإمام الصادق(عليه السلام).

وقيل: الفقير الذي يملك شيئاً، ولكنه لا يكفيه لقوت سنته، أما المسكين فهو الذي لا يملك حتى ولا بعض الشيء من قوت سنته.

وقيل: بالعكس من ذلك.

وقيل: الفقير من يمد يده إلى الآخرين، وأما المسكين فلا يمد يده إلى أحد.

قيل: بهذه الفروق في الأمور المالية. أما في المقام فلا فرق بين هذين المصطلحين الفقير، والمسكين لأن المراد منها شيء واحد، وهو الإفتقار إلى رحمة الله، والتذلل إليه بمسكنة، وإنكسار.

والجار والمجرور في قوله: «من الذنوب» متعلق بقوله: (هارباً).

ليكون التقدير التجأ إليك هارباً من الذنوب.

ومع الداعي وهو يبدأ في هذه الفقرة مرحلة جديدة من دعائه نقول:

طلبات الداعي بالإمكان تقسيمها من حيث المبدأ إلى دنيوية، وأخروية، ولسنا في صدد بيان نوعية الطلبات الدنيوية، أو الأخروية فذلك معروف لكل أحد، ولكن لنا وقفة مع الداعي في التعرف على حالته عندما يتوجه إلى ربه بطلبٍ دنيوي، أو أخروي ، وهل هناك فرق بينهما أم لا؟.

وللإجابة على ذلك نقول، بوجود الفرق بينهما من ناحية انكشاف الإجابة

وعدمها.

ففي الطلبات الدنيوية في الغالب ينكشف الأمر للداعي، أما في الطلبات الأخروية فالأمر ليس كذلك بل في الغالب يبقى الأمر مستوراً على الداعي وتوضيحاً لبيان الفرق:

فإن الداعي بالنسبة إلى طلباته الدنيوية يبدأ مسيرته متضرعاً إلى ربه يدعوه ليقضي له حوائجه من كل ما تشمله الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (١).

ويبقى بعد هذه العملية ينتظر الإجابة من ربه، وتبعاً لرغبته في الحاجة فقد يترك لو أبطأت الإجابة، وقد يلح في الطلب ويبقى يلح في طلبه، وقد يتطور الأمر فيقدم على العتاب الممض الذي لا يناسب صدوره من العبد تجاه مولاه، وفي هذه الصورة قد يبقى على تجريه، وقد لا يبقى حيث يجد نفسه قد خرج من حدود الأدب، ولذلك نراه يعود إلى حظيرة الإيمان معتذراً وهو يردد:

(اللهم إن عفوك عن ذنبي وتجاوزك عن خطيئتي، وصفحك عن ظلمي، وسترك على قبيح عملي، وحلمك عن كثير جرمي، عندما كان من خطأي، وعمدي أطمعني في أن أسألك ما لا أستوجبه منك الذي رزقتني من رحمتك، وأريتني من قدرتك، وعرفتني من إجابتك، فصرت أدعوك آمناً، وأسألك مستأنساً لا خائفاً، ولا وجلاً مدلاً عليك فيما قصدت فيه إليك فإن أبطأ عني عتبت بجهلي عليك، ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور) (٢).

(ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور).

ولماذا لا يكون خيراً له لو أخر الله إجابته، وقد جاء في الأحاديث الشريفة، (أن الله إذا أحب عبداً احتبس دعوته ليناجيه، ويسأله، ويطلب إليه، وإذا أبغض

---

(١) سورة الكهف: الآية، ٤٦.

(٢) فقرات من دعاء الافتتاح يدعى به في ليالي شهر رمضان.

عبداً عجل له دعوته أو ألقى في قلبه اليأس منها)[١].

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إن رجلاً كان في بني إسرائيل قد دعا الله أن يرزقه غلاماً يدعو ثلاثاً وثلاثين سنة فلما رأى أن الله تعالى لا يجيبه قال: يا رب أبعيد أنا منك فلا تسمع مني أم قريب أنت فلا تجيبني؟ فأتاه آتٍ في منامه فقال له: إنك تدعو الله بلسان بذيّ، وقلب عاتٍ غير نقي، وبنيةٍ غير صادقةٍ فاقلع عن بذائك، ولينق الله قلبك، ولتحسن نيتك. قال ففعل الرجل، فدعا الله عز وجل فولد له غلام)[٢].

هذه حالات الداعي عندما يطلب من ربه لأموره الدنيوية وبالأخير يعرف حال حاجاته فإن استجيب له وإلاّ فبعد إلحاحٍ منه يعلم أنه لا يوفق لذلك فيترك.

وأما بالنسبة إلى الطلبات الآخروية، فطبيعتها أنها لا تظهر آثارها للداعي ليقف على مدى استجابة الله له فيها.

فمثلاً: نرى الداعي، يطلب من ربه أن يرزقه حسن العاقبة فمتى يعلم الداعي أن دعاءه استجيب من قبل الله؟.

إن ذلك يبقى مخفياً عليه حتى موته فإن لم يزل على ما كان عليه من حسن إسلامه، ومعاملته الطيبة مع الناس، وبقائه على عقيدته فمعنى ذلك أن الله استجاب له دعاءه، وإلاّ فلا، ولكن ذلك لا يظهر له إلاّ بعد الموت.

وفي مجال آخر، فإن الداعي يطلب من ربه أن يغفر له ذنوبه، ويعفو عنه فكيف يفهم الداعي أن ربه قد استجاب له، وغفر له ذنوبه، وتاب عليه.

على أن الله سبحانه لم يقيّد نفسه، ويلتزم لعبده أن يعلم كل من غفر له بأنه غفر له، وعفى عنه سواءٌ بوساطة رسول، أو إلهام، أو رؤياً في منام وهكذا.

بل يبقى ذلك مكتوماً، ومخفياً ليبقى الإنسان منشداً إلى ربه غير آيس من رحمته،

---

(١) الشيخ الصدوق: الأمالي/ ٣٧٣.

(٢) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٩٠، ٣٧٠ وما بعدها.

ولا ضامناً لاستجابته إلاّ بالاعتماد على الآيات الكريمة، والأخبار الشريفة القائلة بأن الله يغفر الذنوب جميعاً ما عدا الشرك به.

ولكن كل ذلك من باب المقتضى للمغفرة لا من باب حصول العلة والمعلول بمعنى أن من دعا، وتضرع، وتاب فـ لله أن يغفر له، وله ألا يغفر له.

إذاً فمسألة الطلبات الآخروية تبقى بين اليأس، والرجاء، وهي إلى الرجاء أقرب إلى أن يؤتى العبد في يوم القيامة بكتابه. فإن أوتي كتابه بيمينه فيعلم أن دعواته قد استجيبت، وغفر له، وأما لو أوتي كتابه بشماله فيا للحسرة والخسران، وعندها يعلم أن دعواته كانت هواءً في شبك كما يقولون.

ومن هذا المنطلق، نرى الداعي وقد أنهى ما عنده من وسائل، وجسور توصله إلى الله، فقد جاء إلى باب رحمته بطرقه ليُفتح له، وقد طلب من ربه، وألح في الطلب، وتنوع في كيفيته، وبذل كل ما في وسعه من جهة لينال رضا الله.

ولكن طلب المغفرة والتوبة ـ كما قلنا ـ من القسم الثاني من الطلبات، وهي التي لا تكشف للطالب في هذه الحياة لذلك بدأ الشك يتسرب إلى نفس الداعي، واحتمل انه لم يحض بالإجابة، وأنه ليس أهلاً لعطف مولاه.

ومن الاحتمال أخذ بالترقي، فصورت له مُخيلته صورة العبد المطرود المدفوع عن سوح رحمة الله نتيجة تراكم ذنوبه، لذلك بدأ صفحةً جديدة من حواره مع مولاه.

صفحة رسم فيها تضرعه مشوباً بعتاب ممزوجاً ببيان صفات الله التي من شأنها العفو، والرحمة.

يقول الداعي، وهو يخاطب ربه:

(إلهي: كيف تطرد مسكيناً التجأ إليك من الذنوب هارباً).

إلهي: وهي مفتاح الحوار بين الداعي، وربه.

إلهي: وهي الكلمة المّحببة إلى النفوس المنكسرة التي لا تجد لجبر كسرها إلاّ

هذا النداء الذي يفتح أمام الداعي النافذة التي يطل منها على رضوان الله وعفوه، ومغفرته، وصفحه.

(كيف تطرد مسكيناً):

وللداعي أن يتعجب، وله الحق في إرسال هذه الصيحة من أعماق القلب.

إنه مسكين، والمسكين ذليل لمن قصده.

وهو مسكين لأنه مفتقر إلى رحمة ربه.

وهو مسكين لأنه عرف ما صدر منه فجاء نادماً معتذراً.

وهو مسكين لأنه وجد الأبواب مغلقة في وجهه إلاّ باب رحمة الله الواسعة.

وهو مسكين لأنه فرّ من ذنوبه ليلجأ إلى من يضمه، ويؤويه فلم يجد من الناس من يقوم بهذه المهمة فعاد فاراً إلى الله، وهو يقول: «أعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ برحمتك من نقمتك، وأعوذ بمغفرتك من عذابك، وأعوذ برأفتك من غضبك، وأعوذ بك منك لا إله إلا أنت» (١).

تماماً كما كان يقول رسول الله (ﷺ) في سجوده.

ويقف الداعي، والذهول يأخذ منه مأخذه.

فكيف يطرده الله، وهو يقف ببابه متضرعاً.

وكيف يرد يداً مدها نحو من لا يُقال لغيره: يا أكرم الأكرمين، ويا أرحم الراحمين.

ولم يقف الدعاء بالداعي إلى هذا الحد، بل وجد الداعي نفسه وسط بحر الذنوب غارقاً، لذلك بدأ يتابع بصيحات الاستغاثة يرسلها إلى من قال عن نفسه إنه هو الغفور الرحيم.

يرسلها إلى سفينة الإنقاذ لتنتشله من هذا المصير المحتوم لقد فر إلى ربه، وهو مذعور يردد:

---

(١) الشيخ الطوسي: مصباح المتهجد/ ٤٦.

إلهي: كيف تطرد مسكيناً التجأ إليك من الذنوب هارباً؟.

وعقّب هذه الصيحة بصيحة أخرى، وهو يتودد إليه قائلاً:

٢ـ (أم كيفَ تُخيِّبُ مُسترشداً قَصَدَ إلى جنابِك ساعياً).

تخيب: يقال خاب الرجل إذا لم ينل ما طلب والخيبة من الحرمان والمحرومية.

مسترشداً: والمسترشد من طلب الرشد ضد الغي.

أما الجناب: فهو الفِناء، والناحية، والمراد به القرب من الله سبحانه.

ساعياً: والسعي العدو، وفيه مبالغة في الذهاب، والمشي، والكد.

وفي بعض النسخ (ساغباً)، وهو الجوع ومنه قوله تعالى:

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾[(١)].

قال المفسرون إنّ يوماً ذا مسغبة هو يوم المجاعة، قال ابن عباس: أراد بالمسغبة الجوع، وفي الحديث عن معاذ بن جبل «قال: قال رسول الله (ﷺ): من أشبع جائعاً في يوم سغب أدخله الله يوم القيامة من باب من أبواب الجنة لا يدخلها إلاّ من فعل مثل ما فعل»[(٢)].

وعندما نلاحظ هاتين النسختين (ساعياً) و (ساغباً) نقول:

إن قراءة (ساعياً) أنسب بكلمة (قصد) في هذه الفقرة.

أي: قصدك بهمة، وعَدوٍ، وهو مبالغة في الهمة بالتوجه إلى الله حيث يفرق بين قصد المكان بهدوء، وتؤدة، أو بركضٍ وعدوٍ، ولهفةٍ، ولاشك أن الثاني أوقع في قلب من قصد، ومن توجهوا إليه.

أما قراءة (ساغباً) فإنها أنسب بالفقرة التي تلي هذه الفقرة حيث يقول فما

---

(١) سورة البلد: الآيات، ١١ ـ ١٥.

(٢) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية، الكريمة.

الداعي: (أم كيف تخيب ضمآن ورد إلى حياضك شارباً؟).

وبذلك يكون الدعاء قد جمع بين حالتي الجوع، والعطش عند التوجه إلى الله أي كان القصد إلى الله كحال من أَلَمَّ به الجوع، وكض به العطش.

وعلى كل حال، فإن المعنى واضح، ومتقارب على كلتا القراءتين، وهو بيان حال القاصد عندما توجه إلى الله، وهو بهذه الحالة من الافتقار إلى رحمته وعفوه.

ويصور الدعاء الداعي بالضال الذي ضلّ عن الطريق فقصد ربه ليسترشد به، ويدله على الطريق الواضح، ويهديه إلى الصراط المستقيم.

فكيف يخيب الله من قصده بهذه الحالة من اللهفة، والخضوع؟

وفي التعبير بقوله: (تخيب) وقع في نفوس الداعي قد لا يحصل لو عبر عنه بلفظ آخر، فالكلمة تعطي معنى الحرمان من فيض الله، وغفرانه، وللحرمان وقعه عند الداعي، لذلك أخذ يتعجب، وقد أرسلها استغاثة مقرونة بالتعجب من تخييب الله سبحانه به.

ولم يقف هذا الداعي الغريق عن إرسال صيحات الاستغاثة بل تابع يطلب النجدة من ربه قائلاً:

٣- (أَمْ كَيفَ تَرُدُّ ظمآنَ وَرَدَ إلى حِياضِكَ شَارِباً).

وفي التعبير عن حالة الداعي بأنه (ظمآن) رقة مؤثرة في النفس فالإنسان عندما يقصد الماء قد يكون (عطشان) ليشرب، وقد يكون (ظمآن) ليرتوي، والظمأ: كما يقول أهل اللغة أشد من العطش، بل فيه حرقة.

وتصور لنا هذه الفقرة من الدعاء حالة الداعي في وروده على ربه ليرتوي من فيض عفوه، ومغفرته بهذه اللهفة، وبهذه الحرقة تماماً كما يلقى الظامئ بنفسه على الماء بعد الطلب الشديد ليعب منه بنهم.

ولذلك جاء الداعي ليكمل حواره متعجباً بأنه كيف يرد الظمآن الذي ورد إلى حياض رحمته ليرتوي منها.

كيف يرده وهو: **(الباسط بالجود يده، الذي لا تنقص خزائنه، ولا يزيده كثرة العطاء إلاّ جوداً، وكرماً)** [(١)].

ولماذا لا يكون جواداً، بل لماذا تنقص خزائنه؟.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [(٢)].

ولماذا يخشى العطاء، وهو الكريم؟ وقد سبق لليهود أن وصفوا الله سبحانه بالبخل فقال عنهم القرآن:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [(٣)].

وقد ورد عن النبي(ﷺ): (أن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقته سخاء بالليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات، والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه) [(٤)].

هذا بالنسبة إلى عطائه، وأما بالنسبة إلى عفوه، ومغفرته فيكفي للإنسان أن يتصفح الآيات الكريمة ليرى ما تحمله من بشائر للعباد من عفوه، ورحمته، ومغفرته، وأنه رحمن رحيم، وقد تضمنت الأحاديث القسط الأوفر من بيان ذلك وأن كل فاجر، وفاسق، وحتى إبليس يطمع بعفوه يوم القيامة، وتتضمن الأسماء الحسنى الكثير من الصفات الدالة على هذا النوع من الحنو، واللطف، والشفقة على العباد.

وقد نقلت مصادر التاريخ عن مالك بن دينار ـ وهو من زهاد البصرة ـ أن شاباً كان في زمانه من أهل الفسق، والفجور مات، ولشدة ما كان منفوراً من قبل أهل بلده لفسقه، وفجوره انهم لم يجهزوه بل ألقوا بجسده في خربة من خرابات تلك البلدة إهانة له.

يقول مالك، وفي تلك الليلة رأى في منامه من يقول له: أنت مأمور من قبل الله

---

(١) فقرات من دعاء: الافتتاح.

(٢) سورة المائدة: الآية، ١٢٠.

(٣) سورة المائدة: الآية، ٦٤.

(٤) الدر المنثور في تفسيره للآية: ٦٤ من سورة المائدة.

سبحانه أن تغسل بدن عبدي فلان، وكفنه وادفنه في مقابر الصلحاء.

يقول مالك، فقلت: يا إلهي: هذا من جملة الفسّاق، والفجّار بأي شيء أصبح مقرباً لديوانك؟.

فجاءه الجواب: أصبح مقرباً بكلمة واحدة من الصلحاء فإنه في وقت الاحتضار والنزع قال بعين باكية: يا من له الدنيا، والآخرة إرحم من ليس له الدنيا، والآخرة.

يا ملك أي مريض جاء إلى بابنا وطردناه؟ وأي محتاج جاءنا فنجيناه؟.

شاب فاسق فاجر نفض أهل البلد أيديهم منه بعد موته فألقوه في خربةٍ من خراباتهم تحقيراً له بلا غسل، ولا كفن، ولا دفن.

ولكنه لكلمة واحدة قالها بلهفة ولوعة، وهو يودع دنياه اللاهبة اتجه فيها إلى منبع اللطف، والكرم إلى من له الدنيا والآخرة يناجيه متوسلاً معترفاً بأنه لا يملك شيئاً من الدنيا، والآخرة غير رحمته، وعطفه.

لقد غفر الله جميع ما صدر منه في هذه اللحظات الحرجة، وقد سمع مالك من يقول له من قبل الله سبحانه بإنكارٍ، وشيء من التأنيب أيّ مريض جاء إلى بابنا وطردناه؟ وأيّ محتاجٍ جاءنا فخيبناه؟.

ويسمع الداعي هذا، وأمثاله عن كرم الله، وغفرانه، وروحه، ورضوانه فيأخذه العجب ويعود إلى فقرات الدعاء يرتلها مرة أخرى يمزجها بدموع التوبة، وآهات من قلب كسير:

إلهي: كيف تطرد مسكيناً التجأ إليك من الذنوب هارباً؟.

أم كيف تخيب مسترشداً قصد إلى جنابك ساعياً؟.

أم كيف ترد ظمآن ورد إلى حياضك شارباً؟.

وينهي الداعي عتابه، ويسمح لأفكاره أن تسرح في هذا الفضاء غير المحدود وهو منشد إلى الله سبحانه يفكر في علاقته مع خالقه، وبعده عنه، وقد جسدت له

مخيلته صورته، وهو مطرود عن باب الله، ومصدود عن حياض رحمته.

وفي غلسة من غلسات هذا الشرود، وسبحة من سبحات هـذه الـروح الحـائرة يلتفت، وإذا بشبح من النور يقترب من وراء الأفق البعيد وبكـف مـن وراء الغيـب تربت على كتفه لتعيده إلى هذا العالم مرة أخرى ليسمع صـوت الحـق يمـلأ الفـضاء الرحب، وهو يرتل آيات من الكتاب المجيد من قوله عز وجل:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1]. وينتبه الداعي من شروده مذعوراً يلتفت إلى جهة الصوت فيرى النور قد عاد إلى الأفق البعيد وبقي الصوت تتجاوبه طبقات هذا الفضاء الرحب، وهو يردد: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

ويغض الداعي طرفه، ويطأطئ برأسه نادمـاً عـلى مـا صـدر منـه مـن اليـأس، والقنوط، وأن ما صدر منه من الحوار الجريء لا ينبغي أن يصدر منه، وهو يقف بين جبار السماوات والأرضين الغفور الرحيم.

لذلك عاد، وكله ندم، وحياء يرفع طرفاً كسيراً نحو السماء، وهو يقول مكمـلاً مسيرته الدعائية:

٤ ـ (كَلاّ وَحِياضُك مُترَعةٌ في ضَنْكِ المحوُلِ).

كلا: وهي كلمة ردعٍ تعبر عـن قـول الـداعي لا يـا إلهـي لا كـما كنـت أتـوهم وأتخيل، فإنك لا تطرد أحداً عن بابك، ولا تخيـب مـن قـصدك مـسترشداً ولا تـرد ظمآن ورد إلى حياضك شارباً.

كـلا: أي وحاشاك يا ربي وأنزهك يا سيدي عن أن أصفك بهذه الصفات وبـدأ الداعي يرد على الفقرات السابقة يتراجع عن قولته في ربه.

كلا: وحياضك مترعة في ضنك المحول.

---

(١) سورة الحجر: الآيات ٤٥ ـ ٤٩.

لا يا ربي إن حياضك مملوءة بالعفو، والرحمة، والمغفرة في الوقت الذي يجابه الإنسان بالجدب، والجفاف من كل مكان فتسد الأبواب في وجهه.

٥ ـ (وَبَابُكَ مَفْتُوحٌ لِلطَّلَبِ والوُغولِ).

وكلا يا ربي وعذراً من تطاولي عليك بتخيلي أن أبواب رحمتك مغلقة وموصدة في وجه من قصدك، ونزل بساحتك، بل بابك مفتوح لكل أحد في كل وقت.

ولكل أحد: من غير فرق بين البشر بكافة أنواعهم، وسواءً لمن طلب منهم الدخول، والنزول برحابه المقدس، أو لمن توغل، ودخل من دون استيذان يقول الجوهري: الوغول هو الدخول على القوم من غير استيذان منهم.

فلا حاجب، ولا بواب، ولا مانع، ولا دافع، وهو بعد كل هذا أقرب لعباده من حبل الوريد.

وفي كل وقت: فلأنه حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ولأنه صرح في كتابه المجيد في آيات عديدة بأنه يقبل التوبة من عباده ولم يقيد قبوله لتوبة أي فردٍ من الأفراد بوقت خاص، أبقى الآيات على إطلاقها مفتوحة حيث قال: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [1]. وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [2]. وقال تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ [3].

وقال تعالى: ﴿ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [4].

ولم نجد بين الأخبار ما يقيد مثل هذه الآيات الكريمة ويحدد مواعيد قبوله التوبة وحصرها بوقت خاص... بل العكس من ذلك نجدها لقد حثت الناس على التقدم إلى الله سبحانه والإسراع بالتوبة إليه، وقد زخرت كتب الأدعية، والأذكار

---

(١) سورة التوبة: الآية، ١٠٤.

(٢) سورة الشورى: الآية، ٢٥.

(٣) سورة غافر: الآية، ٣.

(٤) سورة الأحزاب: الآية، ٧٣.

بالكثير من ذلك، وخصصت لكل ساعة، بل، ولكل يوم، ولكل ليلة، ولأيام الأسبوع، والشهر، والسنة دعاءً خاصاً هذا غير الأدعية، والأذكار العامة، والصلوات المستحبة.

كل ذلك لإعلام الإنسان بأن الله يقبل التوبة من عباده مهما كانت الذنوب التي اقترفها ـ عدا الشرك بالله ـ إذا كانت توبته خالصة، وأنه سبحانه يتقبلها من عبده في كل وقت، وحتى لو فاتته الفرصة، وأدركته الهداية ساعة احتضاره وموته.

وما هذه الأدعية، والصلوات إلاّ خلجات، وغلسات تمهد الطريق إلى التأبين للوصول إلى أبواب رحمة الله ليجدوا من يستقبلهم بهذه البشائر التي تبعث الأمل الأخضر في هذه القلوب المنكسرة.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾[1].

٦ـ (وأنتَ غَايةُ المسْؤولِ).

٧ـ (ونِهايةُ المأمُولِ).

وفي تفسير كلمة (المسؤول) وما يقصد منها قيل في ذلك:

أن المراد من يسأل منه، ويكون المعنى على هذا التوجيه:

إلهي وأنت غايتي في سؤالي، وليس قبلك من أسأله في أموري ويعني هذا إن الدعاء يوجه الداعي إلى التوجه إلى ربه ليجعله محط سؤاله والطلب منه دون التوجه إلى غيره.

وقيل: إن المسؤول هو كثير السؤال، ويراد منه نفس الداعي، والمعنى يتوجه على هذا التفسير مخاطباً ربه بأنك يا إلهي غاية، ومرتجى من يدعوك الذي يلح في السؤال عليك.

وجاء في بعض النسخ للدعاء تبديل كلمة (المسؤول) بكلمة (السؤال)، وهو ما

---

(١) سورة الحجر: الآيتان، ٤٥ ـ ٤٦.

يسأله الإنسان والمعنى أنت يا إلهي غاية من يسأله الإنسان، ويطرق بابه.

وأحسب أننا كلما بحثنا عن تفسير جديد نجد أنفسنا نبعد عن مسيرة الدعاء بإطارها الهادئ اللذيذ، إلى السمع عندما يبدأ الداعي بالتضرع إلى خالقه ليعلمه بأنه هو غاية ومنى، ومعقد آمال السائل الذي توجه إلى ربه، وأنه نهاية المأمول أي الموجود، وليس من أرجو غيرك يا رب.

وبهذه الفقرة ختم الداعي هذا المقطع من الدعاء حيث تضرع لربه معلناً بأنه لا يسأل غيره، ولا يرجو أحداً سواه، فهو الولي في الدنيا والآخرة.

المقطع السادس:

١ـ إلهي هذهِ أزمةُ نفسي عقلتُها بِعقال مَشيئتك.

٢ـ وهذهِ أعباءُ ذُنوبي دَرَأتُها بِعفوكَ ورحْمَتكَ.

٣ـ وهذه أهوائي المُضِلّة وكلتُها إلى جناب لُطفكَ ورَأفتكَ.

٤ـ فاجعَلِ اللَّهُمَ صَباحي هذا نازِلاً على بضياءِ الهدى.

٥ ـ وبالسّلامَة في الدّينِ والدُّنيا.

٦ـ ومسائي جُنةً مِنْ كيدِ العدى.

٧ـ ووقايةً من مُرديات الهَوى.

٨ـ إنّكَ قادرٌ على ما تَشاءُ.

٩ـ تُؤتي المُلْكَ مَن تَشاءُ.

١٠ـ وتنزِعُ المُلكَ ممّن تشاءُ.

١١ـ وتُعزُّ من تَشاءُ.

١٢ـ وتُذِلُّ من تَشاءُ.

١٣ـ بِيَدِكَ الخَيْرُ.

١٤ـ إنّكَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

١٥ـ تُولِجُ اللّيْلَ في النّهارِ.

١٦ـ وتُولِجُ النهارَ في اللّيلِ.

١٧ـ وتُخرِجُ الحيّ مِنَ الميّتِ.

١٨ـ وتُخرجُ الميّتَ من الحيّ.

١٩ـ وترزُقُ مَن تَشاءُ بغيرِ حِسابٍ.

يقولون: إن صاحب الحاجة أعمى لا يرى إلاّ قضاها.

ويقولون: إن الإنسان ملحاح في حاجته.

ويقولون: غير هذا، وذاك فيمن يرد شيئاً من غيره، ويقصده لينجزه له.

ولهذا قلما نرى إنساناً يكتفي بعرض حاجته أمام من يقصده دون أن يكرر في المسألة، ويبقى يلف، ويدور، ويعود لعرض مطلبه، وهكذا.

وهذا أمر طبيعي فتعلق الإنسان بحاجته يدفعه إلى مثل هذا النوع من الإلحاح والتكرار في العرض.

وهذا ما نراه واضحاً من خلال هذا المقطع من الدعاء فالداعي لقد سبق له أن طلب من ربه أن يعفو عنه، ويتجاوز عن ذنوبه، وأن يفتح له مصاريع الصباح بمفاتيح الرحمة، والفلاح. وبتعبير أوضح لقد طلب الداعي فيما مضى من مقاطع الدعاء مطاليبه الدنيوية والآخروية، وأنهى مسيرته الدعائية بأن حط رحله على باب رحمة ربه، وطرق تلك الأبواب بيد الرجاء، وتعجب ممن يقول له: إن تلك الأبواب موصدة بوجهه وبأمثاله من التائبين النادمين.

فالله سبحانه أجل من أن يرد ظمآن ورد إلى حياض رحمته ليرتشف من منهلها العذب، وهو أعلى من أن يخيب من قصده ليسترشده.

وأخيراً، فقد أعلن أن إلهه غاية المسؤول، وهو نهاية المأمول.

ولا يحسن بمن قصده أن يحول رحله إلى باب مخلوق هو في أشد الحاجة إلى رحمته، وكان المفروض بالدعاء أن يقف بالداعي إلى هذا الحد وينهي المسيرة الدعائية، ولكن ـ وكما قلنا ـ بأن الداعي كبقية الناس في كيفية عرض مطالبهم، وإلحاحهم في التنجيز بها، لذلك أخذ الدعاء بعين الاعتبار هذه النقطة الدقيقة ففتح للداعي ملفاً جديداً ليعيد به الكرة، ويبدأ جولة جديدة في التطلع إلى الله سبحانه لمناجاته وقد سلك الدعاء في هذه الجولة مسلكاً جديداً، وطريقة أخرى في الحوار حيث أظهر لنا الداعي، وهو يجمع ما عنده من الأمور التي شغل باله من أهوائه،

وذنوبه، ومعاكساته النفسية فتكون حملاً ثقيلاً يتركه بباب رحمة الله، ويوكل كل ذلك إلى لطف الله ورحمته... ومن ثم يعتبر نفسه، وقد قبل الله منه هذا اللجوء فلا يكتفي بهذا القدر... بل يلتفت إلى ربه ليعينه على أموره الدنيوية فديناً بلا عمل يقتصر فيها الإنسان على الأمور العبادية لا يريدها الله لعباده، بل دنيا يجمع فيها الإنسان بين العبادة، والعمل ليكون الحاصل من ذلك الإنسان الكامل ينفع نفسه ويقدم الخدمات لمجتمعه فبالتكافل تزهو الحياة، وترفرف السعادة على كل بيت، وفي كل مكان، وبذلك يقوى الفرد على القيام بالواجبين العبادي والاجتماعي.

ومن هذا العرض إلى فقرات المقطع من هذه الجولة الجديدة.

١- (إلهي هذهِ أزمةُ نفسي عقلتُها بِعِقال مَشيتِكَ).

والأزمة: جمع زمام. والزِمام هو المقود لكل حيوان كما سبق أن بينا ذلك.

والعقل: هو المنع، وهو هنا منع النفس من ارتكاب المخالفات، وما يعقل به هو الحبل الذي شد به ذراع البعير إلى كتفه ليمنع من السير، والحركة.

وقد صوّر لنا الدعاء بهذه الفقرة حالة الداعي، وهو يضع لكل رغبة من رغباته النفسية زماماً، وقد جمع هذه الأزمة، وجاء بها ليشدها إلى مشيئة الله لتنقاد بأمره وتنتهي بنهيه وبذلك يكون الداعي قد فوض أمره إلى الله سبحانه وتعالى في كل صغيرة وكبيرة، وتوكل عليه في كل ذلك.

وهذا أول بندٍ من بنود هذه الاتفاقية أو التعهد بتعبير أوضح الذي تعهد بموجبه الداعي أن لا يتخطى حدود الله في هذه الحياة.

٢- (وَهَذِهِ أعبَاءُ ذُنوبي دَرَأْتُها بِعَفوكَ ورحْمَتِكَ).

وهذا هو البند الثاني من بنود التعهد ويقول اللغويون:

إن الأعباء جمع عبء بالكسر، وهو الحمل، والثقل من أي شيء كان.

أما الدرء فهو الدفع.

ويفرقون بين الرأفة والرحمة بأن الرأفة أرق من الرحمة. وبعد أن سلم الداعي

قياده إلى ربه، وتعهد أمامه بأنه لا يسير في غير الطريق الذي يريده الله سبحانه لعباده جاء ليحط بساحته المقدسة، وفي فناء رحابه الطاهر ما يحمله من عبء الذنوب، والمخالفات، وليقول لربه:

(إلهي ظلل على ذنوبي غمام رحمتك، وأرسل على عيوبي سحاب رأفتك، إلهي هل يرجع العبد الآبق إلاّ إلى مولاه، أم هل يجيزه من سخطه أحد سواه؟)[1].

ولا يكتفي الدعاء بهذا المقدار من تفويض أمر الداعي إلى ربه، وحط أثقال الذنوب عن ظهره بساحات كرمه، بل وجه الداعي للانتقال إلى البند الثالث من بنود تعهده لربه فأضاف إلى الفقرتين قوله:

٣- (وَهَذِهِ أهوائِي المُضِلّةُ وكلتُها إلى جَنَابِ لُطفِكَ ورَأفتِكَ).

ويفسر العارفون الأهواء المضلة بأنها الوساوس الشيطانية التي تقف في طريق الإنسان فتصرفه عن مسيرته الخيرة، وتحرفه عن الطريق المستقيم.

لذلك نرى الدعاء يوجه الداعي بأن يلتمس من ربه أن يقبل منه بأن يكل أمر هذه الوساوس إلى لطفه ورأفته ليعينه على صرفها عنه.

وبعد هذا الابتهال والتضرع من الداعي يرى الداعي، وقد آمن لنفسه ما يريد من ربه بالنسبة إلى ما يعود لمخالفاته، وضبط رغباته النفسية ينتقل إلى ما يطمح إليه من أمر دنياه ليستعين بذلك على تأمين متطلبات هذه الحياة، ولكن شريطة أن يكون ذلك مقروناً بسلامة من دينه لئلا تكون النتيجة هي تضحية آخرته في سبيل تأمين دنياه.

وهذا ما حرص الدعاء على توجيه الداعي إلى الالتفات إليه في الفقرات التالية حيث يقول (عليه السلام):

٤- (فاجعَلِ اللّهُمَ صَباحي هَذا نازِلاً عَلَيَّ بضياءِ الهُدى).

الهدى: الرشاد، والبيان، والدلالة.

---

(١) الصحيفة السجادية: مناجاة التائبين.

وهو هنا هداية الإنسان إلى ما فيه خيره، وصلاحه إلى الصعيدين الدنيوي، والأخروي.

وقد شبّه الدعاء الهدى بالنور فجعله مصدراً للضوء الذي ينبثق منه، وقد طلب من ربه أن ينزل عليه في صباحه هذا النور ليهتدي به وليشق طريقه على ضوئه بعذ ظلمة الليل، وركوده، وسكونه.

وقد اكتفى الدعاء بهذه الفقرة بطلب الهداية، ولم يذكر فيها متعلق الهداية وأي طريق يريد سلوكه لتكون الهداية منيرة له ذلك الطريق. الطريق الدنيوي، أم الأخروي المتمثل بالدين، وبالالتزام بمبادئه، وأحكامه.

وقد أوكل توضيح ذلك إلى الفقرة الآتية حيث قال (عليه السلام):

٥ـ (وبالسّلامَةِ فِي الدّينِ وَالدُّنيا).

ولم يقتصر الطلب على السلامة في الدين فقط، أو على السلامة في الدنيا فقط، بل هذا هو ما يؤكد عليه الإمام (صلوات الله عليه) في أكثر من مورد من الجمع بين ما يعود إلى الدين، وما يعود إلى الدنيا. فدين بلا دنيا رهبنة لا يرتضيها الإسلام للمجتمع ككل لأن معنى ذلك هو ايقاف العجلة، وتعطيل النظام الاجتماعي، وترك مصادر العيش، وهكذا الحال في دنيا بلا دين، فإن ذلك معناه ايجاد مجتمع لا يتحلى بالصفات الخيرة، ولا يتخلق بالمثل العليا التي تريدها السماء لأبناء الأرض.

تلك المثل التي جاء بها الإسلام من الله إلى الناس عامة.

ومن أعرف من الله بعباده، وهو الذي خلقهم، وقدر مصالحهم، وجعل شريعتهم خاتمة الشرائع السماوية.

إن مجتمعاً همه الدنيا لا يتعدى أن يكون أفراده كالبهائم همهم العلف، وما يسد البطن من جوع، وما يأنسون به من لذات وقتية، ونزوات عابرة.

وإذاً فلابد من الارتباط بين الدين، والدنيا في هذه الحياة.

دين لتقويمها من الجهة الروحية.

ودنيا لتقويمها من الجهة المعاشية.

ومن هذا المنطلق، نرى التاريخ يحدثنا عن كثير من الأنبياء، وأهل البيت، والصلحاء أنهم كانوا يجمعون بين هاتين الجهتين مهما أمكن، وكلما ساعدتهم الظروف.

فهم لم يأنفوا من عمل ـ وفي الوقت نفسه ـ لم يتقاعسوا عن عبادة.

وقد ضرب أمير المؤمنين (عليه السلام) مثلاً لهذا النوع من الارتباط بين الدنيا، والآخرة، وعدم الاعتبار بها لو كان اتجاه الإنسان متمحضاً للدنيا.

جاء ذلك في المحاورة التي جرت بينه وبين أحد أصحابه وهو العلاء بن زياد الحارثي بالبصرة وقد زاره عائداً له في مرضه.

قال له بعد ما رأى سعة داره: «ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا؟ أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوج، وبلى إن شئت بلغت الآخرة. تقري بها الضعيف، وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها، فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة»[1].

سعة الدار شيء حسن، ولكن لو تمحض ذلك للأبهة والمفاخرة لكان ذلك مذموماً في نظر أمير المؤمنين (عليه السلام) ولو كان ذلك لإيواء الضيوف، وصلة الأرحام، وبقية الخدمات التي يقدمها الإنسان لأسرته، وإخوانه لكان ذلك طريقاً لحصول الثواب، وهذا بدوره يؤمن لصاحبها حصول الآخرة.

ونعود إلى المحاورة مرة أخرى لنستمع إلى العلاء، وهو يقول لأمير المؤمنين:

(يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد. قال: وماله؟. قال: لبس العباءة وتخلى عن الدنيا).

ومعنى ذلك أن هذا الرجل اتخذ الرهبنة شعاراً له، وزهد وتنسك وترك الأهل، والعيال يطلب بذلك وجه الله عز وجل، وهذا ما لا يرتضيه (صلوات الله عليه)

---

(١) نهج البلاغة: ٢، ١٨٧.

للأفراد، لذلك نراه يعقب على حديث العلاء يطلب إحضار عاصم أمامه. وعندما جيء به إليه، وحضر المجلس خاطبه قائلاً:

(يا عدي نفسه لقد استهام بك الخبيث ـ وهو الشيطان ـ أما رحمت أهلك وولدك؟. أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك؟) (١).

وإذاً فالإمام (عليه السلام) يريد من عاصم، وغير عاصم أن يسيروا في حياتهم على نحو معتدل يجمع بين الدين والدنيا، فللدين حق، وللعيال حق، وللأسرة حق، وللمجتمع حق، ولله فوق كل ذلك حق. ولابد للإنسان أن يجمع بين هذه الحقوق.

أما أنه يترهبن، ويزهد، ويترك هذه الحقوق، فهذا ما لا يحمد عليه، وهو مبغوض في نظر سيد الوصيين.

ويظهر لنا مدى انفعال أمير المؤمنين من عاصم من العنف الذي واجهه به، وهو يصرخ في وجهه قائلاً: (يا عدي نفسه)، وهي كلمة تصغير لعدو أي يا عدو نفسه ويظهر أن هذه المقابلة أوقعت عاصماً في حيرة، وذهول فهو يمثل بين يدي أمير المؤمنين مثال الزهد، والتقشف، وهو الذي حدّث عنه أحد أصحابه ضرارة بن ضمرة الأنصاري عندما سأله معاوية بن أبي سفيان أن يصف له أمير المؤمنين فقال:

(أشهد لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وهو قائم في محرابه قابض على لحيته تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا يا دنيا إليك عني أبي تعرضت أم اليّ تشوقت لا حان حينك هيهات غري غيري لا حاجة لي فيك قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير.

آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد) (٢).

وتأخذ الحيرة على عاصم مسالك تفكيره فهو ينظر إلى إمامه (عليه السلام) وهذه

---

(١) لاحظ لتمام المحاورة المصدر المتقدم.

(٢) نهج البلاغة: ٤، ١٦، دار المعرفة ـ بيروت.

أحواله فكيف يوفق بين هذا الزهد، والتقشف الذي هو عليه، وبين إنكاره عليه في تقشفه وزهده، وهو لم يأت بمنكر يؤآخذ عليه، بل كل ما صنعه هو انقطاعه عن هذه الدنيا يقلد في مسيرته الحياتية مسيرة أمير المؤمنين (عليه السلام)؟.

وتمر على عاصم لحظات رهيبة فهو يريد أن يعترض على إمامه بما يجول في نفسه من سؤال إلاّ أن هيبة الإمام (عليه السلام) تمنعه، ولكنه لملم أطرافه وتوجه إليه قائلاً:

(يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك؟).

أي يا أمير المؤمنين: تقول لي هذا، وتزجرني لأترك الزهد في الدنيا وأنقطع إلى الآخرة وأنت مثال الزهد، والورع تلبس الخشن، وتأكل الجشب، وهو اليسير.

أما أنه يلبس الخشن: فقد حدثت عنه مصادر التاريخ انه كان يلبس المدرعة من الصوف، ويرقعها حتى أنه صرّح بأنه ليستحي من راقعها، وأنه كان يذهب إلى السوق ليشتري الثوبين أحدهما بثلاثة دراهم والآخر بدرهمين، ويعطي الأول لغلامه قنبر، ويأخذ الثاني هو ليلبسه، وقد شهد الكل له بأنه كان بسيطاً في ملبسه، ولربما كان البرد يؤثر فيه، وهو لا يحتمي عنه بكثرة اللباس.

وأما أنه يأكل اليسير: فقد نقل عنه الشيء الكثير في زهده بمأكله ومن ذلك ما نقله عمرو بن حريث انه ترصد يوماً غداء أمير المؤمنين فرأى خادمته فضة جاءته بجراب مختوم فأخرج منه خبزاً متغيراً خشناً يقول عمرو، وهو يخاطب فضة بعدما رأى ما قدمته إلى أمير المؤمنين من طعام:

(يا فضة لو نخلت هذا الدقيق، وطيبته قالت: كنت أفعل فنهاني وكنت أضع في جرابه طعاماً طيباً فختم جرابه).

ويكمل عمرو نقل بقية ما شاهده فقال:

(ثم إن أمير المؤمنين فته في قصعة، وصب عليه الماء، ثم ذر عليه الملح، وحسر عن ذراعه) [1].

---

(١) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٤٠، ٣٣٥.

وفي مورد آخر، اعترض عليه بعض أصحابه عندما رأى منه مثل هذا الزهد في طعامه فأجابه قائلاً:

علل النفس بالقنوع وإلاّ طلبت منك فوق ما يكفيها [١]

ونعود إلى عاصم لنراه، وقد جثم أمام مولاه ينتظر الجواب عما تقدم من استفهام مزيجٍ باعتراض ضمني.

ويأتيه الجواب من الإمام قائلاً: (ويحك إني لست كأنت. إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره) [٢].

ويتبيغ: أي يتهيج بالفقير آلام فقره عندما ينظر إلى إمامه، وهو يتمتع بمباهج الدنيا، وهو محروم من ذلك فيتأثر من ذلك.

وتنتهي المحاورة ويفهم عاصم ما يقصده أمير المؤمنين فللراعي والأمير، والقدوة وظيفة، ومستلزمات تفرضها عليه طبيعة قيامه بأعباء المسؤولية.

وللرعية وظيفة، ومستلزمات أيضاً لابد من مراعاتها وتفرضها عليهم طبيعة المجتمع والمحافظة على أصوله، وقواعده.

على الإمام، وهو المسؤول عن أفراد المجتمع أن ينزل إلى المستوى المعيشي لأضعف الطبقات ليواسيهم فيما تحل بهم من النكبات، وبذلك يخفف عنهم ما يعانون من مصائب معيشية، وما تخلفه تلك الظروف القاسية من ويلات.

يضاف إلى ذلك تحليه بالزهد لإرغام النفس على مواجهة الأزمات والانقطاع إلى الله سبحانه ـ في الوقت نفسه ـ وخصوصاً إذا كان الرائد مثل أمير المؤمنين أما أفراد المجتمع فليس المطلوب منهم أن يتركوا الدنيا، وينزلوا إلى معترك الحياة بلباس المسوح، والرهبنة، ويعتكفوا في الصوامع ينتظرون اليوم الذي ينتقلون فيه من

---

(١) لاحظ لهذه المحاورة نهج البلاغة: ٢، ١٨٨، دار المعرفة ـ بيروت.

(٢) بيغ أي ثار وهاج.

دنياهم هـذه إلى الآخـرة. بـل عليـهم أن يجمـعوا بين الـدين، والـدنيا كـما خـطـبه أمير المؤمنين للداعي في فقرتنا الدعائية هذه عندما طلب من ربه قائلاً:

(وبالسلامة في الدين والدنيا).

بعدما طلب منه سبحانه أن يجعل صباحه نازلاً عليه بضياء الهدى.

٦ـ (ومسائي جُنةً مِنْ كيدِ العِدى).

٧ـ (ووقايةً من مُرديات الهَوى).

والمساء: يطلق ويراد به ما يقابل الصباح، والمراد به هنا الليـل، وإن اختلـف في مفهومه اللغوي فقيل: هو من بعد الظهر إلى الغروب، وقيل: إنه إلى منتصف الليل.

وقيل: هو الشفق الذي يظهر في المغرب بعد الغروب.

أما الجنة: فهي الترس الذي يستتر به السلاح.

والكيد: هو المكر والخديعة والاحتيال والمراد به هنا ما يشمل الشر.

والعدى: بالكسر جمع عدو.

والوقاية: الصيانة وما يتقي به من الأشياء الخارجية.

والمرديات: جمع مردية، وهو المهلك، والمراد بها الأمور التـي توقـع في المهالـك التي تنشأ من أهواء النفس الأمارة بالسوء.

وتأتي هذه الفقرة من الدعاء مكمّلةً لطلب الداعي من ربه ما يعـود إلى صـباحه في توفيق، وسلامة الدين، والدنيا فلماذا لا يطلب من الله، وهـو الكـريم أن يتفـضل عليه بما يعود بالنفع عليه في مسائه ليؤمن لنفسه متطلباتها في اليوم بأكمله من النهـار والليل، لذلك شفع طلبه السابق بقوله:

(ومسائي جنةً من كيد العدى).

(ووقايةً من مرديات الهوى).

وطبيعة الليل، والمعبر عنه هنا بالمساء تقتضي وجود هذين الأمرين:

١ـ العدو الإنساني.

٢ـ العدو الشيطاني.

أما الأول: فيراد به أشرار الليل من اللصوص، والأعداء اللذين يتربصون بالناس الدوائر فإن هؤلاء يتخذون من الليل جسراً للوصول إلى تحقيق رغباتهم العدوانية من نهب، وقتل، وفجور، وما شاكل، ففي الليل تهدأ الحركة ويعود الناس إلى منازلهم وتخلو الطرقات من المارة، ويكون كل ذلك محفزاً لأن يجد الأشرار أرضية لهم للانقضاض على فريستهم من مساكين الناس ليسرقوا أموالهم، وليطبقوا ما يحلو لهم من الجرائم تحت ستار الظلام، وهدوء الليل، ولذلك نرى الدعاء يهيب بالداعي أن يتوجه إلى ربه ليحفظه من طوارق الليل من البشر، وهم الذين يعبر عنهم بقوله: (من كيد العدى) أو كيد الأعداء كما في بعض نسخ الدعاء.

وأما الثاني: العدو الشيطاني فيتمثل بالمهلكات التي يحرص الشيطان على إيقاع العبد بها وجره إلى مستنقعاتها الضحلة من الملاذ الدنيوية، والأهواء النفسية.

وطلب الداعي أن يقيه الله هذه المرديات المهلكة لدين الإنسان، ولضميره الإنساني في الليل دون النهار إنما لكثرة ما يصادف حصولها في الليل.

ذلك لأن طبيعة النهار تقتضي شد الفرد إلى عجلة العمل، والسعي وراء ما يسد به حاجاته الحياتية، وهذا بدوره يستدعي منه طاقة بدنية وفكرية فلا يتفرغ مع ذلك للانهماك بما يلهيه من ملاذَ وقتية.

أما الليل فإن طبيعته تقتضي تهيئة الأجواء الملائمة للتفرغ لمثل هذه الملاذ الوقتية وإحياء الليالي الحمراء، لذلك نرى الدعاء يوجه الداعي أن يطلب من ربه أن يقيه في ليلته من هذه المهلكات التي تجر الإنسان إلى هذا المستوى الواطئ.

وبهذه الفقرات نرى الداعي يختم طلباته سواءً الدنيوية منها أم الأخروية وقبل أن ينهي مسيرته الدعائية من صباحه نرى الدعاء يدفع الداعي مرة أخرى وليست الأخيرة أن يطرق باب رحمة ربه كمن لا يود أن يترك ذلك الباب ولا يمل من طرقه فيحاول أن يستدر عطف ربه الكريم ليذكره بعطفه وكرمه ويهيب بجلاله بأن ما

طلبه لا يعتبر شيئاً إذا قيس وقورن بقدرته المطلقة، وكرمه العميم، وبسلطانه الذي لا سلطان فوقه.

يبتهل الداعي ولسان حاله يردد:

أي رب إنك سجلت على نفسك أموراً، ووصفت نفسك بها، وقد جاءت آيات كتابك تصرح بها، وإنك عندها لا خلف لقولك.

ونحن يا رب نقف عندها لا نبرحها حتى توفي لنا ما وعدتنا بها فالعفو لك، والرحمة منك، والمغفرة صفتك، وإجابة الدعاء من خصوصيات كرمك.

وأنت مالك ما في السماوات والأرض، وما بينهن، وما فيهن.

إلهي: لقد ذلت لقدرتك الصعاب وتسببت بلطفك الأسباب وجرى بقدرتك القضاء، ومضت على إرادتك الأشياء، فهي بمشيئتك دون قولك مؤتمرة، وبإرادتك دون نهيك منزجرة.

إلهي: وأنت المدعو في المهمات، وأنت المفزع في الملمات. لا يندفع منها إلاّ ما دفعت، ولا ينكشف منها إلاّ ما كشفت.

إلهي: أتردني عن بابك خائباً، وقد أتيتك تائباً نادماً معتذراً؟.

أم تردني لعجزٍ فيك يمنعك عن إجابة دعائي؟.

كلا، وحاشا.

ويعود الداعي إلى الدعاء ليثبت لربه أنه ليس بعاجز فالعجز من صفة المخلوقين لا من صفات جبار السماوات، والأرض ويقول بكل صراحة:

٨ ـ (إنّكَ قادرٌ على ما تَشاءُ).

وقدرتك مستمدة عن عظمتك، وعظمتك من ذاتك، ووحدانيتك، وألوهيتك.

لأن العاجز لا يتقوم إلاّ بالكامل، وهذه صفة لا تليق بك لأنك على كل شيء قدير إذا قلت لشيء كن فيكون.

ويعزز الدعاء الداعي دعواه بنماذج ثلاثة تثبت قدرة الله سبحانه المطلقة في هذا الكون.

الأول: ويعود إلى عالم الاجتماع مما يشاهده الفرد في حياته.

الثاني: ويعود إلى عالم الجو، وتقلباته.

الثالث: ويعود إلى عالم الموت، والحياة.

ويستمد الدعاء هذه النماذج الثلاثة من القرآن الكريم.

النموذج الأول لقدرة الله سبحانه:

ما يعقب الدعاء به على الفقرة السابقة من قوله (عليه السلام):

«انك قادرٌ على ما تشاء». بقوله: «تؤتي الملك من تشاء. وتنزع الملك ممن تشاء. وتعز من تشاء وتذل من تشاء. بيدك الخير إنك على كل شيء قدير».

فقرات خمسة من الدعاء مترابطة فيما بينها سبقتها آية كريمة، هي قوله تعالى:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ (١).

مالك الملك: كلمة تحمل بين طياتها كل معاني الرهبة، والعظمة والقدرة.

وهي تعبر عن الصورة الواقعية لمعنى الوحدانية، والتصرف المطلق بدون شريك.

وقد ذكر القرآن الكريم آياتٍ عديدة تعبر عن ملكية الله سبحانه ومالكيته لكل شيء في هذا الوجود.

ولم يقيد الملك في كل هذه الآيات بنوع خاص من الملك بل شمل باطلاقه كل ملك، ولكل شيء كما جاء في ختام بعض تلك الآيات من أنه سبحانه على كل شيء قدير وأن السماوات والأرض مطويات بيمينه، ويمضي الدعاء يدلل على أنه تعالى مالك الملك بقوله:

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ٢٦.

٩ـ (تُؤتي المُلكَ مَن تَشاءُ).

١٠ـ (وتنزِعُ المُلكَ مِمّن تشاءُ).

وهذا التاريخ بين أيدينا يحدثنا عن الملك وتقلباته ويسجل شريط الحياة الكثير من الصور لشروق ملك، وأفوله، وغروبه.

وبعد كل هذا تبقى الكلمة الخالدة ترددها أروقة الحياة على مرّ العصور تخاطب كل إنسان لتقول له: (لو دامت لغيرك لما وصلت إليك).

ويصور لنا المرحوم الأستاذ الشيخ علي الشرقي، وقد وقف على مقبرة النجف الأشرف، وقد هاله ما رآه من القبور الرابضة ،وهي تحتضن الكبير والصغير والشريف والوضيع والملك والرعية، يقول في قصيدته [1]:

سل الحجر الصوان والأثر العادي ... خليلي كم جيلٍ قد احتضن الوادي
فيا صيحة الأجيال فيه إذا وعت ... ملايين آباء ملايين أولادِ
وكم كومة للترب من حول كومة ... معلمة هذا الزعيم وذا الهادي
عبرت على الوادي فسفت عجاجة ... فكم من بلادٍ في الغبار وكم نادِ
وأبقيت لم أنفض عن الرأس تربه ... لأرفع تكريماً على الرأس أجدادي

ومسألة إعطاء الملك، ونزعه ممن يشاء، وعمن يشاء ليست قضية اعتباطية، وكيفية شهوانية، بل هي مسألة تتبع في واقعها إلى المصالح، والمفاسد العامة الراجعة إلى البشر، وإلى المجتمع الذي يعيشون فيه.

وإلاّ فليس كل من يؤتيه الله الملك محبوب له سبحانه ـ وفي الوقت نفسه ـ ليس كل من ينزع عنه الملك مبغوضاً له تعالى.. بل بالإمكان تقسيم من يؤتى الملك إلى قسمين:

١ـ فمن يؤتيه الله الملك قد يكون مبغوضاً له سبحانه، ويؤتيه الملك.

---

(١) ديوان الشيخ علي الشرقي: ١٥٨.

٢ـ وقد يكون محبوباً له، ويمنحه الملك، ويسلطه على الناس.

أما الأول: فهو من مغريات ما هو معروف من القول بأن الظالم سيف انتقم بـه وأنتقم منه، ولربما لا يتمكن غيره من تحقيق ما يريده الله من الانتقام ممن خرجوا عن الطريق، وأوغلوا في الفساد، فيكون ذلـك أداة لتـأديبهم، وضـبطهم، ولا ينـافي أنـه سينال جزاء ظلمه، وتعديه على غير هؤلاء المنظورين.

وأما الثاني: فهو المصداق الحقيقي لقوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [1].

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ والتمكين المقصود بكل صوره، ومنه إيتاء الملك لمن يختاره الله لذلك، ويسلطه على الناس لإدارة أمورهم، وتسيير شـؤونهم بالعـدل، والإصلاح.

﴿ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ، وعلى الصعيدين العبادي المتمثل بالـصلاة، وما شابهها من العباديات، والمالي، والمتمثل بإيتاء الزكاة، وما يماثلها من الأمور المالية يعبدون الله سواءً بالقيام بما يفرضه الواجب العبادي أو بالخضوع لمـا يريـده الله مـن صور التكامل الاجتماعي المالي.

﴿ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾ [2]. وهؤلاء الذين يقومون بهذا الواجب المزدوج، ويطبقون القوانين الاصلاحية هم الـذين يـؤتيهم الله الملـك، والـصلاحية للقيام بتطبيق مثل هذه القوانين على اختلافٍ في التمكين، والصلاحية، وسعة الملك، وضيقه، ومدته طولاً، وقصراً.

---

(١) سورة الحج: الآية، ٤١.

(٢) سورة الحج: الآية، ٤١.

وقد وعد الله هؤلاء الذين يتجهون إلى الله ويجندون أنفسهم له بالنصر حيث افتتح الله هذه الآية بقوله سبحانه:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [1]. وتختم الآية الكريمة هذا التمكين وهذا النصر بقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[2].

أي وليس كل من يؤتيه هذه الصلاحية، وهذا التمكين، من الملك، والقوة أن يبقيه على وتيرة واحدة بل الأمر إليه أولاً وآخراً، وأفعاله تابعة، ونابعة من المصالح التي تعود على الفرد، بالنفع، ودفع الضرر، وكل ذلك يتبع المدة التي تقتضيها تلك المصلحة. هذا من جهة إيتاء الملك.

وأما ما تدل عليه الآية من قوله تعالى: ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾[3].

فالظاهر أن هذا مختص بمن هو مبغوض له سبحانه، وذلك لأن النزع في اللغة القلع والعزل يقال: نزعه من مكانه إذا قلعه ونزع الأمير العامل عن عمله إذا عزله ففي كلمة النزع صرامة، وجذب وقلع، وهذا لا يناسب مع من يحبه الله، ويكرمه أن يعبر عنه بنزع الملك عنه، وفي الحقيقة هو من مصاديق الآية الكريمة:

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾[4].

أو الآية الأخرى في قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم

---

(١) سورة الحج: الآية، ٤٠.

(٢) سورة الحج: الآية، ٤١.

(٣) سورة آل عمران: الآية، ٢٦.

(٤) سور البقرة: الآية، ٢٠٥.

بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ (١).

هؤلاء: وأمثالهم الذين ينزع الله عنهم الملك ويريح البشر منهم.

هؤلاء: وأمثالهم الذين يأخذهم الغرور، فينسون أنفسهم حينما يمكّنهم الله في الأرض، ويتصورون أن لهم الحول، ومنهم القوة، فيعيثون في الأرض فساداً يهلكون الحرث، والنسل، ويتصرفون تصرف الطائش النزق بعدما أنعم الله عليهم، وجعلهم ملوكاً مستخلفين، فأرسل عليهم السماء مدراراً، وجعل الأنهار تجري من تحتهم، وكل ذلك كناية عن السعة في الملك، والرفاهية في العيش فبدلاً من أن يسيروا بالعدل، والإحسان بدلوا نعمة الله كفراً فعاثوا في الأرض فساداً فأهلكهم الله بذنوبهم، ونزع ما في أيديهم من ملك هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فقد أخبر الله عنهم قائلاً: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ (٢).

١١- (وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ)

١٢- (وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ)

العزيز: هو الشريف النادر المنيع الذي لا ينال والمحبوب الذي لا يغالب ولا مثل له. وأعز فلان فلاناً جعله ذا عزةٍ، ومنعة، وندرة.

أما الذليل: فهو ضد العزيز وأذله أهانه، وجعله سهل المنال، ومنه قوله سبحانه: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ (٣).

وبهذه الأوصاف للعزيز، والذليل فإن من يعزه الله لابد أن يكون محبوباً له

---

(١) سورة الأنعام: الآية، ٦.

(٢) سورة إبراهيم: الآية، ٢٩.

(٣) سورة البقرة: الآية، ٦١.

فيمنحه هذا العزة، وهذه المحبوبية لدى الناس إذ لا معنى لأن يعز الله من كان ذليلاً في نفسه حقيراً بين الناس، وقد وصف الله بهذه الصفة نفسه في أكثر من آية كريمة في كتابه الكريم.

وأما من يذله الله، فهو ليس بمحبوب له لما بيناه في جانب العزة، ولأن الذلة صفة مهانة، ومحقرة، وحاشا له أن يذل عبداً أحبه، وأطاعه.

نعم، الذلة بمعنى التصاغر لله، والانكسار له كما جاء ذلك في كثير من الأدعية من قول الداعي: «يا سيدي فكيف لي، وأنا عبدك الضعيف الذليل الحقير المسكين المستكين»، فليس ذلك من الذل الذي هو إهانة للداعي بل هو عز له، وشرف، وهو من قبيل ما جاء في بعض فقرات المناجاة لأمير المؤمنين (عليه السلام) من قوله: (إلهي كفاني فخراً أن أكون لك عبداً).

فإن العبودية ذل إلاّ أنها ذل حيث تكون من إنسان لإنسان آخر أما من الإنسان لربه فهي فخر ورفعة.

١٣- (بِيَدِكَ الخَيْرُ).

والخير: في اللغة، وإن كان وجدان الشيء على كمالاته اللائقة به، وربما قيل: هو حصول الشيء لما من شأنه أن يكون حاصلاً، ويليق به. إلاّ أن للخير صورة منطبعة في الذهن تعبر عنه، فإن كل نعمة هي خير، وكل مساعدة هي خير، وكل ما فيه فائدة فهو خير، وكل ذلك بيده سبحانه يهبه لمن يشاء، وينعم به على من يريد. ومن حصر الآية الخير بيد الله معناه أن هذه النعم مصدرها هو، وعطاؤها منه، وحينئذٍ فإن أعطى الخير، فعن حكمة، ومصلحة، وإن منعه عن أحد، فعن مصلحة أيضاً لا من قبيل تفضيل لأحد على آخر، بل من باب رعاية المصالح، وتدبير الأمور.

١٤- (إنّكَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ).

وهذه صفة لابد منها لخالق الخلق، ومدبرهم إذ لو لم تكن له هذه الصلاحية

فمعناه ثبوت العجز له، ولو في بعض الأفعال، وحتى بهذا المقدار لا تصح نسبته إليه لأن الكمال له وحده لا شريك له.

وإذا كان الخير بيده، وهو على كل شيء قدير، ويؤتي الملك لمن يشاء، وينزعه ممن يشاء فهل تعسر عليه طلبات الداعي مهما كان نوعها؟.

وقبل أن نختم الكلام عن قدرة الله في هذا النموذج من الحياة نقول:

لقد نقلت لنا مصادر الحديث خصوصيته لقراءة هذه الفقرات من الآية الكريمة فقد جاء عن معاذ بن جبل قوله: (شكوت إلى النبي (ﷺ) ديناً كان عليّ فقال: يا معاذ أتحب أن يقضى عنك دينك؟

قلت: نعم. قال: قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير. رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطي منهما ما تشاء، وتمنع منهما ما تشاء أقض عني ديني فلو كان عليك ملء الأرض ذهباً أدى عنك) [1].

١٥ـ (تُولِجُ اللّيْلَ في النّهارِ).

١٦ـ (وتُولِجُ النّهارَ في اللّيلِ).

الولوج: هو الدخول لشيء في شيء بحيث يستره.

الليل والنهار: يحدث النهار في كل بقعة من بقاع الأرض عند ظهورها أمام الشمس كما يحدث الليل عند تواري هذه البقعة عن الشمس واختفائها في الظلام.

ولما كانت الأرض كروية الشكل فإن نصفها المعرض للشمس يستضيء بالنور في حين أن النصف المقابل يكون مظلماً أي أن أحد النصفين يكون في نهار والنصف الآخر يكون في ليل.

وهكذا يتعاقب الليل، والنهار في كل بقعة من بقاع الأرض بحسب احتجابها

---

(١) جلال الدين السيوطي: الدر المنثور/ في تفسير الآية، ٢٦ من سورة آل عمران.

عن الشمس، أو ظهورها، لذلك كان لكل بقعة من بقاع الأرض من الشرق إلى الغرب خط زوال خاص بحيث تكون لحظة انتصاف النهار فيها بالزوال عن غيرها من الأماكن الشرقية منها، والغربية أيضاً.

ومن ذلك نعرف أنه في كل لحظة ـ ليلاً، أو نهاراً ـ تكون الأوقات مختلفة في بقاع الأرض فبينما تخرج بقعة من الظلام، وتتعرض أمام الشمس ويكون فيها الصباح إذ بالأخرى بعيدة عن الأولى بربع دائرة اتجاه الشرق يكون فيها الظهر، في حين أن ثالثة تبعد عن الأولى بنصف دائرة شرقاً تأخذ في الاحتجاب في الظلام، ويكون فيها المساء، ورابعة تبعد عن الثالثة بربع دائرة تنغمس في الظلام، ويكون الليل فيها قد انتصف، ومن هذا العرض يتضح لنا معنى إيلاج الليل في النهار وبالعكس لأن المراد بالإيلاج هو التعاقب المذكور بهذه الدقة وهذا الانتظام.

وقد قال الشيخ الطبرسي في مجمع البيان إن في معنى الإيلاج قولين:

الأول: أنه ينقص من الليل فيجعل ذلك النقصان زيادة في النهار، وينقص من النهار فيجعل ذلك زيادة في الليل على قدر طول النهار وقصره.

الثاني: أنه يأتي بأحدهما بدلاً عن الآخر أو بدلاً في مكانه.

وليكن هذا أو ذاك فالمعنى واضح لنا فمن منا لم يشاهد في كل يوم ظلاماً دامساً يلف البسيطة بردائه الأسود فتظهر النجوم المتلألئة تزين صفحة السماء، ويمر قمر منير يأخذ مساره من الشرق إلى الغرب يتهادى بأنواره البيضاء فيخفف من حدة ظلام الليل، ثم وبعد ذلك ينحسر الظلام ليبدأ النور يسبق شروق الشمس، ويستقبل الكون بعد مدة من الوقت الشمس الساطعة لتسير كل شيء في هذا الوجود.

وهكذا تعبر الشمس كل يوم من مشرقها إلى مغربها، ومن هذه المسيرة يطلع نهار ويودع ليل.

وتبعاً لهذه الحركة، ولحدوث الفصل يختزل الليل من النهار، أو النهار من الليل، ومع هذه الحركة الرتيبة يقف الإنسان وكله إجلال وخشوع والحيرة تأخذ منه مأخذها.

فماذا يرى من هذه المسيرة المنتظمة ولا يدري متى بدأت ومتى تنتهي؟.

ولكنه ـ في الوقت نفسه ـ لم يتردد في أنها حركة بدأت بعمر الزمن، ولم يطرأ عليها أي خلل أو نقص، ولم يلحقها أي نقص.

وأخيراً، فلابد لمن وقف هذه الوقفة من أن يطأطئ برأسه إلى الأرض دليلاً على خضوعه لمن كان السبب في مسيرة هذا الكون بليله، ونهاره.

وبعد كل هذا يودع الداعي هذه الفقرة من الدعاء لينتقل إلى نموذج ثالثٍ يبين الدعاء فيه لقطة من صور عظمة الله وقدرته الجبارة حيث يقول (صلوات الله عليه):

١٧ـ (تُخرِجُ الحيَّ مِنَ الميِّتِ).

١٨ـ (وتُخرجُ الميِّتَ من الحيِّ).

وقد ضمن الإمام الدعاء بهذه الفقرات تبعاً لما جاء في القرآن الكريم من التعبير بخروج الحي من الميت وبالعكس حيث تكرر ذلك في آيات أربع.

ففي سورة آل عمران قال سبحانه:

﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١).

وفي سورة الأنعام قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (٢). أما في سورة يونس فقد قال عز وجل:

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ (٣). وجاء في سورة الروم قوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (٤).

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ٢٧.

(٢) سورة الأنعام: الآية، ٩٥.

(٣) سورة يونس: الآية، ٣١.

(٤) سورة الروم: الآية، ١٩.

وعندما يصل المفسرون إلى هذه الآيات نراهم ينقسمون إلى قسمين: فالبعض يفسر الموت والحياة في هذه الآيات الكريمة بالموت والحياة المعنويين، أما البعض الآخر فيفسرهما بالموت والحياة الحسيين.

الموت والحياة المعنويان:

ويمثل له بخروج العالم من الجاهل والمؤمن من الكافر، وهو المراد من خروج الحي من الميت، وأما إذا انعكس الأمر حيث يخرج الميت من الحي فهو كما لو خرج الجاهل من العالم أو الكافر من المؤمن.

ومع المثالين:

العلم والجهل: يقول من يقرّب وجهة نظره عندما يرى أن العلم حياة والجهل موت معنويان أن رقي الأمم وازدهار المجتمع يتوقف على العلم فالعلم هو الذي يرقى بالأمم إلى الأوج، وبه تتقوم الحضارة وتزدهر الحياة، وتدب الحركة، ويموت الخمول، ويعيش الإنسان سعيداً.

والأمة التي تحتضن العلماء من جميع الأصناف هي الأمة التي تكوّن نفسها وتفرض وجودها على بقية الأمم المتخلفة في مجال إنعاش الحياة ورقيها، ولذلك نرى الشاعر يقول:

(الناس موتى، وأهل العلم أحياء)

أما الجهل فعلى العكس من ذلك إذا حل في قوم جعلهم متخلفين يتفشى فيهم المرض، وتقتلهم البطالة، وتسير بهم عجلة الحياة ببطء ويكتب لهؤلاء أن يعيشوا في بؤس، وشقاء لا يرون من الحياة إلاّ وجهها الكئيب المظلم.

ويقسم أمير المؤمنين الناس إلى ثلاثة أقسام: يحدث بذلك صاحبه كميل بن زياد فيقول: (الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق).

إلى قوله (عليه السلام): «يا كميل هلك خزان الأموال، وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة»(١).

وإذاً، فالعلم حياة، والجهل موت، والعالم حي، والجاهل ميت، وسبحان من يخرج العالم من الجاهل، وبالعكس.

المؤمن والكافر:

وهكذا الحال لو قارنا بين الإيمان، والكفر، ومن ثم بين المؤمن، والكافر.

فالكفر في الحقيقة انقطاع عن الحياة التي يريدها الله لعباده تلك الحياة التي يريد الشارع المقدس أن يعيشها الإنسان المثالي عبر قوانينه التي سنها للبشر ليؤمن لهم سعادتهم، وخيرهم في الدنيا والآخرة.

وعندما يحل الكفر بقلبٍ يجلله بظلمة تمنعه عن التمتع بتلك الومضات النورية التي تفتح له الآفاق ليتصل بالله فتنكشف له حقائق الحياة وما فيها من أحداث.

فالكفر من هذا المنظار هو الموت للكافر لأنه بعد عن الله، ورحمته، وقدسيته، وانقطاع لتلك الصلة الودية بين العبد، وربه، وبانقطاع هذه الصلة يبقى الكافر يتصل بالمجتمع، وبالأفراد من خلال المفاهيم المادية، وعبر ما يتصل بهذه الحياة من أطارها المادي، وما تفرضه عليه المادة من تعاليم لا تمت إلى الله بصلة لذلك فهو ميت، وهذه النفس هي النفس التي تستحق أن يكتب لها الموت، وإن كانت تتمتع بنعمة الوجود، والعيش على هذه الأرض، هذا هو الكفر، وهذا هو الكافر.

وأما الإيمان: فهو نور ينقدح في قلب المؤمن ينير له الطريق ليرى على ضوئه قدرة ربه في مخلوقاته وقوانينه ومعطياته.

لذلك فإن المؤمن يتصل بالمجتمع عبر صلته بالله سبحانه، وعبر تعاليمه الإنسانية فهو حي لأنه يعيش المجتمع من خلال رحاب الله، وقدسه. هذه هي النفس التي تستحق أن توصف بالحياة، ولذلك قال سبحانه:

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾.

---

(١) نهج البلاغة: ٤، ٣٥ ـ ٣٦، منشورات المكتبة الأهلية ـ بيروت.

ولتلك النفس الكافرة قال سبحانه: ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾.

هذا ما يمثل به القائلون بأن المراد من الآية الموت والحياة المعنويان.

وأما الموت والحياة الحسيان:

فإن القائل به يمثل له، (بالإنسان والحيوان والنبات).

أما في الإنسان: فيمثلون له بالنطفة، وهي المني فإنها مصداق للآية الكريمة بشقيها ببيان أن هذه النطفة الميتة في مبدئها حيث تكوّن مبدأ لإنسان في هذه الحياة فيصدق قوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾، ومن أنها هي تخرج من إنسان حي فيصدق قوله سبحانه: ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾.

وأما في مطلق الحيوان: فيمثلون له بخروج الفرخ من البيضة فهو خروج للحي من الميت وللميت من الحي بخروج نفس البيضة من الدجاجة.

وهكذا الحال في بقية الحيوانات التي تبيض والتي تفرخ.

وأما في النبات: فيمثلون لقوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ بخروج النخلة من الميت ولقوله سبحانه: ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ بخروج النواة من النخلة. وهكذا.

وعلى كل حال فالقائلون بهذا المبدأ يقولون إن القرآن الكريم في هذه الآية استعمل لفظ الحياة فيما يقابل الموت في أمور حسية تدل على عظمته وقدرته في هذا الكون.

هذا ما يراه أغلب المفسرين للآيات الكريمة. **إلاّ أنه يرد عليهم:**

أولاً: إنه من البعيد أن يكون المقصود من الموت والحياة في هذه الآيات الموت والحياة المعنويان فيراد بالحي المؤمن أو العالم، وبالميت الكافر أو الجاهل، وذلك، لأن سياق الآيات الكريمة إنما يدور حول بيان عظمة الله وقدرته في هذا الكون سمائه وأرضه أما ما يتعلق بالسماء. فقد ذكرت بعض غرائبها الآيات السابقة فمن قوله سبحانه:

﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾[1]، وما ينشأ منهما وفيهما من آيات كونية.

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ٢٧.

وأما ما يتعلق بالأرض فهو عملية الموت والحياة بما تشتمل عليه هذه العملية من أهمية كبرى في المخلوقات أعم من الحيوان والإنسان والنبات كما سنذكر شيئاً من ذلك إن شاء الله.

وأما الموت والحياة المعنويان من قبيل إخراج الجاهل من العالم والكافر من المؤمن وبالعكس فليس في ذلك من العظمة ما يوازي عملية الموت والحياة الحقيقيتين عند الإنسان والحيوان وغيرهما من الأجسام النامية.

ثانياً: إن الكفر والجهل والعلم والإيمان أمور تتبع شقاوة الإنسان، وتوفيقه.

فالمولود عندما يتعدى دور الطفولة ويصل إلى السن الذي يكون قابلاً للتكليف الشرعي، ويكون مستكملاً لشرائط البلوغ فحينئذٍ يكون أمره راجعاً له إن شاء أن يسلك طريق الخير نجا، وإن شاء أن يسلك طريق الشر هلك وغوى.

يسير في هذه الحياة على ضوء ما يقرره ويختاره فإن تخبط بالعمر بقي جاهلاً وربما كافراً وبالعكس ليكون عالماً ومؤمناً، وهذا كله منه وليس لله في ذلك شيء.

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾(١).

وثالثاً: إن القرآن الكريم قد استعمل لفظ الحياة والموت في كثيرٍ من آياته الكريمة، ولم يظهر من تلك الآيات ما يراد به المؤمن والكافر أو العالم والجاهل، بل كانت الآيات تشير إلى الموت والحياة الحسيين فيما يعود إلى حياة الإنسان ومماته أو حياة الأرض وموتها المقصود منها حياة الزرع، وموته.

وأخيراً، لنهرع إلى العلم، الحديث وما يقوله علماء الفن في هذا الخصوص وعلى ضوء ما يقررونه نقول:

---

(١) سورة الإسراء: الآيات ١٣ ـ ١٥.

الظاهر - والله العالم بها في كتابه المجيد - إن القرآن استعمل هاتين الكلمتين في الموت والحياة الحسيين، ولما يعود إلى الحيوان بكافة فصائله والنبات وبقية الأجسام النامية ولإيضاح ذلك سوف نستعمل مثالين:

الأول: منهما بسيط يشمل واحداً من مصاديق انطباق الآية هذه الكريمة.

والثاني: أكثر شمولية وسعة في مقام البيان والإيضاح.

الأول: ونمثل له باللبن الذي يتغذى به الرضيع حيواناً كان الرضيع أم إنساناً فهو سائل ليس فيه أجزاء حيّة، ولكنه يخرج من جسم حي سواءً من المرأة أو من أنثى كل حيوان وعندما يتعاطى الرضيع ذلك اللبن يتحول في داخل جسمه إلى مواد حية (كالبروتينات) - مثلاً - التي يستفيد منها الجسم في نموه العام، وفي أداء وظائفه الحية المختلفة.

ولا شك في أن القدرة على تحويل الشيء الميت الذي يأكله إلى عناصر ومواد من نوع جسمه هو أهم علامة تفصل الجسم الحي من الجسم الميت، وقد كتب علماء الحيوان فقالوا:

(إن النعجة تتغذى بالنبات وتحوله إلى لحمها، وهذه أهم علامة على أنها حية، وكذا الطفل يتغذى باللبن الميت ويحوله إلى جسمه الحي) [1].

وهذا فرد من أفراد ما يخرج الله به الحي من الميت.

وأما انه سبحانه ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ فنفس هذا اللبن الخالي من الأجزاء الحية يخرجه الله من جسمٍ ليكون مادة غذاء للحيوان والإنسان.

أما المثال التوضيحي الأكثر شمولاً ووضوحاً فهو يضم جميع الكائنات النامية نباتاً أم حيواناً أم إنساناً فنقول فيه:

١- لنأخذ موضوعاً لمثالنا (النبات) فإنه يكوّن الغذاء بعملية التركيب الضوئي

---

(١) لاحظ لذلك: تفسير المنار/ في تفسيره لهذه الآيات.

مِن اتحاد مادتين هما: الماء، وثاني أوكسيد الكاربون.

٢ـ يتغذى النبات من الغذاء الذي يكوّنه بنفسه، ويسمى النبات، منتجاً للغذاء وتعتمد الحيوانات في غذائها على النبات كما ويعتمد الإنسان أيضاً في غذائه على النبات أو على الحيوانات التي تعتمد بدورها على النبات. ومن ذلك يظهر لنا أن الحيوانات بما فيها الإنسان تسمى بالأحياء المستهلكة.

٣ـ عندما يموت الإنسان، أو الحيوان يتحلل جسمه بوساطة إحياء مجهرية (صغيرة لا ترى بالعين المجردة). تعرف بالأحياء المحللة إلى مواد أولية منها: الماء وثاني أوكسيد الكاربون اللذان يتحدان من جديد، ويدخلان إلى جسم النبات ليكونا الغذاء مرة أخرى، وهكذا تبدأ دورة الحياة بعد الموت.

وعند تطبيقنا لما ذكرناه على الآية الكريمة نأتي إلى الشق الأول منها حيث يقول سبحانه: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾.

فإن الميت في الطبيعة هو أية مادة غير حية كالماء وثاني أوكسيد الكاربون.

وقد قلنا، إنه عندما يتحد هذان العنصران يكونان مادة غذائية تكون حُية في جسم النبات ويأخذها الإنسان والحيوان للتغذي عليها فتتحول إلى مادة حية.

وإذاً، فقد أخرج الله سبحانه هذه المادة الحية ـ الغذاء ـ من المادة الميتة، وهي: الماء وثاني أوكسيد الكاربون فصدق قوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ .

وأما أنه يخرج الميت من الحي.

فقد قيل إن الجسم الحي ـ نباتاً كان أم حيواناً أم إنساناً ـ عندما يموت تبدأ الكائنات الحية المجهرية ـ كالبكتريا ـ مثلاً، بتحليل المواد الحية الموجودة في جسم الكائن الحي عند موته إلى مواد غير حية أولية كالماء، وثاني أوكسيد الكاربون وغيرهما.

وبذلك يصدق أنه سبحانه أخرج الميت، وهو «الماء وثاني أوكسيد الكاربون»

من الحي، وهو المواد الحية الموجودة في جسم الكائن الميت أو الكائن الحي عند موته.

هذه العمليات المتكررة في كل يوم والتي تسير وفق نظام دقيق لا تخلف فيه تدل على وحدة الله وقدرته وعظمته وكل ذلك بيده وتحت سلطانه، ولذلك ولأهميتها نرى الإمام (عليه السلام) يذكر ويستشهد بهذه الآيات ليستدل بها على مدى قدرة الله في هذا الوجود، وفي هذا الكون بسمائه وأرضه وطوله، وعرضه.

١٩- ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وهذا دليل آخر على قدرته فإن الرزق أعم من الحسي، والمعنوي.

كما أن من يرزقه الله أعم من الجن والإنس والملك أو كل مخلوق له في هذا الوجود ومن المعلوم أن رزق كل شيءٍ بحسبه.

أما المراد من قوله سبحانه: (بغير حساب) فقد قيل فيه:

إنه يعطي ولا يحاسب نفسه بما أعطاه بل ذلك يعود إليه فهو لا يُسأل عما يفعل، ولكن عباده يُسألون عما يفعلون.

أو أنه يعطي المرزوق بغير انتهاء إلى حدٍ، بل يعطيه كيف يشاء مما يشاء بما يشاء، أو أنه يعطي شيئاً لم يكن المخلوق منتظراً لمثله لما صدر منه إزاء ربه، وذلك لأن العبد قد يحاسب نفسه فلا يراها أهلاً لمثل ذلك العطاء الوفير، بل يقدر لها حداً محدوداً.

ولكن الله سبحانه لا حد لعطائه سواءً على الصعيد المالي أو التوفيق أو الجاه أو النصيب أو الثواب الأخروي ودفع العتاب عنه.

تماماً كما جاء في الحديث القدسي «عبدي أطعني تكن مثلي أقول لشيء كن فيكون تقول لشيء كن فيكون».

صلاحيات واسعة، وعطف شامل، وقمة في العطف، والعناية يمنحها الله سبحانه لمن يطيعه من غير حدٍ ولا تقدير.

وبانتهاء هذه الفقرات فقد فرغ الداعي من محاورته مع ربه في تمجيده وبيان

بعض النماذج لقدرته وعظمته قدمها في حواره ليقول لربه:

إلهي، من كانت هذه قدرته، وهذا سلطانه هل يعجز عن إجابة مخلوق عاجز مثلي جاء إليك راجياً عفوك، وملتمساً أن تصفح عنه؟.

المقطع السابع:

١ـ لا إله إلاّ أنتَ سبحانَكَ اللّهُمَ وبِحَمْدِكَ مَن ذا يَعْرِفُ قَدْرَكَ فَلا يَخافُكَ ومَنْ ذا يَعلَمُ ما أنتَ فلا يَهابُكَ.

٢ ـ ألّفتَ بقُدرَتك الفِرقَ.

٣ ـ وَفَلقتَ بِلُطفِكَ الفَلَقَ.

٤ ـ وأنرتَ بِكَرَمِكَ دَياجي الغَسَق.

٥ ـ وأنهرتَ المياهَ مِنَ الصُّم الصَّياخِيدِ عَذباً وأجاجاً.

٦ ـ وأنزلتَ مِنَ المُعصِراتِ مَاء ثجاجاً.

٧ ـ وجعلتَ الشّمْسَ والقَمَر للبريةِ سِراجاً وهّاجاً.

٨ ـ مِن غير أن تُمارِسَ فيما ابتدأتَ بِهِ لُغُوباً ولا عِلاجاً.

يحسب الداعي، وهو ينهي فقرات المقطع السابق أن الدعاء قد انتهى، وأن الإمام قد أنهى ورده الصباحي، وبذلك ختم ما يريده من ربه بعد أن جلله، وقدسه ببيان الكثير من صفاته الدالة على قدرته المطلقة مما لا يدع مجالاً لأن يرد عبداً قصده، أو راجياً رجاه.

ولكن الداعي يرى المسيرة الدعائية بعد لم تنته حيث يرى الإمام (عليه السلام) عاد مرة أخرى إلى المناجاة والتضرع فلماذا هذا العود وهل من وراء هذه الإعادة من جديد؟.

نعم: لقد أراد الدعاء أن يركز قبل أن يختم المسيرة على التمسك بأعظم كلمة تحمل بين طياتها تمجيد الله، وتقديسه.

كلمة خفيفة على اللسان عظيمة في الميزان.

كلمة تحمل بين طياتها كل معاني التوحيد، وفي التوحيد يكمن سر هذا الوجود.

إنها كلمة (لا إله إلاّ الله).

والتي عبر عنها الدعاء «بلا إله إلاّ أنت» والمعنى في الاثنين واحد.

ولم يكتف بذلك بل أعلن ـ ومن خلال هذه الفقرات ـ بأن توحيد الله سبحانه لا يتم إلاّ بتنزيهه، وحمده، وشكره على ما أنعم.

كل ذلك جاء في حلقات متواصلة ركز فيها (صلوات الله عليه) على أن تقديس الله والخوف منه هو النتيجة الحتمية لمن يعرف حقيقة الله، وعظمته لأنه هو الذي وهب لمخلوقيه عناصر هذه الحياة وهو الذي تكرم فوضع الأسس القويمة لهذا الاجتماع فألف بين القلوب المتباعدة بعد أن هيأ لهم وسائل العيش بما منحهم به من نور الصباح، وضوء النهار وفجر لهم المياه من بين الصخور، وأفاض عليهم من المطر ما قوّم به الزرع لتقدم لهم المادة الحياتية مما تنبته الأرض:

﴿مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ﴾ [(1)].

كما يقوله القرآن الكريم، وإن كان ذكر هذه من باب العرض لا الحصر

وأخيراً: قهر عباده بالموت والفناء، وتوحد بالبقاء.

ومن الإجمال إلى التفصيل:

١ ـ (لا إلهَ إلاّ أنتَ).

كلمة محببة في قلوب المؤمنين. ثقيلة على قلوب الكافرين.

كلمة يغفر الله لمن يقولها ذنوبه، أو إن من قالها تتناثر ذنوبه تحت قدميه كما يتناثر ورق الشجر تحتها.

كلمة يشهد الله سكان سماواته بأن من قالها تغفر له ذنوبه.

وقد جاء عن النبي (ﷺ) «وقول لا إله إلا الله، خير العبادة» [(2)].

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٦١.

(٢) الشيخ الكليني: الكافي/ ٢، ٥٠٥.

كلمة مفضلة في مقام الذكر، والتجليل لوجود ميزة في حروفها لأنها من حروف الحلق، ولا تنطق بها الشفتان، ولذلك فلا يدخلها الرياء أما بقية كلمات الذكر فلوجود حروف فيها تتحرك بها الشفتان فلربما يرائي بها الذاكر أمام غيره أما هذه فمن يقرؤها بإمكانه أن يقولها من غير أن يفهم بها أحد.

وعندما نلاحظ الأخبار الواردة عن أهل البيت (عليهم السلام) في التمجيد بهذه الكلمة نراها تتدرج في تحبيبها إلى النفوس على النحو التالي:

القسم الأول: ما أشاد بها وبأهميتها من غير تقييد بشيء يقول الإمام أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) قال الله تبارك وتعالى: (أنا أهل أن أتقى، ولا يشرك بي عبدي شيئاً، وأنا أهل إن لم يشرك بي عبدي شيئاً أن أدخله الجنة، وقال (عليه السلام): إن الله تبارك وتعالى، أقسم بعزته، وجلاله أن لا يعذب أهل توحيده بالنارأبداً) [(١)].

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في تعظيمها: (ما قلت، ولا قال القائلون قبلي مثل لا إله إلاّ الله) [(٢)].

على أن بعض الأخبار صرحت بأن: «ثمن الجنة لا إله إلاّ الله والله أكبر» [(٣)].

القسم الثاني: وفيه نرى بعض الأخبار تقيد الجزاء المترتب على هذه الكلمة بشرط، وهو أن يقولها الإنسان بشرط الإخلاص.

من ذلك ما ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: «قال الله جل جلاله: إني أنا الله لا إله إلاّ أنا فاعبدوني، من جاء منكم بشهادة أن لا إله إلاّ الله بالإخلاص دخل في حصني، ومن دخل في حصني أمن من عذابي» [(٤)].

القسم الثالث: وقد تعرضت الأخبار في هذا القسم إلى شرح ما يراد من تقييد

---

(١) الشيخ الصدوق: التوحيد/ ٢٠.

(٢) المصدر المتقدم: ١٨.

(٣) الشيخ الكليني: الكافي/ ٢، ٥١٧.

(٤) الشيخ الصدوق: التوحيد/ ٢٥.

هذه الكلمة بأن يقولها مخلصاً فما المراد من الإخلاص المذكور؟.

ويكشف لنا الإمام الصادق (عليه السلام) المراد من ذلك في قوله: «من قال: لا إله إلاّ الله مخلصاً دخل الجنة، وإخلاصه أن تحجزه كلمة لا إله إلاّ الله عما حرم الله عز وجل» (١).

وبهذا المضمون جاءت أخبار أخرى.

التوحيد، هو الاعتقاد بأنه سبحانه لا شريك له في هذا الوجود، ولكن ما فائدة هذا الاعتقاد إذا لم يلتزم الإنسان باحترام القوانين الإلهية التي تمثل مجموعة النظم التي سنها الله لسعادة البشر، وصلاحهم.

إن عدم الانصياع لها معناه عدم التسليم بوحدته وقدرته المطلقة، والتطاول عليه، وهذا ينافي الاعتقاد بأنه واحد لا شريك له.

يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في تمجيد الله سبحانه: (وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له) (٢).

وكيف يتم الإخلاص له من إنسانٍ لا يحترمه، ولا يجد لأوامره ونواهيه أي أثرٍ في نفسه.

القسم الرابع: وفي هذا القسم من الأخبار ترى عظمة هذه الكلمة تتجلى حيث لم يحرم الله من يقولها ولو كاذباً من الجزاء ولو كان غير الجزاء الذي يناله من يقولها صادقاً مخلصاً فقد جاء عن رسول الله(صلى الله عليه وآله). (إن لا إله إلاّ الله كلمة عظيمة كريمة على الله عز وجل من قالها مخلصاً استوجبت له الجنة ومن قالها كاذباً عصمت ماله، ودمه وكان مصيره إلى النار) (٣).

وهذا لطف من الله سبحانه على عباده أن جعل لهذه الكلمة من الجزاء لمن قالها

---

(١) المصدر المتقدم: ٢٧.

(٢) نهج البلاغة: ١، ١٤.

(٣) الشيخ الصدوق: التوحيد/ ٢٣.

ولو كان كاذباً غير معتقدٍ بها إنّ ماله ودمه معصوم لا يهدر، أما من قالها معتقداً بها فإن الجنة هي جزاؤه.

وهذا التفصيل بين الصدق والكذب من مغريات مسألة إظهار الشهادتين (لا إله إلاّ الله) و «أن محمداً رسول الله» وأن من قال ذلك معتقداً به وعائذاً عليه قلبه فهو مؤمن. أما من قالها غير معتقدٍ وهو المراد من قوله (ﷺ) في الخبر «ومن قالها كاذباً» فإن مجرد الإظهار المذكور يكسب القائل صفة المسلم ويترتب على هذا حفظ القائل في دمه، وماله، وعرضه، وجريان أحكام المناكح، والمواريث التي يتمتع بها بقية المسلمين عليه.

بين الإيمان والإسلام:

لقد وضعت الآية الكريمة في قوله سبحانه:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[1].

وهذا هو المقياس الفارق بين الإيمان والإسلام فإن الإيمان يعتمد على شرطين:

الأول: الاعتقاد القلبي بمضمون هاتين الكلمتين.

الثاني: رسوخ ذلك الاعتقاد بحيث لم يقبل التشكيك والتوقف، والاضطراب ويستفاد الشرط الأول من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

فقد جعلت الآية مركز الإيمان وحطة القلب فمتى كان الاعتقاد منبعثاً من القلب حصل الشرط الأول.

أما الشرط الثاني: فقد استفيد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ والارتياب هنا يراد به الشك والتشكيك في الشيء فإذا كان الاعتقاد القلبي راسخاً قوياً ثابتاً لا

---

(١) سورة الحجرات: الآيتان، ١٤ و ١٥.

يدخله الشك مهما كانت الظروف، والأحوال فقد حصل هذا الشرط، وقد عبر القرآن الكريم في آية أخرى عن هذا الشرط الثاني بقوله: ﴿مُطْمَئِنٌّ﴾ حاكياً حالة أحد المؤمنين من أصحاب النبي وهو (عمار بن ياسر) حيث أكرهه المشركون على النيل من النبي فخضع تحت ضغط من التعذيب فجاء إلى النبي (ﷺ) باكياً معتذراً فنزلت الآية الكريمة تقول:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ (١).

وكلمة (مطمئن) برصانتها تعبر عن الرسوخ القلبي والثبات وعدم الارتياب والاهتزاز.

أما الإسلام، فلا يحتاج إلى أكثر من إظهار الشهادتين باللسان مع غض النظر عما ينطوي عليه قلبه... ولذلك نرى الإمام جعفر بن محمد (عليه السلام) يقول: (وإن الإسلام غير الإيمان وكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً) (٢).

ويطلق علماء المنطق على هذا النحو من الاستدلال باسم «العموم المطلق» حيث يقدم المفهوم الأضيق بحماية ثبوتية ليكون موضوعاً لمحمول مفهومه أوسع في الجملة الأولى، أما في الجملة الثانية فينعكس الحال حيث يقدم المفهوم الأوسع ليحمل عليه المفهوم الأضيق بحماية سلبية ويمثلون له بالمثال الدارج في قولهم، (كل إنسان حيوان ولا عكس)، إذ ليس كل حيوان إنساناً.

وقد استعمل الإمام (عليه السلام) هنا هذه الطريقة فقال: «كل مؤمن مسلم»: وهذا صحيح لأن من كان قلبه معتقداً بالشهادة فلسانه بطريق أولى يقولها.

«وليس كل مسلم مؤمناً»: إذ قد يقولها الإنسان باللسان، وقلبه غير معتقدٍ بها.

وفي حديث آخر يقول الإمام أبو عبد الله (عليه السلام): (إن الإسلام قبل الإيمان،

---

(١) سورة النحل: الآيتان ١٠٥ و ١٠٦.

(٢) ابن شعبة الحراني: تحف العقول/ ٤٢٢.

وعليه يتوارثون، وعليه يتناكحون، والإيمان عليه يثابون)[١].

وإذا ما عدنا إلى الدعاء مرة أخرى نرى الإمام (عليه السلام) ينزه الله، ويقدسه بأسمى كلمة حيث يقول: **(سبحانَكَ اللّهُم وبِحَمْدِكِ)**.

كلمات مرتبطة فيما بينها تكون بمجموعها جملة واحدة، وهدفاً واحداً، وغاية يؤكد عليها أمير المؤمنين (عليه السلام) في أكثر من موضع من أدعيته ومناجاته فقد سبق له أن أورد هذه الكلمات في دعائه المعروف الذي علمه، وأملاه على صاحبه كميل بن زياد النخعي والمشهور بدعاء كميل، حيث قال هناك:

(اللهم لا أجد لذنوبي غافراً، ولا لقبائحي ساتراً، ولا لشيء من عملي القبيح بالحسن مبدلاً غيرك لا إله إلاّ أنت سبحانك، وبحمدك ظلمت نفسي... الخ).

لقد تدرج الامام (عليه السلام) من إظهار تمجيد الله بتوحيده أولاً حيث نفى الشريك عنه بهذا النحو من الحصر الذي قال فيه: «لا إله إلاّ أنت».

ومن ثم بدأ بعد التوحيد بتنزيه الله سبحانه، وإبعاده عما لا يليق بذاته، وصفاته، وأفعاله فقال:

(سبحانَكَ اللّهُم).

ويقول علماء اللغة: إن سبحانك، أو سبحان الله معناه أبرِّئ الله من كل سوء براءة.

ويقول الآخر: معناه تنزيه الله من الصاحب، والولد.

أما الثالث فيقول: معنى هذا الكلمة تنزيه الله عن كل ما لا يليق بذاته المقدسة.

ويأتي جواب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) لمن سأله ـ وهو ابن الكوا ـ عن معنى سبحان الله فقال: «كلمة رضيها الله لنفسه فأوصى بها»[٢].

---

(١) لاحظ لهذين الخبرين: السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن/ ١٨، ٣٦٤ عن الكافي والخصال.

(٢) ابن منظور: لسان العرب/ مادة (سبح).

وتكمن عظمة هذا التنزيه في هذا الجواب المختصر وجعل الشرح موكولاً له ويكون ذلك من قبيل ما لا يعلم تأويله إلاّ الله، والراسخون في العلم.

وأما تشكيل هذه الكلمة من الناحية الإعرابية فهي منصوبة على نحو المفعول المطلق حيث يكون العامل في هذا المفعول فعل محذوف مقدر من جنس الموجود فيقال في تقدير الفعل لكلمة (سبحان، أو سبحانك): أسبح، أو سبحت أي سبحته تسبيحاً بمعنى نزهته تنزيهاً. وقد روى ذلك عن النبي (ﷺ) وأما:

(اللّهم).

فقد مر أن بينا أن المراد منها (يا الله)، وأنها حصيلة هذه الكلمة حيث تركت الهمزة من لفظ الجلالة، فاتصلت الميم بالهاء، وصار حرف النداء، والمنادى كالحرف الواحد، واكتفى به من ذكر (يا) فأسقطت فكانت الكلمة (اللهم).

(وبحمدك).

قيل في هذه الواو إنها حالية ليكون تقدير الجملة:

أسبحك يا الله حال كوني أحمدك ويكون الحاصل من هذا التركيب هو كون التسبيح مقروناً بالحمد والثناء.

وقيل في هذه الواو إنها عاطفة أي إنها تعطف الجملة الأسمية، أو الفعلية المقدرة على الفعل المضمر في سبحانك لتقول: أنزهك، وأحمدك.

ويردد الداعي، وهو يرتل هذه الفقرات الدعائية، وينحني مطأطئاً أمام هذه الكلمات الرفيعة تحمل بين طياتها الاعتقاد القلبي بتوحيد الله، وتنزيهه من كل عيب، ومن ثم حمده، والثناء عليه ذلك لأن توحيده يقتضي تنزيهه من كل صفة لا تليق به، وقانون العبودية يقضي بأن يسجل العبد، وهو يقدس الله ويمجده آياتِ الحمد والثناء عليه.

(مَن ذا يَعْرِفُ قَدْرَكَ فَلا يَخافُكَ ومَنْ ذا يَعْلَمُ ما أنتَ فلا يَهابُكَ).

من: في الجملتين استفهامية للاستفهام الإنكاري، وذا اسم موصول بمعنى

الذي، والتقدير من الذي؟.

ويأتي هذا الاستفهام لتبرير الخوف من الله، وشدة الحذر من عقابه.

وهو استفهام إنكاري لاذع ينطوي على تعجبٍ صريح ممن يعرف قدرة الله سبحانه، ولا يخافه، ولا يخشى سطوته، وأي قدرة لا يعرفها الإنسان حتى البسيط من البشر فضلاً عمن له مكانته من العلم، والفهم.

قدرته في الدنيا أم القدرة في الآخرة.

فمن ذا ينكر قدرته في هذا الكون الطويل العريض في سماواته، وأرضينه وهو: في كل ذلك: ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[1].

كما تقول الآية الكريمة: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[2].

كما تقول آية أخرى فيما إذا غضب على قومٍ لانحرافهم عن الطريق الذي يرسمه لهم، قال عنهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾[3].

وقد طفحت آيات الكتاب المجيد، وهي تحكي ما فعله الله سبحانه بالطغاة الجبابرة من عادٍ، وثمود، وفرعون، وأصحاب الفيل، ومن ماثل هؤلاء وسار على شاكلتهم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[4]. وقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ

---

(١) سورة الحج: الآية، ١٤.

(٢) سورة إبراهيم: الآية، ٢٧.

(٣) سورة هود: الآية، ٨٢.

(٤) سورة الفجر: الآيات ٦ ـ ١٤.

طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[1].

وعندما ينتهي أمر هذه الدنيا ويأتي دور الآخرة، وتتبدل الأوضاع ترى القرآن الكريم يحكي، ويصور لنا قدرة الله على ذلك التبديل فيقول: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[3].

هذه السماء بما فيها من كواكب، ومجرات، وأجرام، وما تشتمل من أجسام، وبهذا إلهيكل الضخم تراها يوم القيامة يوم الفزع الأكبر يطويها الله كما يطوي أحدنا الكتب بين يديه يقلب أوراقها الواحدة تلو الأخرى تماماً كما بدأ خلقها، وخلق من عليها، وبتلك القدرة في الابتداء يقلبها في الانتهاء، والنهاية، وهو في كل وقت على كل شيءٍ قدير.

وليس الأمر مقتصراً على هذه السماء التي تظلنا، بل السماوات كلها بما فيها، وما بينها مطويات بيمينه يلفها كيف يشاء، وحيث يشاء.

وهل تنجو الأرض من هذه الطاقة الجبارة، ويأتي الجواب صريحاً من خلال قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

وربما يكون للأرض في نفس ساكنيها من العظمة ما لا تحصله السماء منهم، وذلك لاطلاعه عليها، وما فيها من بحار، ومحيطات، وأنهار، وعيون، وجبال، ووديان، وسهول، ومنعطفات، وما إلى ذلك مما تضمه هذه الأرض في باطنها من عجائب.

كل ذلك كالكرة الصغيرة في قبضته سبحانه كما تقول الآية الكريمة، والقبضة في اللغة: ما قبضت عليه بجميع كفك.

---

(١) سورة الفيل: الآيات ١ ـ ٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآية، ١٠٤.

(٣) سورة الزمر: الآية، ٦٧.

وإذا كان الأمر كذلك فكيف لا يخاف ـ من يعرف هذه القدرة ـ ربه، ولا يخشاه.

ثم من الذي يعلم ما هو الله سبحانه، ويقف على حقيقته، ولو من بعض آثاره التي تختص به، ولا إمكان لغيره من القيام بها، ولا يهابه ويحترمه، ويذعن بأن بيده كل شيء وله من العظمة والجبروت ما تخضع له السماوات والأرضون؟.

٢ـ (أَلَّفتَ بِقُدرَتِكَ الفِرَقَ).

وبدأ الدعاء يعدد بعض مظاهر قدرة الله في هذه الأرض، وبيان بعض الصور التي يألفها الإنسان في حياته لتكون دليلاً على ما يريده الدعاء من بيان بعض جوانب عظمته، وربما كان بيان هذه الآثار نتيجة الإشكال الذي قد يرد على الفقرة السابقة من قوله (عليه السلام): «ومن ذا يعلم ما أنت فلا يهابك».

وصورته، بأن حقيقة الله وكنهه لا يعلمها إلاّ هو، وبعض الذوات الخيّرة المطيعة التي طابت نفوسها، وطهرت، وسمت إلى عليائه فعلمت ما هو، وقد جاء في بعض فقرات الأدعية عنهم (عليهم السلام): «يا من لا يعلم ما هو إلاّ هو»[1].

وإذاً فكيف يهابه الأفراد، وهم لم يصلوا إلى كنهه، وحقيقته؟.

لذلك بدأ الدعاء يبين أن الإنسان لا عذر له من هذه الجهة فهو، وإن لم يصل إلى معرفة حقيقة الله بما هي، وما هي تفصيلاً إلاّ أنه يتوصل إلى معرفة حقيقته الإجمالية من الإحاطة بآثاره، وبما يصدر منه فيكون ذلك دليلاً عليه.

وقد حكى القرآن مثل هذا في المحاورة التي جرت بين فرعون، وموسى (عليه السلام) حيث أمر الله نبيه موسى (عليه السلام) أن يذهب إلى فرعون ليدعوه إلى رب العالمين، وأن يترك ما هو فيه من دعوة الناس إلى عبادته.

ويمتثل موسى (عليه السلام) بعد محاورة جرت بينه، وبين ربه من توقفه من الذهاب لخوفه من فرعون بناءاً على مطاردة فرعون له، ولكنه بعد أن ضم إليه الله أخاه

---

(١) الشيخ الكفعمي: المصباح/ ٣٦٤.

هارون ذهب، ودخل على فرعون، وواجه بالحقيقة قائلاً:

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (١).

ويمضي القرآن الكريم ليقص المحاورة بين فرعون، وموسى (عليه السلام) بعد هذه المواجهة المرة لفرعون يرى فيها موسى (عليه السلام)، وقد رباه عنده وليداً أن يطلب منه أن يخلي بينه، وبين بني إسرائيل ليعبدوا إله موسى، ويخرجوا عن دائرة نفوذ فرعون، وظلمه، وجوره، وقد تضمنت المحاورة من جانب فرعون مرحلتين:

الأولى: وقد أبدى فيها فرعون ضبط الأعصاب، والدخول مع موسى (عليه السلام) من خلال حوارٍ عاطفي هادئ يشرع فيه فرعون بتذكيره بأياديه عليه حيث يقول:

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ (٢).

ويستمر فرعون بهذا النوع من العرض، ويرد عليه موسى (عليه السلام) يدافع عن نفسه، ويبرر موقفه الذي جاء به، ويقارن بينه، وبين ما صدر منه عندما كان في دار فرعون من قتل أحد أعوان فرعون.

وعندما يخسر فرعون هذا الجانب العاطفي يبدأ بالتهديد، وإن كان بشكل استفهام، وهذا ما دعاه إلى أن ينتقل إلى:

المرحلة الثانية: فيقول لموسى (عليه السلام) على مسمع ومرأى من جماعته الذين تجمعوا حوله ليشهدوا هذه المحاورة التي تجري بين فرعون، وهو في أوج عظمته، وبين موسى وأخيه هارون (عليهما السلام) وهما يمثلان أمامه ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٣).

وواضح أن هذا السؤال من فرعون إنما كان عن حقيقة هذا الرب الذي يدعو إليه موسى (عليه السلام)، وأنه من أي جنس من الأجناس هو ليتوصل إلى معرفته معلناً أمام قومه عدم معرفته بربٍ غير نفسه يدعوهم إلى عبادته.

---

(١) سورة الشعراء: الآيتان، ١٦ – ١٧ .

(٢) سورة الشعراء: الآية، ١٨.

(٣) سورة الشعراء: الآية، ٢٣.

وتمر لحظات، وفرعون، وقومه ينتظرون الجواب عن هذه الحقيقة.

ويبدأ موسى (عليه السلام) بالجواب، ولكنه لا يجيب عن النقطة التي ركز عليها فرعون في سؤاله عن حقيقة رب العالمين، وهو السؤال عن الجنس لأن الله ليس بذي جنس إذ لو اعتبرناه ذا جنس، للزم القول بتركيبه، وهو باطل، بل شرع ببيان حقيقة الله من خلال صفاته، وأفعاله التي يعجز البشر عن الاتيان بها

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾[1].

وإذا كان فرعون يتباهى ويموه على قومه بأن له ملك مصر ليثبت أنه رب لهم فيقول: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[2].

فإن جواب موسى (عليه السلام) بأن رب العالمين هو رب السماوات، والأرض جاء لطمة دامغة لفرعون فما يشكل هذا الملك الصغير من هذه المجموعة من السماوات، والأرض، وما فيها؟

ولذلك سلك مسلكاً آخر في جوابه ملتفتاً إلى قومه متعجباً من أسلوب موسى(عليه السلام) تشوب حديثه سخرية لاذعة: ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾[3].

يقولها متهكماً ألا تستمعون له أطلب منه ان يبين لي حقيقة ربه فيجيبني عن أمور أخرى.

وبرباطة جأش، وثبات كامل يوجه موسى (عليه السلام) ضربة أخرى يطعن فيها فرعون بالصميم ويذكر صفة أخرى تهيج فرعون، وتفقده صوابه.

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[4].

---

(١) سورة الشعراء: الآية، ٢٤.

(٢) سورة الزخرف: الآية، ٥١.

(٣) سورة الشعراء: الآية، ٢٥.

(٤) سورة الشعراء: الآية، ٢٦.

جواب مركز ينصب على كل الاعتبارات التي كان فرعون يبني صروح مجده عليها فهو يدعي الربوبية، وموسى (عليه السلام) يقول له: إن ربي هو ربك، ورب قومك، ورب آبائكم الأولين وتبدأ عند فرعون نقطة الضعف، ويفقد لغة المنطق السليم، ويختار لنفسه المستوى الضحل من الحديث لغة الشارع البذيئة، ويتوجه إلى قومه مرة أخرى يقول لهم: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (١).

إنها سخرية واضحة يريد من ورائها أن يثبت أن هذا الرب الذي أرسل إليكم هذا الرسول اختاره رسولاً مجنوناً مستدلاً على جنونه بأنه يجيب على خلاف ما يسأل تماماً كما يفعل المجانين، إذا سأل احدهم أجاب من غير وعي، وشعور.

ولم يقف موسى (عليه السلام) عند هذا الحد، بل خاطبهم ببيان صفة مألوفة لقومه لا يمكن لفرعون أن يدعيها له، وأن يقول إنني أدبرها بل هي لرب العالمين رب السماوات والأرضين. ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢).

ومن منهم لم يشاهد الشمس تبدأ من مشرقها بسير منتظم، ودقيق لتصل إلى مغربها لتضيف بذلك يوماً إلى قائمة الزمن، ومن مغربها تبدأ بمسيرة أخرى منتظمة لتشرق من مطلعها مرة أخرى فتضيف بذلك ليلة جديدة إلى ليالي هذه الدنيا التي نعيشها.

وتأخذ الحيرة على فرعون مسالك تفكيره فبماذا يجيب بعد هذه الضربة القاصمة أيقر بالواقع، ويخضع بأن هناك رباً مسلطاً على المشرق والمغرب، وينهي المحاورة وهذا ما لا يطيقه، ولا يتنازل له.

أم يقول: بأنني رب المشرق، والمغرب وهما كملك مصر لي، وتحت تصرفي؟.

وقد يتقبلها بعض السذج من قومه فيوافقه على مثل هذه المغالطة، ولكن بماذا يجيب لو جابهه موسى(عليه السلام) بما جابَهَ به إبراهيم النمرود بن كنعان، وهو أول من

---

(١) سورة الشعراء: الآية، ٢٧.

(٢) سورة الشعراء: الآية، ٢٨.

تجبر وأدعى الربوبية من قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾(١).

وحينئذٍ فيدور أمر فرعون بين أدّعاء إمكان ذلك، وهو عاجز عن ذلك، أو إظهار عجزه عن مثل هذا الطلب، وبذلك يظهر زيفه وخداعه... لكل ذلك نراه يغير مجرى المحاورة، ويلجأ إلى سلاح الجبناء في مثل هذه المواقف فيقول لموسى (عليه السلام): ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾(٢).

ونكتفي بهذا المقدار من المحاورة حيث رأينا موسى (عليه السلام) كيف استدل على حقيقة الله من خلال أفعاله، وصفاته.

ومن هذا المنطلق القرآني نرى الدعاء يبدأ ببيان (ما هو الله) من إطار بعض أفعاله، وأعماله فيقول:

(ألّفت بقدرتك الفرق).

الإلف: اجتماع التئام، وألف: أي أوقع الإلف، أو الإلفة بين الإثنين، أو الأكثر.

والفرق: جمع فرقة، والفرقة هي الطائفة من الناس.

لقد ألف الله سبحانه بين طوائف الناس، وجمع بين هذه الكتل البشرية بالتوادد، والمحبة، وتقديم الخدمة من البعض إلى الآخر مع ما تتميز كل طائفة عن الأخرى بطباعها الخاصة، وأنظمتها الداخلية التي تكيف مجموعتها عليها.

وهكذا الحال لو لاحظنا كل مركبٍ في هذا الوجود، وإن كان من غير البشر فإن في تأليفها وانسجامها وارتباط أجزائها دليلاً عن عظمة الله، وقدرته على هذا الجمع، وهذا التأليف بحيث يعجز غيره عن القيام بمثل هذا التأليف والارتباط.

هذا ما تريده الفقرة الدعائية من عرض أفعال الله في هذا الوجود.

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٥٨.

(٢) لاحظ الآيات، ١٦ ـ ٢٩ من سورة الشعراء.

وقد يُقال: ما هو السبب في حصول الفرقة بين البشر، وكلهم ينتمون إلى أبٍ واحد، وأمٍ واحدة، ولكلٍ حياته، وعمله، وشؤونه فلماذا هذه الفرقة، وهذا التناحر ليكون تأليف هذه الفرق من الأعمال التي لا يقوم بها إلاّ الله، وهي معدودة من صفاته، وأفعاله لعظم ما فيها من المجهود في عالم الاجتماع كما جاء ذلك في الدعاء، وكما تعرضت له الآيات القرآنية، وسنعرض إليها في ضمن البحث؟.

والجواب عن هذا السؤال: إن حب المادة، وحب الجاه، والأثرة، والملك وتسلط القوي على الضعيف، وتعدد الأسر، والقبائل، والتناحر القبلي... كل ذلك يكون مدعاة لوجود الخلاف والشقاق بين البشر.

وقد لا نحتاج لتوضيحٍ أكثر فالموضوع واضح يعيشه الفرد منا، ويعلم ما يشتمل عليه المحيط، وما هي أسباب الخلاف بين الفرق والأفراد.

والتاريخ بين أيدينا يحدثنا عن النزاعات القبلية والتناحر الذي يحصل بين الجماعات مما يسبب الحروب وإراقة الدماء، وقد يبقى ذلك بما يزيد على القرن.

إن تاريخ الجزيرة العربية يحدثنا عن حوادث، ومجريات من الحروب، والسلب، والنهب والتفاخر القبلي، بل التناحر الذي يحصل من جرائه الخراب، والدمار.

وهل يبقي الله هذا الخلق يسير على هذا النحو من الفوضى الاجتماعية يأكل قويهم ضعيفهم، وتسود الفرقة المجتمع البشري؟.

ولابد لنا من أن نضع (لا) في مقام الجواب عن مثل هذا الاستفهام المذكور.

وذلك لأن الله لا يريد لخلقه الضرر، والخراب، والدمار، والفرقة، وما إلى ذلك من عناوين لا تحمل بين طياتها إلاّ الشر، والبؤس إلى الناس.

بل الله يريد الصالح والخير لعباده، وإلاّ فلماذا خلقهم، وتكفل بمعاشهم، وهيأ لهم من سبل العيش ما يغنيهم بها، ويسعدهم.

يريد للبشر مجتمعاً صالحاً، ولابد للمجتمع من نظامٍ يحكم أفراده، وينظم أمورهم.

لذلك أرسل الرسل، وسن القوانين، وأوجد طرقاً توخى من ورائها إيجاد الإلفة بين أفراد المجتمع، وفرقه.

منها الزواج، ومنها التجارة، ومنها التوادد القبلي، وغيرها من الطرق التي يكون من نتائجها حصول الإلفة بين الناس.

ـ وعلى سبيل المثال ـ فإن الزواج لو لاحظناه لرأيناه أكبر حجماً مما ينظر إليه البعض من أنه وسيلة لإشباع الجنس، وإيجاد الولد، وتأسيس البيت.

إنه الوسيلة الناجحة لربط أفراد المجتمع فيما بينهم، وإيجاد علاقات واسعة بين قبائل، وأسر لا ترتبط مع بعضها فيما يسبق عملية الزواج.

وقد يكون بين قبيلتين من التناحر، والشقاق ما لا يتمكن الكثير من المصلحين رفعه، وإيجاد الالتئام بينهما، ولكن الزواج ينجح في رفع ما يكون بينهما من البغضاء، والشحناء وإخماد نار الحرب، وإيقاف نزف الدم.

وهذا أمر طبيعي يفرضه هذا الإلتحام بين قلبين قال الله عنهما:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [1].

إن الزواج كما يصهر في بوتقته هذين الزوجين ليُهيّء لهما السعادة الدائمة كذلك يصهر في بوتقته من ينتمي إليهما، ولكن بشكل أوسع في نطاق الخؤولة كما يقول الحديث: (فإن الخال أحد الضجيعين).

بعدما قال: (أختاروا لنطفكم) [2] وهو حديث نبوي:

وفي أبواب المعاملات، والتجارات نرى الإسلام نظم الأمور فيها بما يكفل للناس تقاربهم، وتآلفهم فرتب للشركة، وللمضاربة، وغيرهما من القوانين ما يجعل

(١) سورة الروم: الآية، ٢١.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ الباب ١٣ من مقدمات النكاح، حديث ٢.

من الفئات المتباعدة ما يقربها في نطاق العمل، والربح، والتجارة.

وعلى نطاق العبادات نرى الإسلام حث على حضور (الجمعة والجماعة) وأعطى من الثواب لمن يحضرهما الشيء الكثير ليجتمع الناس، وليراجعوا أمورهم، وما يخص أمورهم الدينية، والدنيوية.

كل ذلك منة من الله على عباده، وتفضلاً منه على هذه الفرق المتباعدة.

ولما نذهب بعيداً، والقرآن الكريم يحدثنا عن هذا النوع من التآلف والود الذي غرسه الله في قلوب أبناء الجزيرة العربية بفضل الإسلام.

لقد جاء الإسلام والحروب قائمة على قدم وساق بين القبائل، والفرق التي كانت تقطن الجزيرة وما حولها ـ وعلى سبيل المثال ـ فإن التاريخ يحدثنا عن نشوب حربٍ ضروس بين قبيلتين بسبب لطمة لطمها رجل من قبيلة لرجلٍ من قبيلة أخرى، وقد جرت الحرب فيما بينهم إلى أربعين عاماً، بل قيل إن الحرب بين قبيلتي الأوس، والخزرج جرت إلى مائة وعشرين عاماً، ولكنها هدأت، وانقلبت الحالة بين هاتين القبيلتين إلى حب وإخاء ببركة مجيء النبي (ﷺ) إلى المدينة حتى وصفهم القرآن الكريم بكلمة المؤمنين عندما قال سبحانه يخاطب نبيه الكريم:

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ﴾[1].

وعندما يعدد الدعاء تأليف القلوب من صفات الله المختصة به فذلك مستوحى من هذه الآية الكريمة فإن الله سبحانه يقول فيها:

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ﴾.

ويظهر لنا عظم الموضوع من هذا التعجيز من هذا المقطع من الآية الكريمة.

ويذكر القرآن الجماعات المؤمنة بما كانوا عليه قبل الإيمان في قوله سبحانه:

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان، ٦٢ و ٦٣.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [1].

٣ـ (وَفَلقتَ بِلُطفِكَ (بِرَحْمَتِكَ) الفَلَقَ).

الفلق: محركة «الصبح» وقيل: ما انفلق من عمود الصبح، وقيل: هو الفجر نفسه وفلق الشيء شقه وفلق الله الصبح شقه يكشف الظلام عنه.

والمراد من هذه الفقرة بحسب ظاهرها هو أنه تعالى أضاء الكون وأناره بضوء الصباح، وأبدل الليل بالنهار.

ولكن كيف صار ذلك لطفاً من الله على عباده، أو رحمة منه عليهم كما جاء في بعض النسخ من تبديل كلمة اللطف إلى الرحمة بحيث كان ذلك من جملة ما يختص به الله، وصوره تكشف عن حقيقة الله، ويتوصل منها إلى قدرته الجبارة؟.

لقد مرّ بنا في أول الدعاء أن رأينا الإمام (عليه السلام) قد نوه بهذه الظاهرة الصباحية، وجعلها من منن الله على عباده... ذلك لأن انشقاق الصبح، وكشف الظلام كله تعبير عن رحيل الليل، وحلول النهار، وبذلك يودع الإنسان فترة قضاها في النوم والاستراحة ليستقبل يوماً جديداً يستعين بضوئه على إدارة أموره المعاشية بالعمل، والكسب، والجد، وبذل الطاقة نحو تأمين ما تتطلبه الحياة.

وهذا الإنسان لو لم يقدّر الله له هذا المسرح العملي المتمثل في النصف الثاني من يومه، والذي يطلق عليه (النهار) فما كان يصنع وبأي شيء كان يأنس والظلام يلفه من كل جانب؟.

وهل يعوض القمر عن ضوء الشمس؟.

سؤال يفرض جوابه علينا عندما يقول: لا.

٤ ـ (وأَنرتَ بِكرَمِكَ دَياجي الغَسَقِ).

الدجي: الظلمة. ودجا الليل أظلم، وليلة داجية: مظلمة.

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ١٠٣.

والدياجي: الظلمات.

أما الغسق: فهو أول ظلمة الليل، وإذا قيل: غسق الليل فمعناه: انه أظلم.

والمقصود بهذه الإنارة ما يرسله القمر من أضوائه، وأنواره لينير الجانب المظلم من هذه الأرض عندما تكون الأرض حائلة بينه، وبين الشمس.

هذا القمر الهادئ، وهذا النور الذي يرسله ليمزق به هذا الظلام الذي يضربه الليل على أطراف هذه الأرض ليريح النفوس المتعبة، وليبعث النشوة فيها فيزيل ما يخلفه هذا القتام الذي يلف الكون من كآبة، وانقباض.

إنه كرم الله، ولطفه على العباد، ومننه عليهم أن يرسل من القمر هذا النور الباهر ليضيء به أرضنا مع بُعدها عنه بحوالي «٢٥٢٧١٠» من الأميال، وعندما يقترب منها تكون المسافة بينهما بحوالي «٢٢١٤٦٣» من الأميال أيضاً، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه المنة عندما قال سبحانه:

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾[1].

وقد ظهر لنا من خلال هذه الآية الكريمة أن الشمس هي القاعدة لمد القمر بالنور، وأن القمر يستمد ضوءه منها، وذلك لتعبيرها عن الشمس بأنها السراج، والسراج هو المصباح، وقد ظهر نوره على صفحات القمر كما صرحت به في قوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾.

وجاء العلم ليؤيد هذا المد في النور، ويقول: إن القمر يأخذ نوره من الشمس تبعاً لحيلولة الأرض بينه، وبين الشمس فكلما قربت، وحالت بينهما انتشر الظلام ـ وفي الوقت نفسه ـ نرى الشمس تمد القمر بالنور عندما يقرب منها وتحصل بينهما المقابلة.

وبيان أوضح: يقول العلماء إن الوجه الذي يواجه الشمس من القمر يكون مضيئاً دائماً فإذا كان قريباً من الشمس كان الوجه المظلم مواجهاً للأرض، وإذا بعد

---

(١) سورة نوح: الآيتان، ١٥ و ١٦.

عن الشمس إلى المشرق، ومال النصف المظلم من الجانب الذي يلي المغرب إلى الأرض تظهر من النصف المضيء قطعة تكون هلالاً، ثم يتزايد الانحراف، وتزداد بتزايده القطعة من النصف المضيء حتى إذا كان في مقابلة الشمس ينقص الضياء من الجانب الذي بدأ بالضياء على الترتيب الأول حتى إذا صار في مقابلة الشمس كان النصف المواجهة للشمس هو النصف المواجه لنا فنراه بدراً، ثم يقرب من الشمس فينقص الضياء من الجانب الذي بدأ بالضياء على الترتيب الأول حتى إذا صار في مقابلة الشمس يمحق نوره، ويعود إلى الموضع الأول.

٥ ـ (وأنهرتَ المياهَ مِنَ الصُّم الصّياخِيد عَذباً وأجَاجاً).

أنهرت المياه: أجريتها، وأسلتها. والأَنهار هو الإجراء، والإسالة والصب بكثرة متدافعاً.

والصم: جمع أصم أي الصلب المصمت الذي لا تجاويف فيه، وبه سميت حاسة السمع لأن باطن الصماخ مكتنز لا تجاويف فيه.

وأما الصياخيد: فهو جمع صيخود أي الشديد. والموصوف في هذه الفقرة محذوف، والتقدير: أسلت الماء من الصخور الصم الصياخيد.

عذباً: أي طيباً لأن العذب الطيب من الماء.

ويوسع بعض اللغويين الدائرة، فيقول: العذب لا يختص بالشراب بل يعم الطعام، والشراب، ويستعمل لهما معاً، وهو ما يستساغ من كلٍ منهما، فيقال: طعام عذب، وماء عذب.

أما الأجاج: فهو المالح، وقيل هو المر، وقيل: هو المالح المر.

والمراد بهذه الفقرة هو بيان قدرة الله في إخراج المياه من العيون التي تحصل على سطح الأرض والعيون، أو الينابيع عبارة عن فتحات في صخور القشرة الأرضية تتدفق منها المياه الباطنية إلى سطح الأرض بصورة مستمرة عادة.

وتتوقف جودة المياه الباطنية ومدى صلاحيتها لاستعمال الإنسان إلى حد كبير على كيميائيتها، وهذه تعتمد على محتواها من الأملاح الذائبة فيها، وعادة تتوقف

كمية الأملاح الذائبة في المياه الباطنية على نوع الصخور التي تمر بها في رحلتها والصخور التي تجمعت وبقيت فيها، ولذلك يكون الماء النابع منها مالحاً لو مر في رحلته على مواقع مالحة في باطن الأرض.

أما لو كانت المياه في رحلتها لا تصادف شيئاً من تلك الأملاح فالماء يخرج منها عذباً طيباً، ولهذا نرى الإمام (عليه السلام) قسم المياه التي تدفعها العيون إلى قسمين:

عذبة، وهي الطيبة وأجاجاً، وهي المالحة.

وبناءاً على أن رحلة المياه من باطن الأرض إلى السطح تكسبها التلوث مما هو موجود في طريقها فإن القضية حينئذٍ تنتهي إلى القول:

بأن بعض ما تقدمه العيون إلى سطح الأرض يكون ملوثاً بالكبريت حيث يمر الماء في طريقه على هذه المادة الكامنة تحت سطح الأرض في بعض المناطق منها وهكذا الحال في غير الكبريت من المعادن مما تحتوي عليه الأرض في باطنها من مواد، ومعادن.

٦ـ (وأنزلتَ مِنَ المعُصِراتِ ماءً ثجاجاً).

والمعصرات: هي السحائب التي تعصر بالمطر، وقيل هي: السحائب التي تتحلب بالمطر، وقيل هي: الرياح ذوات الأعاصير.

أما الثجاج: فإن الثج هو السيلان، وثج الماء أي سال.

هو السيلان بانصباب، واندفاع، والسيلان المقصود هنا، والمراد به هنا: المطر الذي ينصب بكثرة، ومتدافعاً.

والمطر: هو سقوط نقطٍ صغيرة انضمت إلى بعضها فاكتسبت ثقلاً، وبه لا يمكن أن تبقى سابحة في الهواء.

ومنشأه: البخار الذي يتصاعد من سطح الأرض الرطبة والبحار، والبرك، والأنهار، ومتى ما صادفت تلك الأبخرة طبقات في الهواء باردة كافية لتكاثفها استحالت إلى حويصلات صغيرة ميكرسكوبية ضاربة للبياض ممتلئة بهواء وبعدها

تنزل إلى الأرض كأمطار وثلج، وينتهي بها المطاف مرة أخرى إلى البخار والمحيطات ويتسرب جزء منه إلى باطن الأرض.

وفي هاتين الفقرتين يبين الدعاء نعمة الله على خلقه، وآياته التي يستدل بها على حقيقة الله من إطار قدرته المطلقة، وآثاره التي يختص بها جلت عظمته إنها نعمة الماء، ومدى حاجة الأرض، ومن عليها من حيوان، ونبات إلى هذه المادة الحياتية التي قال الله سبحانه عنها:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

ويدخل في قوله تعالى: «كل شيءٍ» كل ذي روح، ونموٍ فيدخل فيه الحيوان، والنبات، والأشجار.

وقد لا نحتاج إلى شرح كثير عن الماء، وضرورته للأرض، ومن عليها فإن ذلك أمر يعرفه كل من قُدر له أن يدخل هذه الحياة من باب، ويخرج من الباب الأخرى.

٧ـ (وجعلتَ الشَّمْسَ والقَمَرَ للبريةِ سِراجاً وهّاجاً).

السراج: هو الصباح.

والوهاج: الوقاد. يُقال: وهجت النار إذا اتقدت.

أما البرية: فهم الخلق. يُقال: برأه الله أي خلقه.

وقد خص الدعاء هاتين الآيتين بالذكر، ونوه بهما لما لهما من الأهمية المباشرة في حياة الإنسان، لذلك لابد لنا من البحث عن كل منها.

إذاً ومع الشمس لنرى ما هي وما لها من الأهمية لتأخذ من الدعاء هذا الاهتمام.

الشمس ما هي؟

عندما يتحدث علماء الفلك عن الشمس يقولون: إنها كرة هائلة من غازات

---

(١) سورة الأنبياء: الآية، ٣٠.

متعددة متوهجة قطرها نحو من «٨٦٥٣٨٠» ميلاً.

أما درجة حرارتها عند السطح فيختلف ففي وسط القرص تبلغ نحو من «٦٠٠٠» درجة مئوية.

أما أوسط الكرة فقد قدروا درجة حرارته «بثلاثين مليون» درجة.

وأما مقادير الحرارة التي تشعها الشمس فيما حولها فإن السنتمتر الواحد من سطح الشمس يعطي في الدقيقة الواحدة «٨٩٠٠٠» سعرة حرارية.

وسط الشمس كله يعمل في إشعاعه عمل «خمسمائة وثمانين ألف مليون مليون حصان».

ويبلغ نصيب الأرض من هذا الاشعاع نحواً من (٢٢٠٠ مليون) جزء.

عناصر الشمس:

ويوجد في الشمس: الأوكسجين، والنتروجين، والكربون، والحديد، والكبريت، والصوديوم.

ولكن هذه العناصر ليست متوفرة فيها بكثرة، أما ما يوجد فيها بكثرة فهو عنصر الهيدروجين، والهليوم، وهما أخف عنصرين في الوجود.

والهيدروجين: هو في الواقع بمثابة وقود تحرقه الشمس، ويقولون عنه: إنه أخطر شيء في الدنيا، وذرته أخطر ذرة، وإنها الذرة التي أعطت النار والنور، وأنها الذرة التي دخلت في تركيب الأجسام والأجرام، وفي مقام أهميتها يقولون: إنها قطعة الآجر الذي بني منها هذا الكون.

أما الهليوم: فهو المادة المتخلفة من احتراق الهيدروجين.

والشمس تستمد طاقتها الهائلة التي تشعلها في الفضاء من تحويل الهيدروجين إلى الهليوم.

الشمس قطعة متوهجة متلهبة:

وكما يشير الدعاء إلى ذلك فإن الإشعاع الشمسي ليس إشعاعاً بسيطاً، بل هو إشعاع متوهج ملتهب، وذلك لأن جزئيات الغاز الموجودة في الشمس مكبوسة بعضها إلى بعض كبساً شديداً، وهذه الجزئيات لا تعرف للسكون معنىً فهي تجيش وتتزاحم وتتدافع في ألسنة من اللهب كالنافورات.

وليس بالسهل أن نرى هذا التوهج بالعين المجردة لأن لمعان الشمس يمنع من ذلك.

نعم: بالإمكان رؤية ذلك اللهب بوضوح عندما يحدث الكسوف الكلي للشمس، وحينئذٍ بالإمكان أن نرى تلك النافورات الغازية المتوهجة تندلع من حافتها، وعندها تدرك مدى الاضطراب الشديد الذي يسود الشمس.

وتحيط بالشمس هالة شمسية حارة جداً وتحتوي على أبخرة من الحديد والنيكل والكالسيوم.

الشمس ضرورة حياتية للأرض وساكنيها:

وللشمس اتصال وثيق مع الأرض، وساكنيها أكثر من بقية الكواكب والنجوم السماوية الأخرى فهي مصدر الضوء، ومصدر الحرارة، والمطر لأن تبخيرها لمياه الأرض يسبب سقوط الأمطار، ويتوقف النبات عليها لتغذيته منها، والنبات تتوقف عليه حياة الحيوانات بفصائلها، وبتسخينها لليابسة والبحار بدرجات مختلفة يتسبب هبوب الرياح.

ـ وفي الوقت نفسه ـ فإن الشمس تمدنا بمصادر القوة لأن الخشب والفحم، والبترول ومساقط المياه كلها من صنع الشمس.

وكل ذلك ينتج من الحرارة التي تصبها الشمس على الأرض، وكذلك كمية الضوء التي تزود به الأرض.

ويقول العلماء: إن ما تصبه الشمس من هذه الكمية في الفضاء وعلى الأرض

في الثانية الواحدة «أربعة ملايين طنٍ» من الطاقة [1].

وفي تقرير آخر عن الشمس واستثمارات الطاقة الشمسية جاء:

إن كل ما يجري على الأرض، أو يطير في الجو، أو يسبح في الماء يحصل على الطاقة اللازمة لحركته من أشعة الشمس.

فحياتنا تتوقف على الطاقة الشمسية حيث تأتينا الأشعة الشمسية بعد أن تكون قد سارت في الفضاء ما يقرب من «٩٢ مليون من الأميال» وهذه الطاقة الشمسية التي تصل إلى الأرض تستثمر بطريقتين:

أ ـ الاستثمار بطريقة التركيب الضوئي.

ب ـ الاستثمار من قبل الإنسان.

أ. استثمار الشمس بطريق التركيب الضوئي:

ويتم ذلك من خلال النبات الأخضر الذي يحتوي على الكلوروفيل في بلاستيداته.

وتعتبر البلاستيدة بطارية من نوع دقيق تأخذ الطاقة لتستفيد منها في بناء الجزئيات.

فعبر النبات تتحول الطاقة الضوئية المنبعثة من الشمس إلى طاقة كيميائية حيث تعمل الطاقة الضوئية في النبات الأخضر بربط جزئية الماء المنتقلة عبر جذور النبتة مع ثاني أوكسيد الكاربون الذي يحصل عليه من الهواء في بناء جزيئة صغيرة ثم تترابط الجزيئات الصغيرة لتكون جزيئة أكبر وتتشكل على صور أخرى مثل الأحماض الأمينية، والسكريات، والدهون، والزيوت، والحوامض العضوية، والفيتامينات، والبروتين.

---

(١) لزيادة المعلومات يراجع كتاب مع الله في السماء: ١٤٥، وما بعد، وكتاب كل شيء عن النجوم رقم ٤ صفحة ٢٢، وما بعد.

وكل هذه الجزيئات مسخونة بالطاقة التي تكمن في قوة الآصرة التي تربط الذرات في الجزيء وبذلك تخزن على هيئة غذاء ووقود، فوقود جسم الكائن الحي هو السكر والسكر بأنواع مختلفة: منها السكر أحادي كسكر الكلوكوز أو سكر الفواكه، أو سكر ثنائي مثل سكر القصب، وقد يكون سكر ثلاثي أو سكريات معقدة مثل النشاء، والسليلوز.

وكل هذه الأنواع المختلفة تربط ذراتها الأواصر الكيمائية التي تكمن فيها الطاقة الحرارية، فالإنسان، وسائر الحيوانات تلقي في جوفها الغذاء كما يلقي سائق السيارة البنزين في المحل المعد لوقود سيارته، ولا يعرف الكثيرون ما يحدث بعد هذا إلاّ أنه وقود تسير به الأحياء والآلات، ولكن المتخصصين فقط من مهندسي الحياة (العلماء) ومهندسي الآلات كل يعرف من خلال تخصصه ما يتم من عمليات، وكل يعرف أي نوع من الوقود أكفأ من غيره في الاحتراق، وما الكفاءة إلاّ الطاقة المخزونة في نوع الوقود التي تنطلق بعد هذا ليتحرك بها الإنسان والحيوان، والنبات وتتحرك به السيارة، أو تطير به الطائرة.

ـ وعلى سبيل المثال ـ إن سكر الكلوكوز الذي قلنا إنه وقود أجسامنا ما هو إلاّ ثاني أوكسيد الكاربون والماء ربطتهما طاقة حرارية مصدرها الشمس، وقد تمت في المصانع الكيميائية الذي صممته إرادة المبدع العظيم في ورقة النبتة الخضراء.

وعندما يصل بنا سير البحث إلى الفحم، والبترول نراهما طاقة شمسية مختزنة في الأرض منذ عشرات بل مئات الملايين من السنين اختزنتها الأرض لصالحنا لكي ندير بها آلاتنا ونؤجج بها أفراننا وننشىء بها صرح المدينة، وهكذا تدور الطاقة الشمسية، في الأحياء والآلات تنتقل من النبات إلى الحيوان، ومن الحيوان إلى النبات إلى باطن الأرض، ومن باطن الأرض إلى الآلة.

ب ـ استثمار الطاقة الشمسية من قبل الإنسان:

وفي العصر الحديث استطاع الإنسان أن يستثمر الطاقة الشمسية عن طريق تركيز هذه الطاقة بوساطة المرايا المقعرة ثم بوساطة المرايا البلاستيكية واستعمالها في

المجالات المختلفة منها:

١ـ الأفران الشمسية:

ويتم ذلك باستعمال المرايا المقعرة، والعدسات، وبذلك يمكن توفير درجات حرارة تصل إلى أكثر من «٢٠٠٠مْ».

وقد استعملت روسيا والهند مطابخ شمسية للاستعمال الخاص.

ويشتمل الجزء الأساس من الجهاز على مرآة يبلغ قطرها متراً أو مترين قادرة على أن تغلي ما يعادل أربعة لترات من الماء في مدة ساعة.

واستخدمت الطاقة الشمسية المحتجزة بهذه الطريقة أيضاً في بعض البلدان لتدفئة المنازل والأبنية بكفاءة عالية.

٢ـ دراسة خواص بعض الأشياء:

وقد استخدمت الطاقة الشمسية لدراسة الخواص الطبيعية أو الكيميائية لبعض المواد تحت درجات الحرارة المرتفعة كما هو الحال في أمريكا وفرنسا.

٣ـ تحليل المياه وتنقيتها:

ففي صحاري شمال أفريقيا استخدمت الطاقة الشمسية في تبخيرها ماء البحر والحصول على ماء عذب.

وأبسط الوسائل المستخدمة لهذا الغرض، هو وضع الماء المالح في أحواض تغطى بألواح من الزجاج الرقيق مثبتة في مستويات مائلة يمكن أن ينفذ من خلالها الاشعاع الشمسي بسهولة، وعندما يسقط الاشعاع الشمسي يتحول بعضه إلى بخار يتصاعد إلى السطح الزجاجي المائل حيث لا يلبث أن يتكاثف جزء كثير منه في صورة نقط تنمو وتتحدد، ويسيل إلى خزانات خاصة في نهاية الأسطح الزجاجية حيث يمكن تجميع الماء العذب.

٤ ـ رفع المياه الجوفية:

ولهذا الغرض تستخدم مراياً معدنية اسطوانية مستطيلة تدور مع الشمس

وتثبت في بؤرتها أنابيب معدنية يتحول فيها الماء إلى بخار يستخدم في إدارات الآلات الصغيرة التي يمكن بواسطتها رفع المياه الجوفية.

٥ ـ إنتاج الخلايا الكهروضوئية:

في هذه الطريقة تحول الطاقة الضوئية إلى طاقة كهربائية، واستعملت هذه الطريقة بشكل خاص في مجال الأقمار الصناعية، وما تحتاج إليه أجهزتها من الطاقة لتشغيلها أثناء تحليقها في الفضاء.

وفي عام ١٩٦٣ شاهد علماء الفلك من جميع أنحاء العالم أثناء اجتماعهم في بركلي في سان فرانسيسكو سيارة تنطلق بالطاقة الشمسية واستمتع بركوبها كثير من كبار العلماء.

من كل ما سبق نرى أن ما لا يقدر عددهم من البشر والحيوانات، وسائر الأحياء كلها تنبض بالحياة، وكلها ـ كما يعبرون ـ مصابيح تستمد نورها من الشمس ولو قدر للشمس في يوم من الأيام أن ينطفئ نورها فسوف تنطفئ كل هذه المصابيح على الأرض، وفي الفضاء، ومعنى ذلك أن الموت سيخيم بشبحه المرعب على هذه الدنيا.

كل هذا كان منظوراً للإمام (عليه السلام)، وهو يمجد الله سبحانه بهذه الصفة وأنه جلت عظمته مصدر هذه الطاقة الجبارة التي هي مصدر الحياة.

ومن هنا يتضح لنا الجواب عن السؤال في سبب تقديم ذكر الشمس على بقية الأجرام السماوية في فقرات الدعاء وحتى على القمر لأن القمر يستمد نوره من الشمس، فهي مصدر ضيائه، وطاقته.

على أن القمر، وبقية الكواكب لا تزود الأرض، وساكنيها، ومن يسبح في بحارها بما تزوده الشمس من طاقات حياتية ـ كما ذكرنا ذلك ـ تستحق أن يأخذها الإمام بنظر الاعتبار.

ويبقى علينا، ونحن ننهي البحث عن الشمس أن نبحث عن القمر، الآية الثانية في الأهمية في لسان الدعاء فنقول:

القمر ما هو؟

يرى العلماء أن القمر في مبدأ نشوئه وليد الأرض لوجود الشبه الكثير بينهما في التركيب، والحركة لذلك يقررون أنه اقتطع من سطح الأرض عندما كانت على وشك الانجماد ويشهد على ذلك وجود الحفرة الهائلة، وهي الحوض الذي فيه الماء الغمر الذي يسمى بالمحيط الهادئ.

وعندما يمعن الإنسان النظر في القمر عندما يتم بدراً يرى فيه بياضاً مختلطاً بسواد يشكل فيه أشكالاً تخيل للناظر أن للقمر وجهاً كوجه الرجل.

ولكن المناظير المقربة والصور الفوتوغرافية تمكنت من محو هذه الصورة المنطبعة في أذهان الناس وكشفت عن أن هذا السواد منخفضات هائلة تحيط بها مرتفعات كالجبال، وهي وهاد واسعة أشبه شيء بنجاد الأرض.

وهي جبال قاسية وخشنة لم تكد تتسلم حدودها أو تنبري أطرافها ولا تزال الساحات في القمر مبسوطة تحوطها حوائط لا تزال قائمة عارمة تتحدى النازل إليها وذلك لغياب الجو عنه إذ لا يوجد في القمر جو كما هو الحال في الأرض فلا هواء، ولا ماء وحرارة الشمس فيه محرقة وقاتلة.

ويدور القمر حول نفسه وحول الأرض في مدار إهليج أي بيضاوي أخلف الأرض إحدى بؤرتيه.

ويستغرق في إكمال دورته حول الأرض «٢/ ١ ٢٧» يوماً، ولكن الأرض في أثناء هذا تكون قد دارت بالقمر حول الشمس فتغير موضعها بالنسبة لها عندما بدأ دورته حولها أول الشهر، وهو يلحق بهذا الموضع بعد نحو يومين فيكون قد مضى على أول دورته نحو من «٢/ ١ ٢٩» من الأيام. ويميل مستوى دوران القمر حول الأرض عن مستوى دوران الأرض حول الشمس نحواً من «٥» درجات، وهو يدور حول نفسه خلال شهر وهو يدور من الغرب إلى الشرق.

تأثير القمر على الأرض وفوائده لساكنيها:

تصرح الآيات الكريمة في أكثر من مورد بأن الله سبحانه قد جعل من القمر نوراً لأهل الأرض يستضيئون به في الصحاري والبلدان وعلى أنواره تهدأ النفس ويروح الفرد منا أعصابه.

وقد جعل الله نوره على هذا الشكل الفضي الهادئ ليلائم الجو الذي يتطلبه بدن الإنسان بعد نهارٍ مضنٍ يمر على الإنسان يواجه في المشاق التي يتحملها في سبيل معاشه وتأمين ما يحتاجه من يعول بهم ويكفلهم.

ولم تقتصر فوائد القمر على ما يرسله إلى أرضنا من أنواره المحببة ليضيء كل سهولها وجبالها ووديانها وبحارها ومجاريها فيمزق بذلك سحب الظلام عنها ويخفف الوحشة التي تلف هذا الكون عندما يخيم الليل على الأرض، بل هناك فوائد أخرى تأتي في مقدمتها قضية ضبط الزمن وتحديد الحساب من الجهة التاريخية.

إن هذه العملية التي نرى القمر فيها يتولد هلالاً ليكمل قمراً فيعود هلالاً تقدم إلى التاريخ شهراً ليضاف إلى قائمة الزمن، وعندما تتكرر هذه العملية من ١ ـ ١٢ يكون التاريخ قد أضاف إلى سجله سنة جديدة.

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ (١).

بحدٍ مضبوط وسير للقمر من منزل إلى منزل بحسب الأبراج التي نظمت له ليكمل بذلك تلك المنازل التي قدر الله له سيره فيها.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ (٣).

---

(١) سورة التوبة: الآية، ٣٦.

(٢) سورة يونس: الآية، ٥.

(٣) سورة يس: الآية، ٣٩.

فلو لم يكن العد الحسابي لهذا القمر لما أمكن ضبط التاريخ والوقائع ولأمكن أن يكون ما مضى من الزمن غير مطابق لما هو عليه الآن من تحديد في حصول الوقائع والأمور التي وقعت ومر عليها زمن سابق بعيد.

وقت مضبوط وسنون متعاقبة تشكل قروناً مضبوطة يعلم بها متى وكيف يسجل التاريخ وقائعه، ويضبط الإنسان من خلالها عمره وأحكامه الشرعية بالنسبة إلى سنن تكليفه وعبادته التي تعتمد على الوقت، وهكذا ما يخص المعاملات في ضبطها، وتحديدها.

المد والجزر:

ومن أبرز الظواهر الطبيعية التي شاهدها الإنسان، وخاصة سكان البلدان والمدن الساحلية المختلفة. ظاهرة تتكرر ليلاً ونهاراً وتؤتي تأثيراً مباشراً وحيوياً بالنسبة لهم، فهي تتحكم في أعمالهم الملاحية والتجارية، وفي علاقاتهم وترتبط بشؤون صيدهم البحري هي ظاهرة المد والجزر.

ومن المعلوم أن المد في مياه البحار يشكل ارتفاعاً فيها بينما يشكل الجزر انخفاضاً لمستوى المياه.

وكانت أول نظرية سليمة وضعت لتوضيح القوى الفعّالة لحدوث المد والجزر هي التي وضعها (نيوتن) عام (١٦٨٧م) ثم جاء من بعده علماء آخرون فوضعوا أسساً ثابتة وتفسيرات رياضية متينة في هذا الصدد.

وهذه الظاهرة تحدث نتيجة لجذب القمر وجذب الشمس بحيث تنسحب مياه البحار والمحيطات إلى الناحية التي تواجه القمر وبتعبير أوضح:

ترتفع المياه في الأماكن التي يكون القمر فيها في منتصف السماء، أو عندما يعبر خط الزوال.

فإذا صار هناك انتهى المد ووصل إلى منتهاه وإذا انحدر القمر من وسط سمائه جزر الماء، ولا يزال كذلك راجعاً إلى أن يبلغ القمر مغربه فعند ذلك ينتهي الجزر

ويصل إلى نهايته فإذا تحرك القمر من مغرب ذلك الموضع ابتدأ المد مرة ثانية.

والواقع إن جنب القمر لا ينحصر تأثيره على مياه المحيطات أو الأنهار فقط، ولكنه يمتد إلى اليابسة أيضاً فتنجذب الأجزاء اليابسة من الأرض أيضاً من الجانب غير المواجه للقمر تنجذب إليه بحيث تترك في المحيطات المقابلة مداً وتظهر مرتفعة بالنسبة إلى الشواطئ المجاورة وينبعج سطحها الخارجي.

وليس القمر هو المسؤول الوحيد عن هذه العملية، عملية المد، بل الشمس لها تأثير في ذلك، وان كان تأثيرها أقل من تأثير القمر إذ تبلغ النسبة بينهما كنسبة (٢/ ١ ٣:١).

وفي أثناء المد قد يندفع الماء في بعض بقاع العالم كالصين، والهند، وانكلترا، وكندا على شكل حائط هائل من المياه باتساع كبير، وارتفاع يربو على عشرة أمتار أحياناً، ويطلقون عليه مد الربيع.

ولهذا عمد كثيرون من كبار المهندسين إلى التفكير في استعمال مثل هذه الطاقة الميكانيكية الهائلة إلى توليد طاقة كهربائية منها.

وقد استعملت هذ الطاقة فعلاً في بعض بقاع العالم حيث أقيمت السدود الكبيرة على مساحات واسعة في بعض الخلجان وتحتوي هذه السدود على عدد كبير من العيون تفتح أوتوماتيكياً وقت وصول المد، وهي معدة بحيث تسمح باستعمال التوربينات المركبة عليها في نفس اللحظة لتوليد الطاقة الكهربائية.

ومن فوائد القمر ما يكون نوره مؤثراً في أبدان الحيوانات فيبعث فيها النشاط وتكثر أيضاً ألبانها في هذه الفترة.

القمر وظاهرة كسوف الشمس:

يعتبر القمر هو المسؤول عن هذه الظاهرة التي تتكرر نتيجة لدوران الأرض حول الشمس، ودوران القمر حول الأرض ـ في نفس الوقت ـ ذلك لأن القمر كلما توسط بين الأرض والشمس حجب أشعتها عن الأرض جزئياً أو كلياً فإن كان الحجب جزئياً أطلق عليه الفلكيون اسم الكسوف الجزئي، وإن كان كلياً أطلقوا

عليه اسم (الكسوف الكلي).

وإن أحداث الكسوف الشمسي والقمري هي من الأحداث الفلكية الهامة التي تحسب مراقبتها وظروفها بمنتهى الدقة في أيامنا هذه.

وقد يجرنا البحث إلى توسعة لا نجد لها ضرورة إذا أردنا أن نحافظ على الاختصار، وقد تعرضت المصادر التي تبحث عن هذه الكواكب إلى بيان الفوائد العديدة المترتبة على الشمس، والقمر، وما يقدمانه إلى الطبيعة والأرض من فوائد.

وقد ذكرنا هذا الذي بيناه لنرى من خلاله الأهمية التي دعت بالإمام (عليه السلام) أن يستشهد بهاتين الآيتين ويقدمهما كدليلٍ على عظمته سبحانه.

٨ ـ (من غير أن تُمارِسَ فيما ابتدأتَ بِهِ لُغُوباً ولا عِلاجاً).

مَارس الشيء: عَالجه وزاوله وعاناه وشرع فيه.

والممارسة: المعالجة.

أما اللغب: فهو التعب، والإعياء.

أما العلاج: فهو العمل بالجوارح.

لا تتجلى عظمة الله سبحانه في مجرد خلق الشمس، والقمر، وتفجير المياه من باطن الأرض عيوناً، أو إنزال المطر لتروى به الأرض، وغير ذلك من الأعمال الجبارة فإن الإنسان قد يقوم بكثير من الأعمال التي تعد من العظمة بمكان بل العظمة إنما تكمن في نقطة دقيقة بيّنها الإمام (عليه السلام) من خلال هذه الفقرة الدعائية وتلك هي:

إن صدور هذه الأشياء منه تعالى لا تتوقف على تقديم أمور ومقدمات واستنتاجات تستوجب العناء والمشقة، وأعمال الجوارح وممارسة النشاط بواسطة الأعضاء والفكر كالتي يعملها الإنسان إذا أراد أن يقوم بعملٍ خارجي. إن أعماله كما يقول عنها سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [1].

---

(١) سورة البقرة: الآية، ١١٧.

فلا مقدمات، ولا استنتاجات، ولا عمل جوارحي، ولا مشقة وعناء بل هو قضاء، وأمر بالكون، والوجود.

وفي آية أخرى نرى القرآن الكريم يصرح بأنه تعالى لا يصيبه تعب ولا مشقة في ذلك حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[(١)].

وقد ردت الآية الكريمة بذلك على اليهود حيث قالوا: بأن الله استراح من العمل يوم السبت، فلذلك لا نعمل فيه شيئاً.

وعلى العكس من ذلك نرى الإنسان عندما يقوم بعملٍ لابد له لإيجاده وتحقيقه من مقدمات فكرية وجوارحية واستنتاجات يعتمد عليها لتثبيت ما يريد القيام به، وهذا هو الذي يشكل نقطة الفرق بين العملين، وهو الذي يوجب انفراد الله سبحانه بهذه القدرة والطاقة الجبارة.

يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبة له يبرهن فيها على توحيد الله وصفاته المختصة به: (ابتدع ما خلق بلا مثال ولا تعب، وكل صانع شيء فمن شيءٍ صنع. والله لا من شيء صنع ما خلق)[(٢)].

فقرة جاءت في خطبة له (عليه السلام) مشهورة، وقد تضمنت بنوداً ثلاثة:

الأول - قوله: ابتدع ما خلق بلا مثال، ولا تعب.

الثاني - قوله: وكل صانع شيء فمن شيء صنع.

الثالث - قوله: والله لا من شيء صنع ما خلق.

مع البند الأول: (ابتدع ما خلق بلا مثال ولا تعب).

وهذه صفات لا يختص بها الإنسان فإن أعماله تعتمد على إعمال فكرٍ، وتشغيل جوارحه البدنية، ويصيبه التعب في عمله لأن طاقات الإنسان محدودة فإذا وصلت إلى حدٍ محدود فإن الإعياء والإجهاد يصيب الأعضاء ولربما يقعدها عن العمل، بل،

---

(١) سورة ق: الآية، ٣٨.

(٢) فقرة من خطبة له (عليه السلام) جاءت في جوامع التوحيد. لاحظ للخطبة: الشيخ الكليني: الكافي/ ١، ١٣٥.

ولربما أورثها الكلل والملل.

أما الله سبحانه فقد صرح سبحانه بأنه لا يمسه فيما يصنعه لغوب وتعب، وجهد، ومشقة كما صرحت بذلك الآية المتقدمة عندما قال سبحانه، (وما مسنا من لغوب) واللغوب كما بيناه فيما سبق عن اللغويين هو التعب والمشقة.

ثم إن الإنسان يعتمد فيما يصنعه على قاعدة يرجع إليها، وهذا دليل عجزه، ولكن الله لا يحتاج إلى مثالٍ يسير على وفقه وضوئه، ومخططه كما يتضح ذلك من البند الثاني.

ومع البند الثاني: (وكل صانع شيء فمن شيء صنع).

ولابد لكل صانع من مواد أولية يلزمه تحضيرها ليصنع منها ذلك الشيء وإلاّ فكيف يصنع هل هو رسم في المخيلة أم تجسيد في الخارج؟.

وعلى الثاني: فلابد من المواد الأولية.

وعلى الأول: فإما أن يصنع لنفسه مثالاً فيصنع مثله، أو يتصور شيئاً فيلهم تصويره، ورسمه.

فإن احتاج إلى مثال يقوم رسمه عليه فهذا دليل احتياجه إلى ذلك الشيء الذي يعتمد عليه، ويكون له قاعدة أساس يبني عمله عليه.

ولو لم يحتج إلى مثال بل كل ما عنده رسم في الفكر، وتثبيت عليه.

فهذا، وإن لم يعتمد على ما في الخارج، ولكنه يعتمد على العناية الفكرية وإعمال صور ذهنية للشيء الذي يريد صنعه فعاد الأمر إلى الاستناد إلى شيء ليصنع مثله.

مضافاً إلى أن ذلك يحتاج إلى الجسمانية، والتجسيد، وكل ذلك محال على الله جلت عظمته، بل هو كما قال عنه أمير المؤمنين (عليه السلام) في:

البند الثالث: (والله لا من شيء صنع ما خلق).

إذ القول باحتياجه إلى شيء إذا أراد أن يخلق فإن ذلك مستلزم للقول بافتقاره إلى غيره، وهو محال عليه... بل سبحانه يخلق ما يخلق، ويبتدع ما يبتدع بدون تعب، ولا مشقة، ولا مثال، ولا مقدمات، ولا تركيز على استنتاجات يستوحي منها أعماله،

فإن كل ذلك يستوجب مسبوقية غيره عليه، وهو محال لأنه:

كان، ولم يكن قبله شيء وسيبقى، وليس بعده شيء.

ومرة أخرى: نعيد ما قاله أمير المؤمنين (عليه السلام) عنه فيما سبق أن ذكرناه.

إنما يقول لما أراد كونه: كن فيكون.

ولكن كيف يقول ذلك؟.

ويأتي الجواب منه (عليه السلام):

لا بصوت يقرع، ولا بنداء ليسمع.

وإذا أنتفى هذان العاملان فإن النتيجة هي: (إنما كلامه سبحانه فعله).

المقطع الثامن:

١ـ فَيا مَنْ تَوحَّد بالعزِّ والبَقاءِ.

٢ ـ وقهر عبادَهُ بالموتِ والفناءِ.

٣ ـ صَلِّ على محمدٍ وآله الأتقياءِ.

٤ ـ واسمع نِدائي.

٥ ـ واستجِبْ دُعائي.

٦ ـ وحَقِّق بِفَضْلِكَ أملي ورَجائي.

٧ ـ يا خَير من دُعِيَ لكشفِ الضُّرِ.

٨ ـ والمأمولِ لِكُلِّ عُسرٍ ويسرٍ.

٩ ـ بِكَ أنزلتُ حاجتي.

١٠ ـ فلا تَرُدَّني من سَني مواهِبك خائباً.

١١ ـ يا كريمُ يا كريمُ يا كريمُ.

١٢ ـ بِرحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ.

١٣ ـ وصَلّى اللهُ على خيرِ خَلْقِه محمدٍ وآله أجمعينَ.

وها هو الدعاء يشرف على نهاية مسيرته، وقبل أن يودع الداعي جلسته الصباحية نراه يأخذ بيد الداعي ليقدم الجولة الأخيرة. يناديه، ويتوسل إليه بأضخم صفتين له سبحانه، ثم ليختم دعاءه بالصلاة على النبي بعد أن افتتح الدعاء بها في قوله: (صلِّ اللهم على الدليل في الليل الأليل).

فإن الله يستجيب الخاتمة، والنهاية ويعيد على لطفه أن يرد عبده فيما طلبه منه بين هاتين الحلقتين الصلاة في الابتداء، والانتهاء كما سبق أن بينا ذلك، وسنوضحه فيما

سيأتي «إن شاء الله».

١ـ (فَيا مَنْ تَوحَّد بالعزِّ والبَقاءِ).

٢ـ (وقهر عبادَهُ بالموتِ والفناءِ).

توحّد: أي تفرد، وتوحد الرجل برأيه تفرد به، وتوحد الله بالربوبية تفرد بها.

وأما العز: فهو العظمة والقدرة، والامتناع، والغلبة، ويقابله الذل.

والبقاء: هو عدم النفاد كما قال سبحانه: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ﴾[1].

أي لا ينفد، ولا ينتهي.

أما القهر: فهو الغلبة، وتقول أخذتهم قهراً أي من غير رضاهم والقهار من صفاته جلت عظمته.

والعباد: جمع عبد، وأكثر ما يطلق على المملوك.

وبالنسبة إلى الله سبحانه يطلق على الإنسان حراً كان، أو مملوكاً.

وأصل العبودية هي الطاعة، والتعظيم، والخشوع، والذل.

ويراد من هذه الكلمة هنا كل مخلوقٍ له سبحانه على نحو العموم.

أما الموت: فهو نهاية المخلوق بمفارقة روحه لبدنه.

والفناء: هو العدم بعد الوجود.

ويصرخ الداعي ينادي ربه بأعظم صفات رهيبة له. (فيا من توحد بالعز).

توحد بالغلبة والمنعة، والقدرة، والشدة، وتوحده بهذه الطاقة الجبارة، وهذه العظمة ليس شيئاً مكتسباً، بل هو شيء نابع من ذاته المقدسة من دون مقدمات، وعطاء، وإفاضة من الآخرين.

والإنسان قد يوصف بهذه الصفات فيقال: فلان شديد، وقوي ومنيع، ولكن

---

(١) سورة النحل: الآية، ٩٦.

بالفرق بين الوصفين.

فعزة الله ـ كما قلنا ـ غير مكتسبة من أحد، بل هي عين ذاته.

أما عزة الإنسان: فهي مكتسبة من غيره لأنه ممكن، ومخلوق، وضعيف وعاجز في نفسه، وكل ما عنده فهو من الله خلقه، وزوده بهذه الطاقات فكان ذلك دليل ذلته، واحتياجه.

وقد أخبر سبحانه عن عزته في آيات كثيرة، ولكنه حصر العزة به في الآيات التالية:

حيث قال: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (١).

وفي آية أخرى قال: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (٢).

وفي ثالثة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ (٣).

وكما توحد بالعز، والعظمة كذلك توحد بالبقاء.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٤).

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، وتتجسد رهبة الموقف من خلال هذا المقطع من هذه الآية الكريمة، إنها تصور لنا ذلك اليوم الذي تنتهي فيه الحياة ويهدأ فيه الضجيج، وإذا بكل من على هذه الأرض يلفه الموت بردائه ويخيم السكون ويعود الزمن إلى الوراء ليردد ما قاله أمير المؤمنين (عليه السلام) يوم وقف في مسجد الكوفة يتحدى الدنيا بخطبته المشهورة التي قال فيها: (وإن لكم في القرون السالفة لعبرة أين العمالقة، وأبناء العمالقة أين الفراعنة، وأبناء الفراعنة.

---

(١) سورة النساء: الآية، ١٣٩.

(٢) سورة يونس: الآية، ٦٥.

(٣) سورة فاطر: الآية، ١٠.

(٤) سورة الرحمن: الآيتان، ٢٦ و ٢٧.

أين أصحاب مدائن الرس الذي قتلوا النبيّين، وأطفأوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين.

وأين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا الألوف، وعسكروا العساكر، ومدنوا المدائن؟) (١).

ولا يقتصر الأمر على الاستفهام عن مصير الفراعنة والعمالقة بل هؤلاء رمز للقوة الجبارة التي جاءت فسكنت هذه الأرض متحدية كل القوى بما فيها قوة السماء، وتبقى أين تدور على شفتي الزمن تتجاوب بها الدنيا في ذلك اليوم، ولا من مجيب.

وأخيراً يمزق هذا الصمت والسكون المطبق نداء السماء الرهيب ليعلن نهاية الدنيا ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ (٢).

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٣). نداء يتحدى الإنسان على مر العصور ليقول له: لك الفناء، والبقاء لله الواحد القهار.

٢- (وقهر عبادَهُ بالموتِ والفناءِ):

الحياة على هذه الأرض مهما طال عمر الإنسان محدودة بحدٍ، ولابد لها من نهاية، ولكل كائن حيٍّ يدب عليها أن يخضع لهذه الحقيقة، ويتجرع طعم الموت، ولو كان مراً. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ (٤). ولا مفر منه لصغير، أو كبير ذكرٍ، أو أنثى أسودٍ، أو أبيض.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ

---

(١) نهج البلاغة: ٢، ١٠٥، شرح محمد عبده، مطبعة الفكر - بيروت.

(٢) سورة الرحمن، الآية، ٢٧.

(٣) سورة القصص: ٨٨.

(٤) سورة آل عمران: الآية، ١٨٥.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [(١)].

والموت يعرفه كل أحد، ويقرُ به كل إنسان، وإن اختلفت آراء العلماء في حقيقته فما هو الموت؟.

فهل هو انقطاع النفس، وتوقف جهاز التنفس عن العمل؟.

أو أنه توقف الخلايا الموجودة في الجسم عن أداء وظائفها؟.

أو هو خروج الروح من البدن؟.

ولكن ما هي الروح؟.

إنها أيضاً حقيقة اختلفوا فيها، ولكن القرآن الكريم أوكَل أمرها إلى الله سبحانه فقال عز وجل:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [(٢)].

وليقل العلماء ما شاء لهم أن يقولوا عن حقيقة الموت.

إنه حقيقة سلّم بها الإنسان، ولم يختلف في حلوله وتحققه، وإن اختلفت في ما هو وكيف ومتى يكون.

إن الإنسان مهما جارت عليه الظروف، وقست عليه الأيام لا يرغب بالموت ويراه شبحاً مرعباً، وثقيلاً إلاّ في بعض حالات نادرة يقدم فيها على الانتحار ـ وإن قال بعضهم إن المنتحر قبيل إقدامه على عمليته يفقد علقه ـ ولذلك قال الإمام(عليه السلام) «وقهر عباده بالموت» وفي التعبير (يقهر) ما لا يخفى من عدم رضا الإنسان بذلك.

(يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): ولو أنّ أحداً يجد في البقاء سُلماً، أو إلى دفع الموت سبيلاً لكان ذلك سليمان بن داود الذي سُخّر له مُلكُ الجن، والإنس مع النبوة، وعظيم الزلفة فلما استوفى طعمته، واستكمل مدته. رمته قسي الفناء بنبال الموت،

---

(١) سورة الجمعة: الآية، ٨.

(٢) سورة الإسراء: الآية، ٨٥.

وأصبحت الديار منه خالية، والمساكن معطلة، وورثها قوم آخرون)[(١)].

سليمان بن داود الذي:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾[(٢)].

لقد سأل سليمان ربه أن يمنحه هذا الملك الضخم، ولنترك الحديث عن السبب الذي دعا سليمان أن يطلب منه مثل هذا الطلب فيريد شيئاً يختص به، ولا يزود به غيره مع أنه نبي، وهو بعيد عن الأمور الدنيوية، فلذلك أجوبته وقد تعرضت لها كتب التفسير، بل نحن ومجريات القصة لنصل إلى غايتنا من فرض الموت سيطرته على الإنسان.

وقد استجاب الله لنبيه دعاءه في قوله:

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾[(٣)].

وهذا أول مظهرٍ من مظاهر هذا الملك حيث جعل الله الريح مطيعة له تجري إلى حيث يشاء، وحيث يريد فكان يجلس على بساطه فتسير به إلى أطراف الدنيا بسرعة فائقة: ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾[(٤)].

ذلك مركبه، وهذا مظهر آخر من مظاهر الملك العظيم حيث سخر له الشياطين من الجن يعملون له ما يريد في البر من البناء، وغيره، وفي البحر يغوصون ليخرجوا له ما يريد من الجواهر، واللآلئ، وهناك قسم آخر من الشياطين سخرهم الله له مشدودين في السلاسل، والأغلال الحديدية إذا تمردوا عليه وقيل يفعل ذلك بكفارهم، فإذا آمنوا أطلقهم، وكل هذا دليل على قدرته التي منحها الله له.

---

(١) نهج البلاغة: ٢، ١٠٧، شرح محمد عبده، مطبعة دار الفكر ـ بيروت.

(٢) سورة ص: الآية، ٣٥.

(٣) سورة ص: الآية، ٣٦.

(٤) سورة ص: الآيتان ٣٧ و ٣٨.

وفي سورة أخرى في القرآن الكريم تعرض آيات أخرى صوراً من عظمة سليمان من ملكه فتبين سرعة الريح التي كانت تمتثل أمره في السير إلى حيث يشاء وإذا به عين النحاس له، وما يعمل له الجن من الأشياء التي يريدها من محاريب، وتماثيل، وما يحتاج له جيشه من أدوات الطعام وغيرها (١).

كل هذا وغيره كان مسخراً له بأمر ربه.

ولكن هل تبقى الدنيا له؟.

لا بل هل بقيت لغيره؟.

وعندما قربت النهاية، وكان سليمان يتم بناء بيت المقدس، وقد بقي من بنائه سنة واحدة فأمر الجن أن يبنوا له قبة من قوارير فدخل فيها، وأخذ يراقب البنائين من الجن، كيف يعملون، ووقف، وهو متكئ على عصاه ينظر إليهم، وهم ينظرون إليه، ولا يصلون إليه، وإذا برجلٍ معه في القبة فقال له:

من أنت؟

فقال الرجل: أنا الذي لا أقبل الرشا ولا أهاب الملوك.

وعلم سليمان أن هذا الرجل ملك الموت.

وقبض روحه. وانتهى كل شيء.

ولكنه بقي على الحالة التي قبضت روحه فيها قائماً متكئاً على عصاه إلى سنة حتى تم بناء البيت، والجن يعملون، ويحسبونه حياً يراقبهم وبعث الله الأرضة، فأكلت عصاه فخر إلى الأرض فعلمت الجن أنه مات من قبل عام، ولو علموا من قبل ذلك الوقت لما مكثوا يتحملون المشاق، وهم يعملون في البناء.

وقد حكى القرآن هذه الخاتمة من قوله تعالى:

---

(١) سورة سبأ: الآيات، ١١ ـ ١٣.

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ[١] فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾[٢].

وأسدل الموت الستار على هذا الملك العظيم، وطوى بشراعه تلك القدرة الجبارة، والملك الواسع العريض.

وجاء بعد ذلك ليؤبن الفقيد بعبارات لتكون درساً للأجيال من بعده وأبّنه فنصب على قبره لوحة قال فيها: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾[٣].

ووضع بجنبها ثانية نقش عليها:

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[٤].

ومرت قرون وتلاحقت سنون، وجاء أمير المؤمنين ليضم إلى اللوحتين ثالثة كتب عليها: (ولو أن أحداً يجد إلى البقاء سلماً أو إلى دفع الموت سبيلاً لكان ذلك سليمان بن داود)[٥].

وبقيت هذه الألواح تقارع الزمن وتقول للإنسان:

إن الموت طريق لابد أن يسلكه كل أحدٍ في هذه الحياة.

(فسبحان من توحد بالعز والبقاء).

(وقهر عباده بالموت، والفناء).

---

(١) منسأته : وهي عصاه.

(٢) سورة سبأ: الآية، ١٤.

(٣) سورة آل عمران: الآية، ١٨٥.

(٤) سورة النساء: الآية، ٧٨.

(٥) نهج البلاغة: ٢، ١٠٦.

٣- (صَلِّ على محمد وآله الأتقياء).

لقد سبق لنا في أول الدعاء أن بينا من آداب الدعاء تقديم الداعي الصلاة على محمدٍ وآله أمام طلبته ليضمن بذلك الإجابة.

وقد بينا أنه من البعيد أن يستجيب الله سبحانه بعض الدعاء، وهو فيما يتعلق بالصلاة على محمدٍ ويرد البعض الآخر، وهو طلب الداعي المشروع في نفسه، وقد صدر من إنسان جاء إلى ربه تائباً متوسلاً يطلب من فضله.

وقد ذكر لنا الإمام الصادق طريقة أخرى لضمان إجابة الدعاء قال عنها:

(من كانت له إلى الله عز وجل حاجة فليبدأ بالصلاة على محمد وآله ثم يسأل حاجته، ثم يختم بالصلاة على محمد وآل محمد فإن الله عز وجل أكرم من أن يقبل الطرفين ـ الصلاة على محمد، في المبتدأ، وفي الختام ـ ويدع الوسط، وهو طلب الداعي ـ إذ كانت الصلاة على محمد لا تحجب عنه) (١).

من هذا الحديث والطريقة التي عرضها لضمان الإجابة نقول:

قد يكون تكرار الدعاء للصلاة على محمد في آخر الدعاء بعد أن افتتح بها الدعاء في قوله أولاً (صلِّ اللهم على الدليل إليك في الليل الأليل، والماسك من أسبابك بحبل الشرف الأطول ـ إلى قوله ـ وعلى آله الأخيار... الخ، لأجل هذه الغاية، وهي التي بيّنها الإمام الصادق (عليه السلام) في هذا الحديث من جعل الداعي طلبه وسط صلاتين على النبي وآله معللاً عدم الرد: «بأن الله عز وجل أكرم من أن يقبل الطرفين، ويدع الوسط».

والإمام الصادق (عليه السلام) عندما ينقل شيئاً، أو يبين حكماً فإنما يأخذه عن أبيه عن أجداده عن أمير المؤمنين حيث ينقله أمير المؤمنين عن النبي عن الوحي عن الله (٢).

(وآله الأتقياء).

وقد وصف الدعاء آل النبي (صلى الله عليه وآله) بأنهم (الأتقياء).

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ باب الصلاة على محمد وآل محمد، ٢، ٤٩٤..

(٢) تعرضنا لهذا الموضوع بإسهاب في مقدمة كتابنا (الزواج في القرآن والسنة).

فما المراد بهذه الصفة؟.

الأتقياء: جمع تقي والتقي هو المتقي من كل محذور.

والتقوى: هي اسم من الإتقاء، وهي في اللغة بمعنى إيجاد الوقاية من المحذورات.

وعند **أهل المعرفة**: التقوى هي الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وجاء في مجمع البيان (روي عن النبي(ﷺ) أنه قال: جماع التقوى في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ (١).

وقيل المتقي الذي أتقى ما حرم عليه وفعل ما أوجب عليه، وقيل: هو الذي يتقي بصالح أعماله عذاب الله، وسأل عمر بن الخطاب كعب الأحبار عن التقوى فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك. فقال نعم. قال: فما عملت فيه؟. قال: حذرت، وشمرت. فقال كعب: ذلك التقوى.

يقول صاحب المجمع ونظمه بعض الناس فقال:

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى
واضع كماشٍ فوق أرض الشوك يحرز ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

وروي عن النبي(ﷺ) أنه قال: إنما سمي المتقون لتركهم ما لا بأس به حذراً فيما به بأس) (٢).

ونقل عن أهل البيت (عليهم السلام) في تعريفهم للتقوى. (أن لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك) (٣).

---

(١) سورة النحل: الآية، ٩٠.

(٢) مجمع البيان: ١/ ٣٧ في تفسيره للآية ٢ من سورة البقرة.

(٣) المحقق الأردبيلي: زبدة البيان/ ٨، تحقيق وتعليق: محمد باقر البهبودي، الناشر: المكتبة الرضوية لإحياء الآثار الجعفرية، طهران.

٤ - (واسمع نِدائي):

يُقال استمعت له أي أصغيت له.

واسمع فعل أمر بطلب السماع، ولكن هذا الطلب حيث كان من الداني إلى العالي فهو سؤال، وفي السؤال نوع، خضوع.

ويقولون، إن المراد من هذا السؤال هو قبول نداء الداعي، أو إجابة النداء، وإلاّ فإن الطلب من الله السماع لا معنى له لأن الله سبحانه سميع يسمع السر، وأخفى من السر فما معنى هذا السؤال منه وهو متحقق؟.

٥ - (واستجِبْ دُعائي).

والسؤال من الله بأن يسمع صوت الداعي إنما هو مقدمة لاستجابة ما طلبه منه ودعا به فيما تقدم في هذا الدعاء من الأمور التي أرادها وطلب قبول النداء وإجابة الدعاء وبقية الفقرات الآتية من الله سبحانه ليس تجرياً عليه، أو هو نوع من أنواع خلاف الأدب، بل على العكس من ذلك إنما هو من صغريات كمال الأدب فإن الله سبحانه هو الذي أمر عباده بالدعاء، ووعد بالإجابة في كتابه الكريم.

بل جاء في الأخبار بأن الله يحب عبده الملحاح في مسألته، وقد تطرق بعضها إلى أن الله يؤخر إجابة طلب الداعي في بعض الموارد لأنه يحب أن يسمع صوته، وهو يناجيه فقد جاء عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: «إن العبد ليدعو فيقول الله عز وجل للملكين: قد استجبت له ولكن أحبسوه بحاجته فإني أحب أن أسمع صوته»[1].

وفي خبر آخر عنه (عليه السلام) أيضاً: (أن العبد الولي لله يدعو الله عز وجل في الأمر ينوبه فيقول: للملك الموكل به إقضي لعبدي حاجته، ولا تعجلها فإني أشتهي أن اسمع نداءه، وصوته)[2].

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ باب من أبطأت عليه الإجابة من أبواب الدعاء، ٢، ٤٨٩ - ٤٩٠، حديث٣.

(٢) الشيخ الكليني: الكافي/ باب من أبطأت عليه الإجابة من أبواب الدعاء، ٢، ٤٨٩ - ٤٩٠، حديث٣.

لطف، وعطف، وحنو من الله نحو العبد الولي يريد أن يسمع صوته، ويريد أن يراه، وهو يتقرب إليه بعد أن قضى له حاجته، وأعطاه ما يريد.

٦ـ (وحَقّق بِفَضْلِكَ أملي ورَجائي):

حقق الشيء: أوجبه، وأثبته، وأكده.

والفضل من الشيء: الزيادة، والتفضل الزيادة، والسعة.

وأفضل عليه: تطول، وأحسن، وأناله من فضله.

هذا ما يقوله اللغويون عن هذه المادة.

وأما الفضل من الله سبحانه على عبده فهو كرمه، ولطفه، ونعمته عليه من دون استحقاق من العبد لذلك.

أما الأمل، والرجاء فهما شيءٌ واحد معروف لا يحتاج إلى زيادة توضيح.

ولكن بعض علمائنا الماضين ـ قدس الله أسرارهم ـ فرق بينهما ههنا، وفي خصوص هذه الفقرة بأن المراد من الأمل ما يعود من طلبات الداعي فيما يتعلق بأموره الدنيوية من النعمة أعم من الرزق والولد، والجاه، والصحة، والعافية، وغيرها.

وأما الرجاء فهو ما يتعلق به طلب الداعي من الأمور الأخروية من المغفرة، والثواب، والجنة، وعتقه من النار، وما يعود إلى ذلك.

وهكذا نرى الدعاء في هذه الفقرة يهيب بالداعي أن يسأل من ربه أن يثبت له ويحقق مقاصده، وطلباتها كلها الدنيوية، والأخروية.

ولم يكن سؤال الداعي ذلك بكثير على الله سبحانه وذلك:

لأنه لم يدخل مع الله في هذا النوع من السؤال بناءاً على الحساب، والاستحقاق بل على الاعتماد على فضل الله، ولطفه، ونعمه المتواصلة يريد منه أن يحقق آماله في هذه الدنيا، ولا يخيبه في طلباته الأخروية.

لا باستحقاق منه على ربه، بل تفضلاً من الله عليه.من منطلق الفضل، والرحمة. ومن منطلق النعمة، والإحسان.

من هذا المنطلق، وذاك يقصد الداعي رحاب الله فيخطو خطوات واسعة نحو منهله العذب ليروي منه ظمأه.

ومن هذا الأفق المشرق يتجه نحو ربه، وهو يناديه مستغيثاً:

٧- (يا خَير من دُعِيَ لكشفِ الضُّرِ):

٨ - (والمأمولِ لِكُلِّ عُسرٍ ويسرٍ):

يا خير، وأحسن من دعاه داع لدفع الضر، وتغيير الحال إلى الأحسن ويا من هو المأمول والمرجو لدفع كل عسرٍ، وجلب كل يسرٍ.

ويواجه الداعي ربه بعد هذا النداء، وهذه الاستغاثات بالحقيقة يضعها بين يديه ليقول له:

٩- (بِكَ أنزَلتُ حاجَتِي):

لا بغيرك، وببابك نزلت، لا بفناء غيرك، وقد خاب من قصد غيرك.

وإذا كان هذا حالي، وهذه استغاثتي، وتضرعي، وخشوعي، ووقوفي ذليلاً بين يديك.

١٠-(فلا تَرُدّني من سَني مواهِبك خائباً):

وسنّي المواهب هي الألطاف الجليلة والهبات الكريمة فلا تحرمينها يا رب وتردني منها خائباً، وعن بابك مطروداً.

١١- (يا كريمُ يا كريمُ يا كريمُ):

وكرر الداعي نداءه، واستغاثته، ولم يكتف بالنداء بهذا الاسم المحبب إليه

سبحانه مرة واحدة لعل الله يقبل من عبده هذا التضرع، وهذا الخشوع، وهو يناديه بأجل أسمائه المحببة إليه.

وأخيراً: وبلهفة وضراعة يسلم الداعي أمره إلى ربه، ولكن سؤالاً يضل حائراً بين شفتيه يصعد به إلى ربه ليقول له:

أي رب وكيف تخيب من قصدك وتعلق:

١٢- (بِرحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ):

١٣- (وصلّى اللهُ على خيرِ خَلْقِهِ محمدٍ وآله أجمعينَ):

وهكذا يعود الإمام ليختم الدعاء مرة أخرى في الصلاة على محمد وآل محمد ليخط للداعي منهجاً في الالتزام بالافتتاح في الدعاء، والأعمال بالصلاة على محمد وآل محمد والاختتام بالصلاة أيضاً لضمان الإجابة، ولتعويد النفس على الإكثار من الصلاة على محمد وآل محمد ففي ذلك فوائد كثيرة، فقد جاء عن رسول الله(ﷺ): (من صلى عليّ صلّى الله عليه، وملائكته، ومن شاء فليقلّ، ومن شاء فليكثر) (١).

وفي حديث آخر عنه أيضاً: (الصلاة عليّ، وعلى أهل بيتي تذهب بالنفاق) (٢).

وفي حديث ثالث عن الإمام الصادق (عليه السلام): (من قال: يا رب صلِّ على محمد وآل محمد مائة مرة قضيت له مائة حاجة: ثلاثون للدنيا، والباقي للآخرة) (٣).

وهكذا تتوالى الأحاديث تبين فضل الصلاة على محمد، وفوائد المواظبة عليها.

ومن هذا المنطلق ولأجل كسب هذه الفوائد العظيمة نرى أئمة أهل البيت(عليهم السلام) يكثرون منها في أدعيتهم، وأحاديثهم.

جعلنا الله من المتمسكين بمحمدٍ وآل محمد، ولا حرمنا الله التوفيق للاكثار من الصلاة عليهم إنه سميع مجيب.

---

(١) لاحظ هذه الأحاديث، المصدر السابق: باب الصلاة على النبي وأهل بيته، ٢، ٤٩٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

المقطع التاسع:

ثم تسجد وتقول:

١ ـ إلهي قلبي محجوبٌ.

٢ ـ ونَفْسِي معيوبٌ.

٣ ـ وعَقلي مغلوبٌ.

٤ ـ وهوائي غالِبٌ.

٥ ـ وطاعتي قليلٌ.

٦ ـ ومعصيتي كثيرٌ.

٧ ـ ولساني مقرٌّ بالذنوبِ.

٨ ـ فكيفَ حِيلتي يا ستّار العيوبِ.

٩ ـ ويا عَلاّم الغُيوبِ.

١٠ ـ ويا كاشِفَ الكُروبِ.

١١ ـ اغفِر ذُنُوبي كُلَّها.

١٢ ـ بِحُرمة محمدٍ وآله محمدٍ.

١٣ ـ يا غَفّارُ يا غفّارُ يا غفّارُ.

١٤ ـ بِرحمَتِك يا أرحمَ الراحِمينَ.

هذا المقطع من الدعاء وقع الخلاف فيه بين مؤلفي كتب الأدعية حيث ألحقته بعض تلك الكتب بينما لم تذكره كتب أخرى بل اكتفت بذكر الدعاء نفسه من دون إلحاق هذا المقطع المختص بحال السجود.

ولكنا نسير مع القائلين بوجوده، وإلحاقه مراعاة للتناسق الدعائي وللمعروف من حال أهل البيت (عليهم السلام) من مواظبتهم على السجدات الطويلة، ولتعلقهم الشديد بأن يكون خضوعهم، وخشوعهم مقروناً بهذا النوع من التذلل، والانكسار إلى الله تعالى.

وقد جاء عن الإمام علي بن الحسين (عليه السلام)، «أنه ذهب إلى الصحراء فتبعه مولاه فوجده ساجداً على حجارة خشنة فأحصى له ألف مرة لا إله إلاّ الله حقاً حقاً، لا إله إلاّ الله تعبداً ورقاً، لا إله إلاّ الله إيماناً، وتصديقاً ثم رفع رأسه»[1].

وعن عبد الله بن الفضل عن أبيه (أنه دخل على أبي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) فإذا بغلام أسود بيده مقص يأخذ اللحم من جبينه، وعرنين أنفه من كثرة سجوده)[2].

ومن يقرأ سيرة كل إمام منهم يجد الكتب تتحدث عنهم، بهذا وأمثاله.

على أنهم حثوا الناس على الإكثار من السجود وإطالته، وقراءة الأدعية والأذكار المأثورة في تلك الحالة التي عبروا عنها: (بأن أقرب ما يكون العبد إلى الله، وهو ساجد)[3].

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) «أطيلوا السجود فما من عملٍ أشد على إبليس من أن يرى ابن آدم ساجداً لأنه أمر بالسجود فعصى، وهذا أمر بالسجود فأطاع، ونجا»[4].

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) «وإذا أردت أن يحشرك الله معي فأطل السجود بين يدي الله الواحد القهار»[5].

وجاء قوم إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) «فقالوا له: يا رسول الله: أضمن لنا على الله ـ ربك ـ الجنة. فقال: على أن تعينوني بطول السجود. قالوا نعم، يا رسول فضمن لهم الجنة»[6].

وفي حديث آخر، «أن رجلاً جاء إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله كثرت

(١ـ٢) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٨٥، ١٦٦.

(٣ـ٦) المصدر السابق: بحار الأنوار/ ٨٥، الصفحات ١٦١ ـ ١٦٤.

ذنوبي، وضعف عملي فقال رسول الله (ﷺ): أكثر السجود فإنه يحط الذنب كما تحط الريح ورق الشجر»[١].

وسئل أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) (لمِ اتخذ الله عز وجل إبراهيم خليلاً؟. قال: لكثرة سجوده على الأرض)[٢].

وقد نقل الإمام الصادق عن جده أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (إني لأكره للرجل أن تكون جبهته ليس فيها شيء من أثر السجود وبسط راحته[٣]. إنه يستحب للمصلي أن يكون ببعض مساجده شيء من أثر السجود فإنه لا يأمن أن يموت في موضع لا يعرف يحضره المسلم فلا يدري على ما يدفنه)[٤].

إذاً، فالإمام يريد من الإنسان أن يواظب على السجود ليكون ذلك موجباً لإبقاء علامة في أحد المواضع من مساجده السبعة.

وهل نستبعد بعد هذا، وهو شيء قليل نقلناه عما ورد في فضل السجود، وإطالته أن يكون الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ختم دعاءه بهذا السجود ليناجي ربه بهذه الفقرات من التوسلات، والاستغاثات لرب العالمين؟

لقد شهد الليل، والمحاريب لابن أبي طالب السجدات الطويلة، والدموع الغزيرة يذرفها من خشية الله، وخوفاً منه، وخضوعاً له.

١- (إلهي قلبي محجوبٌ):

ويأتي هذا الحجاب من كثرة الذنوب فإنها إن تكاثرت غطت القلب، وكانت عليه طبقة كثيفة، ولذلك يحرم مثل هذا القلب من نور الهداية.

وقد جاء عن الامام الباقر (عليه السلام) قوله: (ما من عبدٍ إلاّ وفي قلبه نكتة بيضاء فإذا أذنب ذنباً خرج في تلك النكتة نكتة سوداء فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى

(١-٢) بحار الأنوار/ ٨٥، الصفحات ١٦١ - ١٦٤

(٣) بسط راحته أي أنه يكره أن تكون المساجد للرجل كوسط يد الإنسان ملساء لا شيء فيها.

(٤) لاحظ العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٨٥، الصفحات ١٦١ - ١٦٤.

في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول الله عز وجل ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١).

وعن الإمام الباقر (عليه السلام) «ما من شيء أفسد للقلب من الخطيئة إن القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه، فيصر أسفله أعلاه وأعلاه أسفله» (٢).

وما الدواء إذاً لرفع هذا الحجاب، وإعادة القلب إلى صفائه، وبياضه؟.

تجيبنا عن ذلك الأحاديث، التي رويت عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) (إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب، ونزع واستغفر صقل قلبه منه) (٣).

وفي حديث آخر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: «تذاكروا وتلاقوا وتحدثوا فإن الحديث جلاء للقلوب. إن القلوب لترين كما يرين السيف (٤) وجلاؤه الحديث» (٥).

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (ويصدأ القلب فإذا ذكرته بآلاء الله انجلى عنه) (٦).

٢ـ (ونَفسِي معيوبٌ).

وفي بعض النسخ (ونفسي معيوبة)، ولعل هذا أنسب من تذكير معيوب لأن النفس مؤنثة ولا وجه لوصفها بالمذكر ليقال (ونفسي معيوب) والمراد بهذه الفقرة

(١ـ٢) لاحظ الشيخ الطبرسي: مجمع البيان. والسيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن/ في تفسيرهما للآية ١٤ من سورة المطففين.

(٣) محمدي الريشهري: ميزان الحكمة/ ٣، ٣٦١.

(٤) ران هواه على قلبه غلب عليه وفي القرآن ﴿ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي غلب عليهم حب المعاصي بالانهماك فيها حتى صار صدأ ودنساً على قلوبهم فعمى عليهم معرفة الحق من الباطل، أقرب الموارد: مادة (رين).

(٥) مصادر الحديث السابقة والموضع نفسه.

(٦) المصدر المتقدم.

نفس المراد من الفقرة السابقة من قوله (عليه السلام) (قلبي محجوب).

وعيوب النفس تأتي من العجب الذي يلحق الإنسان من أعماله فيتخيلها شيئاً لها أهميتها، وقد جاء بها مناً منه باتيانها، وهكذا الذنوب التي تعيب النفس وتحرمها الوسام الذي يقلد الله به بعدما تطوى هذه الحياة.

فيخاطبها ربها فيقول:

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[1].

النفس المطمئنة بربها، وبما قسمه الله لها، والثابتة على التمسك بما أمر به والانتهاء عما نهى عنه فهي نفس بيضاء صقيلة نقية من كل دنس ولا عيب فيها.

هذه النفس يستقبلها ربها راضية مرضية ليدخلها جنته جزاء ثباتها وتقواها.

٣ـ (وعَقلي مغلوبٌ).

٤ـ (وهوائي غالِبٌ).

هكذا وردت العبارة في النسخ (هوائي) وأحسب أن الصحيح هو (وهواي) إذ لا معنى للتعبير عن هوى النفس بالهواء فالهواء شيء، والهوى أمر آخر، وبين هاتين الفقرتين ارتباط حيث يصور لنا الدعاء حالة الداعي، وهو متحير بين هوى نفسه، وبين مفاهيم عقله فهو صراع مستمر... ذلك لأن النفس أمارة بالسوء، وتهفو إلى الملذات، وتضغط على الإنسان أن يقدم لها الشيء الكثير فإن غلب الهوى حرم الإنسان من لقاء ربه، وأصبح عقله مغلوباً، ومن حصل له شرف امتثال أوامره وتجنب معاصيه فقد تغلب عقله على هواه.

٥ـ (وطاعتي قليلٌ).

٦ـ (ومعصيتي كثيرٌ).

وهكذا نرى الدعاء يهيب بالداعي أن يعترف، وهو في نهاية مسيرته الدعائية

---

(١) سورة الفجر: الآيات، ٢٧ ـ ٣٠.

أمام ربه بتقصيره، وعدم القيام بما يفرضه الواجب عليه من إطاعة الله، وعدم معصيته فللاعتراف أمام الله أهميته في جلب عطف الله، وكسب رضاه.

ولذلك نرى الفقرة الآتية تؤكد على هذا المعنى عندما تقول:

٧ـ (ولساني مقرٌ بالذنوبِ).

يقول الامام الباقر (عليه السلام): (والله ما ينجو من الذنب إلاّ من أقر به) (١).

وعنه (صلوات الله عليه) أيضاً: (لا والله ما أراد الله تعالى من الناس إلاّ خصلتين أن يقروا له بالنعم، فيزيدهم، وبالذنوب، فيغفرها لهم) (٢).

ويقول الإمام الصادق (عليه السلام): (إنه والله ما خرج عبد من ذنب بإصرار، وما خرج عبد من ذنب بإقرار) (٣).

وعن منصور بن عمار أنه قال: (حججت حجة فنزلت سكة من سكك الكوفة فخرجت في ليلة مظلمة فإذا بصارخ يصرخ في جوف الليل، وهو يقول: إلهي وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي إياك مخالفتك، ولقد عصيتك إذ عصيتك وما أنا بذلك جاهل، ولكن خطيئة عرضت أعانني عليها شقائي وغرني سترك المرخى عليَّ وقد عصيتك بجهلي، وخالفتك بجهلي فالآن من عذابك من يستنقذني، وبحبل من اتصل إن أنت قطعت حبلك عني واشباباه واشباباه... فلما فرغ من قوله تلوت آية من كتاب الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ (٤). فسمعت حركة شديدة ثم لم أسمع بعدها حساً فمضيت. فلما كان من الغد رجعت في مدرجتي فإذا أنا بجنازة قد وضعت، وإذا عجوز كبيرة فسألتها عن أمر الميت، ولم تكن عرفتني فقالت: مرّ هنا رجل لا جزاه الله إلا جزاه بابني البارحة، وهو قائم يصلي فتلا آية من

(١ـ٢) الشيخ الكليني: الكافي/ ٢، ٤٢٦.

(٣) المصدر المتقدم: ٢، ٤٢٧.

(٤) سورة التحريم: الآية، ٦.

كتاب الله فلما سمعها ابني تفطرت مرارته فوقع ميتاً) [١]

وفي موضوع آخر، يقول منصور بن عمار: فقلت: أنا الذي قرأت الآيات، وأنا صرت سبباً لموته فاستأذنت العجوز في تغسيله فأجابتني لذلك، وبعدما جرّدته ثيابه رأيت مكتوباً بخط أخضر على صدره. «إن هذا العبد قد غسلناه بماء التوبة».

لقد أقر هذا الشاب بذنوبه، ومعاصيه أمام ربه، وكان جزاء ذلك أن قبل الله توبته، واختاره للقائه.

٨ - (فكيفَ حِيلتي؟).

وبعد هذا الإقرار شخص الداعي إلى ربه يسأله المخرج من هذا الطوق الذي ضربه حول نفسه، وهذا المأزق الذي وقع فيه.

إنه يهرع إليه بقلب محجوب، ونفس معيوبة، وبطاعة قليلة ومعصية كثيرة.

لقد أخذت هذه الأمور على الداعي مسالك التفكير وبقي حائراً لا يدري أين الطريق لذلك لم يجد أمامه إلاّ ربه يلجأ إليه.

إلهي أعوذ بعفوك من نقمتك.

أعوذ برضاك من سخطك.

وأعوذ بك منك.

يا ستار العيوب، ويا علام الغيوب، ويا كاشف الكروب.

نداءات متلاحقة، واستغاثات سريعة ضمنها الداعي صفات كريمة على الله.

فهو الذي يستر العيوب تكرماً منه على عبده لئلا يفضحه على رؤوس الأشهاد، ولعله يتوب، ويرجع إلى حضيرة الإيمان مرة أخرى.

---

(١) الشيخ الكليني: المصدر السابق/ ٢، ٤٩٦.

٩ـ (ويا عَلاّمَ الغُيوبِ).

وهو علام الغيوب: وهل بإمكان العبد أن يخفي على ربه شيئاً.

وهو يعلم غيب السماوات، والأرض، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد.

فهل تخفى عليه خافية؟.

وأخيراً:

١٠ـ (ويا كاشِفَ الكُروبِ).

لأن بيده كل شيء وبإمكانه أن يصنع كل شيء، وكم كربٍ كشفه عن العباد، والعبيد.

١١ـ (إغفِر ذُنُوبي كُلَّها).

وهذه خلاصة ما يطلبه الداعي ـ وهو ساجد ـ من ربه، وهو يردد منادياً ربه: بيا ستار العيوب، ويا علام الغيوب، ويا كاشف الكروب إنه يريد من ربه أن يسدل الستار على كل ذنبٍ وكل جرمٍ أجرمه.

وبذلك يرجع إلى القاعدة التي ترضي ضميره من خلقه إنساناً جديداً يعبد الله سبحانه بإطاعة كثيرة.

وقد شفع طلبه هذا بتعلقه بالحبل الممدود بينه، وبين الله سبحانه، وهو توسله:

١٢ـ (بحُرمة محمدٍ وآلِ محمدٍ).

وخوفاً من أن لا يلقى طلبه هذا استجابة من ربه أخذ يكرر هذا النداء قائلاً:

١٣ـ (يا غَفّارُ يا غفّارُ يا غفّارُ).

ولا أحسب أن الله،وهو الكريم اللطيف يرد عبداً سجد له خاضعاً، وهو يناديه، ويتوسل إليه بهذه النداءات المؤثرة.

وأخيراً، يوكل الدعاء الداعي إلى رحمة الله، ولطفه، وعطفه، ويختم دعاءه قائلاً:

١٤- (بِرحمَتِك يا أرحمَ الراحِمينَ).

ملحوظة:

ولابد لنا، ونحن نودع الدعاء، ونأتي على نهايته من تسجيل ما يلي:

نقول: إن هذا المقطع التاسع المختص بالسجود، وما فيه من الدعاء كما سبق أن قلنا اختلفت فيه النسخ فقد ذكرته بعض نسخ الدعاء، ولم تتعرض إليه بقية النسخ وقد جاء في بعض النسخ على غير ما ذكرناه هنا حيث ذكرت أنه هكذا (إلهي قلبي محجوب، وعقلي مغلوب، ونفسي معيوب، ولساني مقر بالذنوب، وأنت ستار العيوب فاغفر لي ذنوبي، يا غفار الذنوب، يا شديد العقاب، يا غفور، يا شكور، يا حليم اقضي حاجتي بحق الصادق رسولك الكريم وآله الطاهرين) [1].

ونحن، وإن ذكرناه وألقينا عليه الأضواء في شرح فقراته، ولكن ذلك من باب المسامحة في أدلة السنن ورجاء أن يكون هذا المقطع من الدعاء نفسه.

وإن كان الترجيح يقضي بأن نقف بجانب من لا يذكره لوجود هذه الفقرات فيه من قوله:

(إلهي قلبي محجوب، ونفسي معيوب، وعقلي مغلوب، وهوائي غالب).

فمن البعيد أن تصدر هذه الفقرات من مثل أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو المعصوم فكيف يمكن أن يعترف بأن عقله مغلوب إلاّ أن نقول:

إن هذه لغة الدعاء، ولغة المناجاة مع الله سبحانه لبيان أن هوى النفس قد يتغلب على الإنسان، ويكون ذلك موجباً لحصول الذنب، وإن كان ذلك الذنب بنظر أمير المؤمنين (عليه السلام) ذنباً باعتبار أنه (عليه السلام) كان يريد أن يجهد نفسه في ذات الله والتقرب إليه بأكثر مما كان، عليه وكان يرى نفسه دائماً بعد لم يصل إلى الهدف الذي كان يرجو الوصول إليه من الفناء في ذات الله سبحانه ولذلك كان يرى قلبه محجوباً

---

(١) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٨٧، ٣٥٣.

وهواه غالباً على ما يريده عقله إزاء الله تعالى الذي لا تحصى نعماؤه، ولا يتمكن الإنسان مهما عمّر وأوتي من البيان والقدرة أن يؤدي شكر نعمته وتفضله عليه، أو يؤدي بعض مراسيم عبادته وطاعته.

أليس هو القائل:

(الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصى نعماءه العادّون، ولا يؤدي حقه المجتهدون. الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن) [١].

أو نقول في توجيه صدور مثل هذه الفقرات أن ذلك صدر منه (عليه السلام) على سبيل توجيه الداعي وإعطاء صورة من حالاته عندما يتجه إلى الله، والداعي ليس بمعصوم يستبعد صدور مثل هذا التعبير منه ليقول لربه:

(إن هوى نفسي غلب على عقلي فأفقدني صوابي فارتكبت الذنب، وقد جئتك الآن ولساني مقر بالذنوب فكيف حيلتي يا ستار العيوب، ويا علام الغيوب، ويا كاشف الكروب. اغفر ذنوبي كلها بحرمة محمدٍ وآل محمد) [٢].

---

(١) نهج البلاغة: ١، ١٤، منشورات المكتبة الأهلية ـ بيروت.

(٢) يلاحظ لهذا الموضع بتوسع من حيث الإشكال والإجابة عليه كتابنا (أضواء على دعاء كميل) تحت عنوان (أدعية المعصومين واستغفارهم والإشكال على ذلك)، ٦٢ ـ ٦٩.

ختام المطاف

مولاي يا أمير المؤمنين:

وقبل أن أودع رحابك الطاهر أقول معتذراً:

إنه لشرف عظيم لي وأنا أوفق لإلقاء بعض الأضواء على شذرات من كلامك فيما سبق لي من (دعاء كميل) وفي هذا الدعاء، ولا أحسب أنني توصلت إلى عمق ما تحمله هذه الفقرات من معاني سامية تناجي بها ربك وتلقى بها دروساً قيّمة للأجيال بعدك، ومن يصل إلى مثل ذلك، وأنت أمير الكلام كما وأنت أمير المؤمنين.

قارئي الكريم:

أرجو أن نكون ـ ونحن نأتي على نهاية الدعاء ـ قد قضينا وقتاً ممتعاً للنفس بعد أن حلقنا في أجواء الله نسبحه ونقدسه وندعوه ونناجيه.

كما وأرجو أن تشاركني في التوجه إلى الله العلي القدير نتضرع إليه ليوفقنا لقراءة هذا الدعاء كل صباح ليستقبل كل واحدٍ منا ـ وهو يرتله ـ يوماً جديداً يبارك لنا فيه كل عمل نقوم به.

ولا أحسب أن الله، وهو الجواد الكريم يرد داعياً عرف منه خلوص النية، وقد لجأ إليه ولسانه يردد قائلاً:

يا خير من دعِي لكشف الضرِ والمأمول، لكل عسرٍ ويسر بك أنزلت حاجتي، فلا تردني من سني مواهبك خائباً، يا كريم يا كريم يا كَريم.

وبالختام: أشكر الله على ما أولاني من التوفيق للفراغ من هذا السفر الجليل راجياً منه تعالى أن يرعاني بلطفه، ويوفقني لمتابعة هذه المسيرة الدعائية بإلقاء الأضواء على دعاء جديد نستعين به للوصول إلى ساحته المقدسة ليشملنا بلطف عنايته.

إنه سميع الدعاء

النجف الأشرف

١/ رجب/ ١٤٠٩هـ

عزالدين السيد علي بحرالعلوم

مصادر الكتاب

١ـ القرآن الكريم:

٢ـ نهج البلاغة:

تحقيق: الشيخ محمد عبدة ، دار المعرفة ـ بيروت، دار الذخائر ـ قم المقدسة.

٣ـ الصحيفة السجادية:

* * *

حرف الألف

١ـ الأمالي:

محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف بـ (الصدوق) ـ المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف.

٢ـ أقرب الموارد:

سعيد الخوري الشرتوني ـ بيروت.

حرف الباء

٣ـ بحار الأنوار:

المولى شيخ الإسلام: محمد باقر المجلسي.

منشورات المكتبة الإسلامية ـ طهران، دار إحياء التراث العربي: بيروت ـ لبنان.

حرف التاء

٤ـ تاج العروس من جواهر القاموس:

الإمام محب الدين أبي الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٥ـ تاريخ إربل:

٦ـ تحف العقول:

الشيخ أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين شعبة الحراني ـ طبع إيران.

٧ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي:

الإمام الحافظ أبي العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ـ دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

٨ ـ التوحيد:

محمد بن علي بن الحسين ابن بابويه القمي المعروف بـ (الشيخ الصدوق) دار المعرفة ـ بيروت.

٩ـ التوحيد:

المفضل بن عمر الجعفي .

تعليق: كاظم المظفر ـ مؤسسة الوفاء، بيروت ـ لبنان.

حرف الدال

١٠ـ الدر المنثور:

جلال الدين السيوطي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.

محمد أمين دبجوشركاه.

حرف الذال

١١- الذريعة إلى تصانيف الشيعة:
الشيخ أغا بزرك الطهراني، مطبعة القضاء ـ النجف الأشرف.

حرف الراء

١٢- روح الدين الإسلامي:
الطبعة ١٣.

حرف الزاء

١٣- زبدة البيان:
المحقق الأردبيلي، تحقيق وتعليق: محمد باقر البهبودي، الناشر: المكتبة الرضوية لإحياء الآثار الجعفرية، طهران.

حرف السين

١٤- سفينة البحار:
الشيخ عباس القمي، منشورات مكتبة سنائي ـ طهران.

حرف الشين

١٥- شرح أصول الكافي:
المولى محمد صالح المازندراني، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.
١٦- شرح رسالة الحقوق:
تحقيق: شرح حسن السيد علي القبانجي ، الناشر: مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر.

١٧ـ شرح قصص الحكم:

محمد داوود قيصري رومي، الناشر: شركة انتشارات علمي وفرهنكي.

حرف الصاد

١٨ـ الصواعق المحرقة:

ابن حجر العسقلاني.

حرف العين

١٩ـ عدة الداعي:

أحمد ابن فهد الحلي، صححه وعلق عليه: أحمد الموحدي القمي، مكتبة الوجداني ـ قم المقدسة.

٢٠ـ العين:

الخليل بن أحمد الفراهيدي.

تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، الناشر: مؤسسة دار الهجرة.

حرف الفاء

٢١ـ الفردوس الأعلى:

الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء.

٢٢ـ الفايق في غريب الحديث:

جار الله الزمخشري، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

حرف الكاف

٢٣ـ الكافي:

أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

٢٤ـ كل شيء عن النجوم:

حرف اللام

٢٥ـ لسان العرب:

محمد بن جلال الدين بن منظور، دار لسان العرب ـ بيروت.

حرف الميم

٢٦ـ المحجة البيضاء:

محمد بن المرتضى المولى المحسن الكاشاني، مكتبة الصدق ـ طهران.

٢٧ـ مجمع البحرين:

الشيخ فخر الدين بن الشيخ محمد علي الطريحي، طبع إيران.

٢٨ـ مجمع البيان:

أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.

٢٩ـ مستدرك الوسائل:

الميرزا حسين النوري، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث (عليهم السلام)، بيروت ـ لبنان.

٣٠ـ مصباح المتهجد:

الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المعروف بـ (شيخ الطائفة) ـ مؤسسة فقه الشيعة، بيروت ـ لبنان.

٣١ـ مع الله في السماء:

٣٢ـ معاني الأخبار:

الشيخ الصدوق، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري.

٣٣ـ المغني والشرح الكبير:

عبد الله ابن قدامة، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان.

٣٤ـ المواقف في علم الكلام:

عبد الرحمن الايجي، الناشر: دار الجيل.

٣٥ـ مواهب الرحمن في تفسير القرآن:

السيد عبد الأعلى السبزواري.

٣٦ـ الموسوعة الطبية الحديثة:

مجموعة من الأطباء، مطابع سجل العرب ـ بيروت.

٣٧ـ ميزان الحكمة:

محمدي الريشهري.

٣٨ـ الميزان في تفسير القرآن:

السيد محمد حسين الطباطبائي، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

حرف النون

٣٩ـ النهاية في غريب الحديث:

محمد بن عبد الكريم المعروف بـ (ابن الأثير).

تحقيق: طاهر أحمد الراوي ومحمود محمد الطناحي، الناشر: مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر، قم ـ إيران. المطبعة الخيرية ـ مصر.

حرف الواو

٤٠ـ وسائل الشيعة:

الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، تحقيق وتصحيح وتذييل: الشيخ عبد الرحيم الرباني الشيرازي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.

حرف الياء

٤١ـ ينابيع المودة:

القندوزي، تحقيق: سيد علي جمال أشرف الحسيني، الناشر: دار الأسوة للطباعة والنشر.

الفهرست